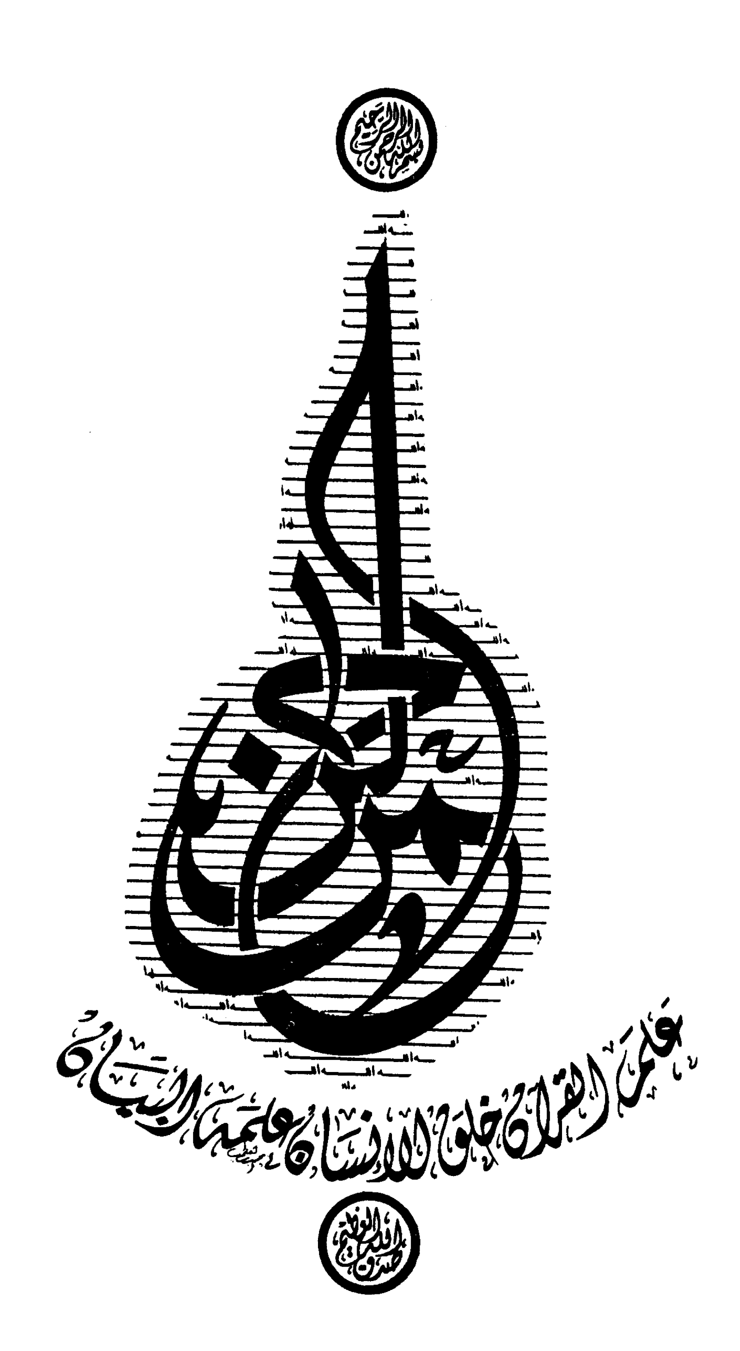
# نظرية التطور
# عند مفكري الإسلام
## دراسة مقارنة

دكتور محفوظ علي عزام

كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة المنيـــا

دار الهـــداية
٤٨ ش يوســف عبـــاس
مدينـــة نصـــر


بسم الله الرحمن الرحيم
الرحمن
علم القرآن خلق الانسان علمه البيان
صدق الله العظيم

# نظرية التطور
# عند مفكري الإسلام
دراسة مقارنة

**الطبعة الثانية**

**١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م**

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له .

أما بعد فهذا البحث الذي أقدمه تحت عنوان « نظرية التطور عند مفكري الإسلام ـــ دراسة مقارنة » محاولة في بحث مشكلة فكرية وعلمية مهمة . وهو بحث في الكون ، ونشأته وتطوره ، وهو موضوع مهم شغل بال الإنسان قديما وحديثا ، ومازال يشغله حتى الآن .

وقد حاولت في هذا البحث أن أطرح موضوعا حيويا يعود بالخير والنفع على فكرنا الإسلامي ، ويلفت انتباه غيري من الباحثين إلى ما في ذلك الفكر من مباحث خصبة تعد في نظر كثير من الباحثين من المباحث العصرية حتى يهتم هؤلاء الباحثون بالموضوعات الأكثر نفعا وإفادة للفكر الإسلامي ، الأمر الذي يجعلنا على صلة بحياتنا وواقعنا الفكري الحاضر .

كما حاولت في هذه الدراسة أن أزيل لبسا قد حدث في فكرنا الإسلامي حيث ظن كثير من الباحثين والدارسين أن مفكري الإسلام قد قالوا بنظرية «دارون » التطورية ، منطلقين في ذلك من مبدأ الدفاع عن مفكري الإسلام أحيانا ، وجريا وراء المعاصرة أحيانا أخرى ؛ ومن هؤلاء الأستاذ إسماعيل مظهر في مقدمة ترجمة كتاب « أصل الأنواع » لدارون وحسن حسين في مقدمة ترجمة كتاب « فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء » لإرنست هيكل ، والأستاذ عبد الكريم الخطيب في « التفسير القرآني للقرآن » والشيخ طنطاوي جوهري في « الجواهر في تفسير القرآن » والدكتور علي

عبد الواحد وافي وغير هؤلاء كثير .

فهؤلاء — وأمثالهم — قد ظنوا أن مفكري الإسلام « داروينيون » مع أن ما قاله هؤلاء المفكرون يختلف اختلافا بينا مع ما قاله « دارون » ، وقد تأتى هذا بعمل مقارنة بين ما قاله الإسلام ومفكروه وبين ما قاله « دارون » وغيره من التطوريين المحدثين .

ومن الطبيعي أن تكون هناك صعوبات في إجراء مثل هذه الدراسة لأنها تحتاج إلى معالجة المسألة في مجالات ثلاثة : دينية ، وعلمية ، وفكرية ، الأمر الذي كان يدعوني أحيانا إلى الاختلاف إلى قاعات الدراسة بأقسام النبات والحيوان بكليات العلوم والزراعة في جامعاتنا .

كما أنني قد وفقت في إجراء إحصاءات دقيقة للآيات القرآنية المتعلقة بخلق الكون والكائنات الحية بما فيها الإنسان ، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع نفسه .

وقد جاء هذا البحث في خمسة أبواب مهد لها بمقدمة وأعقبت بخاتمة .

بحث الباب الأول وعنوانه : مدخل لدراسة نظرية التطور ، في تحديد المصطلحات العلمية والفكرية التي تتعلق بالقضية المدروسة ، وذلك في فصلين كشف أولهما عن مصطلح التطور في اللغة والتراث الفكري والعلمي ، وبين ثانيهما مصطلح الخلق ونظريات الخلق المختلفة .

واضطلع الباب الثاني بمعالجة قضية الخلق والتطور في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وجاء هذا الباب في ثلاثة فصول تناول أولها مسألة خلق العلم وأصله ، وتناول ثانيها الكشف عن حقيقة أصل الحياة وخلق وتطور الكائنات الحية ، وتناول الفصل الثالث بيان وتفسير عملية الخلق والتطور .

كما جاء الباب الثالث ليعالج نظرية التطور عند مفكري الإسلام ، وذلك في فصول ثلاثة ، تناول الفصل الأول منها موضوع العالم وأصله ، والفصل الثاني تناول أصل الحياة والكائنات الحية وتطورها ، أما الفصل الثالث فقد تناول تفسير التطور .

وفي الباب الرابع عولجت نظرية التطور عند مفكري الغرب المحدثين ، وذلك في ثلاثة فصول ، اهتم الأول بمناقشة قضية العالم وأصله ، واهتم الثاني بمسألة أصل الحياة وتطور الكائنات الحية والأدلة على هذا التطور ، كما عالج الفصل الثالث النظريات التي تفسر التطور .

أما الباب الخامس فهو مقارنة وتقييم ونقد وحكم في ضوء الكتاب والسنة ومعطيات العلم النزيه .

وفي الخاتمة أبرزت أهم النتائج العلمية التي توصلت إليها من خلال البحث والدراسة .

وقد جاءت الدراسة ملتزمة بالمنهج الموضوعي القائم على الاستقراء والاستنباط والإحصاءات الدقيقة ، وكل ذلك في موضوعية تامة دون تحيز أو انفعال وفي حيدة علمية .

**والله أسأل أن يلهمنا الرشاد والسداد إنه نعم المسئول ، وهو ولى التوفيق .**

**دكتور**
**محفوظ علي عزام**

# الباب الأول

## مدخل لدراسة نظرية التطور

الفصل الأول : مفهوم التطور .

الفصل الثاني : مفهوم الخلق .



# « الفصل الأول »

# مفهوم التطور

## أ ـ تمهيد :

لما كان موضوع هذا البحث هو نظرية التطور ، كان لزاما عليه أن يتعرض لمفهوم التطور في اللغة والاصطلاح ، وأن يوضح التطور كقانون عام للموجود ، ومن هنا كان هذا هو موضوع الفصل الأول من الباب الأول .

ولما كان موضوع التطور يتصل اتصالا وثيقاً بمسألة الخلق ومشكلة بداية العالم والكائنات الحية ، فقد جعلت دراسة مفهوم الخلق وما يتصل به من عرض لنظريات الخلق ومنابعها موضوع الفصل الثاني من هذا الباب .

وفيما يتعلق بمصطلح « التطور » فالذي ورد منه في القرآن هو لفظ « أطوار » وذلك في قوله تعالي : « وقد خلقكم أطوارا[1] » . ومن الجدير بالذكر القول بأن هذه الآية نص في عملية الخلق المتدرج .

ولسوف أعرض الآن لمصطلح « التطور » محاولا تحديد مفهومه بحسب معناه عند أهل اللغة أولا ، وبحسب معناه في الاصطلاح ثانيا .

## ب ـ معنى التطور :

الواقع أن مصطلح التطور من حيث معناه اللغوي يعد مصطلحا جديدا على المعاجم والقواميس العربية ، حيث لم يرد في المعاجم القديمة إلا لفظ « طور » وورد في القرآن في صيغة الجمع « أطوار » .

(١) سورة نوح ١٤ .

فقد جاء لفظ « طـور » ليدل على معنى « التارة » فتقول : طورا بعد طور ، أي تارة بعد تارة ، والناس أطوار ، أي أخياف على حالات شتى ، كما جاء لفظ « طور » ليدل ــ أيضا ــ على معنى « الحال » « والضرب » قال تعالى : « وقد خلقكم أطوارا[١] » أي : ضروبا وأحوالا مختلفة ، وقال ثعلب : أطوارا ، أي خلقا مختلفة ، كل واحد على حدة ؛ وقال الفراء : أي نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ثم عظما . و« الطور » و « الطوار » ما كان على حذو الشيء ، أو بحذائه ، ويقال : هذه الدار على طوار هذه ، أي حائطها متصل بحائطها على نسق واحد و« الطور » ــ أيضا ــ الحد بين الشيئين ، وعدا طوره ، أي جاوز حده وقدره ، وبلغ أطوريه ، أي غاية ما يحاوله ، ويقال : ركب فلان الدهر وأطوريه أي طرفيه[٢] .

أما في المعاجم الحديثة[٣] ، فقد اشتق المحدثون من كلمة « طور » فعلين هما : « طور » « وتطور » ، بمعنى حول من طور إلى طور آخر ، وتحول من طور إلى آخر ، ثم اشتقوا منهما مصدرين هما : « التطوير » و « التطور » .

وفي اللغة الإنجليزية ترجع كلمة « التطور Evolution » إلى مصدر لاتيني يعني « نشر الشيء المطوي » وبهذا يعني المدلول الحرفي للكلمة الظهور التدريجي لشيء من شيء آخر[٤] .

من كل ما سبق يتبين لنا أن مصطلح التطور يعني ــ لغة ــ الضروب « والأحوال » و« الخلق المختلفة » ، كما يعني ــ أيضا ــ « التدرج » « والتنوع » و« التناسق » و« الحد » و« الغاية » ، كما يفيد ــ أيضا التحـول أو الانتقال من شيء إلى شيء آخر ، والظهور التدريجي لشيء من

---

( ١ ) سورة نوح ١٤

( ٢ ) ابن منظور : لسان العرب ، مادة « طور » .

( ٣ ) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، مادة « طور » .

( ٤ ) كانون ( جراهام ) : نظرات في تطور الكائنات الحية ــ ص ١٣ من الترجمة العربية القاهرة سنة ١٩٦٩ .

شيء آخر .

فإذا انتقلنا من المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي للتطور فإننا نستطيع القول بأن مصطلح التطور لم يرد صريحا في معظم كتابات مفكري الإسلام وعلمائه وإنما الذي ورد هو عبارة عن ألفاظ تدل — من بعض الوجوه — على معنى التطور .

ولعلنا لا نجد تصريحا بمصطلح «التطور» إلا عند «أبي الريحان البيروني[١]» وهو عالم كبير من علماء « طبقات الأرض » يشهد له بذلك ما تركه من نظريات وآراء قيمة حول موضوع تكوين القشرة الأرضية ، وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات خلال الأزمنة والأحقاب الجيولوجية المختلفة .

يقول « أبو الريحان » .. في وصف العصور الجيولوجية : « وعندما تدرس السجلات الصخرية والآثار العتيقة نعلم أن هذه التطورات والتحولات لابد أن استغرقت دهورا طويلة ، تحت ضغط البرد أو الحر ، الأمر الذي لا نعرف وصفه أو قدره ... فإننا نشاهد الماء والهواء ، حتى في أيامنا هذه يشغلان وقتا طويلا في إتمام عملهما ، أما التطورات التي طرأت في العصور التاريخية فقد درست وسجلت في الصحائف »[٢] .

فهنا نجد كلمة « التطور » صريحة ، وقد جاءت بصيغة الجمع ، كما أنها قد جاءت في المعنى المراد من التطور في أبحاث العلماء المحدثين .

وإذا تركنا « البيروني » وذهبنا إلى ما كتبه مفكرون آخرون وجدنا عبارات كثيرة تدل على معنى التطور ، فالفارابي — مثلا — يتحدث عن تدرج الأجسام في الحدوث فيقول : « إنما شأنها ( أي الأجسام ) أن يكون لها أولا

(١) الشحات (علي أحمد) : أبو الريحان البيروني : حياته ، مؤلفاته ، أبحاثه العلمية . القاهرة سنة ١٩٦٨ ص ١٣٨ — ١٣٩ .
(٢) المرجع السابق .

أنقص موجوداتها ، فيبتديء منه ، فيترقي شيئا فشيئا ، إلى أن يبلغ كل منها أقصى كماله »[1] ويقول ابن مسكويه في معرض حديثه عن مراتب الموجودات واتصال بعضها ببعض إنه قد « اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر ، فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزا كثيرا ، على تأليف صحيح ، وحتى جاء من الجميع عقد واحد »[2] . ويفصل « ابن خلدون » في مقدمته هذا التدرج والترتيب في الخلق تفصيلا بديعا ، حيث أننا « نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على هيئة من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي غاياته ... ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، على هيئة بديعة من التدريج ... ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان ، وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية ، ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق الإنسان بعده . وهذا غاية شهودنا[3] » . ويتحدث « ابن مسكويه » عن المنزلة قبل الأخيرة لتطور النبات فيقول : «إن أول هذه المرتبة متصل بما قبله ، وهو في أفقه ، وهو ما كان من الشجر على الجبال وفي البراري المنقطعة ، وفي الغياض وجزائر البحار ، لا تحتاج إلى غرس ، بل ينبت لذاته ، وإن كان يحفظ نوعه بالبذر ، وهو ثقيل الحركة بطيء النشوء ، ثم يتدرج من هذه المرتبة ... ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهي إلى الأشجار الكريمة »[4]

---

( ١ ) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ ص ٢٦

( ٢ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر طبعة بيروت سنة ١٣١٩هـ ص ٨٦ .

( ٣ ) ابن خلدون : مقدمة ــ القاهرة دار الشعب ص ٨٨ ــ ٨٩

( ٤ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٧ .

فالقول بأن الأجسام تترقى شيئا فشيئا إلى أن يبلغ كل نوع منها أقصى كماله وأنها بطيئة النشوء ، وأن بعض الموجودات يستحيل بعضها إلى بعض ، وأنها متصلة بحيث تشكل سلسلة مترابطة الحلقات ، كل هذا يفهم منه أن هؤلاء المفكرين يتحدثون عن تطور الكائنات وترقيها في سلم متدرج وترتيب محكم.

وفي عصرنا هذا بذلت محاولات كثيرة لتعريف التطور علميا ، فمن هذه التعريفات القول بأن التطور هو « الاستمرار أو الاتصال المنشئ Genetic Continuity » وأنه نظام التغير الذي لا يمكن عكسه وأنه نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقها بلاحقها ... وهو في الجملة انتقال من المختلف إلى المؤتلف ومن غير المتجانس إلى المتجانس ، ومن اللامحدود إلى المحدود أو بالعكس[١] . ويرى كونجر ( G.P. Conger ) أن التطور يستلزم ثلاث أفكار أساسية هي : التغير في الزمان ، والنظام أو الترتيب المتسلسل ، والأسباب الملازمة أو المباطنة[٢] .

على أية حال ، للتطور في الفكر الحديث عدة معان :

أولها : أن التطور هو النمو ، والمقصود به أن ينتقل المبدأ الداخلي من حال الكمون والبطون إلى حال الظهور ، حتى يبلغ غايته ، كمبدأ الحياة الذي ينمو وينبسط ، فيخلق في المادة أطوارا وصورا مختلفة ، كالنطفة والعلقة ، والمضغة ، والعظام ، والعضلات .... الخ .

ويمكن القول بأن هذا المعنى يندرج تحته النظرية التي قال بها « النظام » وهي نظرية « الكمون » أو « البطون » التي أخذها من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة .

وثاني معاني التطور ، أنه التبدل التدريجي البطيء بتأثير الظروف الخارجية .

---

( ١ ) مجمع اللغة العربية . المعجم الفلسفي ــ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ ص ٤٧ .

( ٢ ) إمام ( إمام عبد الفتاح ) . مدخل إلى الفلسفة ــ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ ص ٢٢٩ .

وثالث هذه المعاني أن التطور هو التبدل الموجه إلى غاية ثابتة على مراحل متعاقبة يمكن تحديدها مسبقا .

ورابع هذه المعاني أن التطور هو الانتقال من البسيط إلى المركب ومن المتجانس إلى غير المتجانس ، أو من الأكثر تجانسا إلى الأقل تجانسا[١] وهذا المعني هو الذي ذهب إليه « هربرت سبنسر H. Spencer » ، وذلك في كتابه « المبادئ الأولى » الذي نشره عام ١٨٦٢ .

ويرى « سبنسر » أن العالم ككل إنما يعبر عن عملية تطورية هائلة ، وأدوات هذه العملية إنما توجد في « المادة » و « الحركة » و « القوة » ، ولقد صاغ « سبنسر » قانونه على النحو التالي : « التطور هو تكامل المادة وما يصاحبها من تشتت الحركة ، وخلال هذا التكامل ، وهذا التشتت تنتقل المادة من حالة التجانس غير المتعين وغير المترابط إلى تنافر أو لا تجانس متعين ومترابط ، وأثناء ذلك يطرأ على الحركة المحفوظة تحول مواز للتحول السابق »[٢] . وهذا يعني أن جميع التغيرات تمثل — في رأي سبنسر — عملية تكامل وتشتت أو تكامل وتمايز .

ويسمى التطور بالتطور الفردي إذا دل هذا التطور على نمو الفرد وانتقاله من نقطة الابتداء الوحيدة الخلية إلى سن الرشد الكثيرة الخلايا . بينما يسمى التطور بالتكوين النوعي إذا دل على تبدل النوع الواحد إلى أنواع كثيرة مختلفة .

ويندرج تحت اسم المفكر التطوري كل مفكر مؤمن بالتغير والارتقاء ، أو بالتنوع المصحوب بالتكامل ، أو باتصال الأكوان وتبدل الموجودات ، واستحالة الأشياء بعضها إلى بعض ؛ وبناء على هذا يندرج ما قاله مفكرو الإسلام الذين تناولوا قضية التطور ، عندما راعوا تدرّج الكائنات وترتيبها في

---

(١) صليبا ( د. جميل ) . المعجم الفلسفي جـ ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٢) إمام ( د. إمام عبد الفتاح ) . مدخل إلى الفلسفة ص ٢٣٠ — ٢٣١

نشأتها وتكاملها في ارتقائها .

ويقول كثير من علماء عصرنا إن معنى التطور يتضمن معنى الارتقاء ، وأن معنى الارتقاء يتضمن معنى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الحسن يحدث الانتقال إلى الأحسن ، ومن الأقل كمالا إلى الأكثر كمالا .

على أن بعض العلماء يرى أنه ليس من الضروري أن تكون التغيرات المستمرة التي تطرأ على الكائنات الحية في مسيرتها التطورية إلى الأحسن ؛ ففي حين أن بعض الكائنات قد تحسنت عن طريق التطور ، نجد أن بعضها الآخر قد انحط بالتدريج إلى صورة أكثر انحطاطا ، بل إلى الفناء والزوال . وتعطينا « الديناصورات » مثالا حيا على هذا ، حيث أنها مع ضخامة جسمها قد تغلب عليها — لعدم قدرتها على التكيف مع البيئة — حيوانات أقل أهمية منها[1] .

إن كلمة « التطور » عندما تطلق فإنه يفهم منها لأول وهلة « التطور العضوي Organic Evolution » ؛ والحق أن التطور يشمل مجالا أرحب من مجال التطور العضوي ، يتمثل في الكون كله ، سواء كان عضويا أو غير عضوي ، فالتطور نوعان : تطور كوني عام ، وتطور عضوي ، فالتطور العضوي ليس إلا أحد أشكال التطور .

ويلزم كل قائل بالتطور أن يتعرض لمسألة الخلق ، لأن التطور — مع أنه من موضوعات العلوم الطبيعية — متصل بمسألة خلق الإنسان اتصالا وثيقا ومن هنا فله صلة جوهرية بالعقيدة الدينية ، سواء كان هذا التطور عضويا أو غير عضوي ، وسواء كانت العقيدة إسلامية أو مسيحية أو يهودية .

وكان الأستاذ العقاد — رحمه الله — يرى أنه لا يلزم القائلين بالتطور

---

(١) فرجارا ( وليم ) : كنوز العلم — أسئلة وأجوبة — الترجمة العربية القاهرة سنة ١٩٦٤ ص ٣٣١ - ٣٣٢.

العضوي التعرض لمسألة الخلق والإيمان بالخالق، بينما يلزم القائلين بالتطور الكوني العام ذلك[1] .

على أية حال يعرف التطور العضوي بأنه « مفهوم يتضمن الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجي مستمر »[2] وأنه « ظاهرة طبيعية تعني تغير صورة الكائنات الحية وظهور أنواع وأشكال جديدة منها »[3] . كما يعرف ــ أيضا ــ بأنه نظرية تفترض « أن جميع الكائنات الحية التي تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول ، وأن التغيرات المختلفة التي حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى أخرى أكثر تعقيدا[4] وأنه عملية النمو المستمر لنوع ما من الكائنات منذ بدء أطوار حياتها الأولى[5] » .

ومن الجدير بالذكر القول بأن نظرية التطور عند مفكري الإسلام تبعد كثيرا عن هذه المفاهيم السابقة والخاصة بالتطور العضوي بالمعنى الذي ذهب إليه « تشارلز دارون Ch. Darwin » وأشياعه من التطوريين المحدثين ؛ فهم ( أي مفكرو الإسلام ) يصنفون الكائنات تصنيفا يقوم على الترتيب والأفضلية والشرف والتدرج ، حيث نجد الفارابي ــ مثلا يقول إن « ترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولا أخسها ثم الأفضل فالأفضل ، إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه ، فأخسها المادة الأولى المشتركة ، والأفضل منها الأسطقسات ، ثم المعدنية ثم النبات ، ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »[6] .

---

( ١ ) العقاد ( عباس محمود ) : الإنسان في القرآن ــ طبعة ثانية بيروت سنة ١٩٦٩ ص ٨٠ .

( ٢ ) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال ــ القاهرة ص ٥٢٩ .

( ٣ ) عاشور ( د. محمد عبد القادر ) وفؤاد ( د. محمد كمال الدين ) : محاضرات في علم النبات - جامعة القاهرة ص ٦

( ٤ ) محجوب ( فاطمة ) : دائرة معارف الشباب ــ الطبعة الأولى ــ القاهرة ص ٢٦١ .

( ٥ ) الجامعة الأمريكية : المعجم العلمي المصور ــ القاهرة ص ٢٢٢ .

( ٦ ) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢٨ ــ ٢٩ .

فالمبدأ الذي راعاه مفكرو الإسلام في نظريتهم التطورية هو المفاضلة والترتيب بين الكائنات ، على حسب حظها من الحياة التي هي أثر من آثار النفس ، أو من مشابهة الأحياء ، ولهذا كانت نظريتهم تقدمية ، وسيتضح فيما بعد عمق هذه النظرة عندما نعرض لنظرية التطور عند مفكري الإسلام .

فمصطلح «التطور» جديد في اللغة العربية ، وهو مشتق من كلمة «طور» التي تعني الحال والضرب والتارة والخلق المختلفة ، والتدرج والتنوع والتناسق والحد والغاية والانتقال من شيء إلى شيء آخر ، والظهور التدريجي . ومن الناحية الاصطلاحية فهو يعني شيئين : نظرة شاملة للكون في تدرجه وترتيبه وظهوره ، وأن الكائنات الحية نشأت من أصل واحد أو عدة أصول نشوءا تدريجيا متغيرا مستمرا ، وهي تبدأ من البسيط إلى المركب ، ومن الأدنى إلى الأعلى ، بغية الوصول إلى الكمال . كما تبين للبحث أن هناك بعدا بين ما يراه مفكرو الإسلام في نظريتهم التطورية ، وما يراه المحدثون من التطوريين ، مع دخول نظرية مفكري الإسلام في نطاق النظريات التطورية . وسيتضح لنا ــ بمشيئة الله ــ كثير من الفروق الجوهرية التي تفصل بين النظريتين نتيجة للمقارنة الموضوعية بينهما .

## جـ ــ التطور هو قانون الوجود :

إن قانون التطور ــ كما يرى بعض الباحثين ــ يحمل من الصدق بقدر ما يحدد نفسه في مجال السير المنظم في خطوات تدريجية للنمو في قطاع خاص ، دون أن يدعي لنفسه الحق في انتقال قطاع معين أو جنس أو نوع خاص إلى قطاع أو جنس أو نوع آخر ، أي دون أن يدعي تداخل الأجناس أو الأنواع[١] .

(١) جعفر (أ . د. محمد كمال) : في الدين المقارن ــ دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠ ص ١٦٦ .

والواقع أنه عندما يتأمل الإنسان في الكون لابد أن يدرك أن للوجود — في مجموعه — وحدة شاملة ؛ هذه الوحدة يسيطر عليها قانون أو مبدأ عام ، هو قانون التطور والترقي ، الذي يشمل سائر الكائنات وأنواعها ، حية وغير حية فهو تحول في الذرات ، وتحول في العناصر ، وتحول في مادة الأشياء ، ثم تطور في الأفراد والجماعات والأمم والشعوب ، وتطور في الفكر ونواحي الحياة المختلفة .

إن قانون التطور والترقي من أعجب السنن الكونية التي تحدثها القدرة الإلهية ، فهو الناموس العام الذي يقود الكائنات بأسرها إلى التسامي والتكامل ، الأمر الذي يدل — باديء ذي بدء — على أنه فعل معقول مصمم من قبل نشأة الأشياء والأحياء ، من تدبير في غاية من الإدراك والوعي واليقظة .

كما أن قانون التطور هذا هو أشمل قوانين الطبيعة وأرقاها مطلقا ، بصرف النظر عن نظرية « دارون » في تطور الكائنات الحية ، وعما في تلك النظرية من خطأ أو صواب ، كما سيتضح لنا عند دراسة التطور عند الغربيين وتقييمنا لنظريات التطور بصفة عامة .

ولا تعليل لمثل هذا القانون — قانون التطور — ولا سبب إلا أن يكون مجرد نزوع الكائنات إلى الترقي والتسامي طبقا للتكامل الذي تنشده وتهدف إليه في تطورها وترقيها ، والكمال هو الصفة البارزة التي تتوج صفات الله جميعا ، ومنه اكتسبت الكائنات ذلك النزوع الذي فطرت عليه إبان تكوينها .

ولقد أدرك مفكرو الإسلام وعلماؤه هذه الحقيقة ، وهي أن التطور قانون الوجود قاطبة ، وطبقوه في كل مجالات الحياة المختلفة ، مع إدراكهم للحقائق التي لا تتطور ولا تتغير باختلاف الأزمان والعصور .

فهاهم علماء اللغة يقرون بأن اللغة العربية قد مرت بأطوار مختلفة ، حتى بلغت كامل حسنها وبيانها ، وصار لها شأن عظيم ، وتأثير بالغ بعد أن انتقلت إلى أولاد إسماعيل ، الذين أخذوا يصوغون الكلام بعضه من بعض ويضعون الأسماء بحسب ما يحدث من المعاني ... ثم ارتقت اللغة في صدر الإسلام إلى طورها الأعلى ، ودخلت في أهم دور ، وهو ما يمكن أن يسمى عصر شبابها ، حيث نمت عروقها وأثمرت غصونها بألوان مختلفة من الأساليب ثم بدأ الضعف يدب في اللغة نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم ، وبعد الاهتمام الزائد بالبديع والمحسنات اللفظية[1] .

فاللغة العربية بدأت حياتها ضعيفة الإبانة عاجزة الأداء ، معدودة الكلمات ثم انتقلت اللغة من طور الطفولة هذا إلى طور الصبا ، ومن طور الصبا انتقلت إلى طور الشباب الفتي كما تمثل في عصر صدر الإسلام[2] .

ويرى دارسو الاديان والمقارنون بينها أن صحة فكرة التطور قد تنطبق على دين معيّن ، وقد تنطبق على الأديان جميعا إذا أريد بها سير تلك الأديان — خصوصا في المجال التطبيقي — بخطوات متدرجة توازي نمو الإنسان الفكري والاجتماعي ، دون أن نذهب إلى كون الدين قد اخترع في فترة خاصة من هذا النمو ليحل محله — في مرحلة نمو أخرى — شيء آخر هو العقل أو الفكر أو الفلسفة ، ودون أن نستنبط أن الدين ظاهرة اجتماعية من صنع المجتمع ، ولا صلة له بالحقيقة الموضوعية المرتبطة بالوحي أو الإله[3] .

ويقول الأزدي في كتاب « تاريخ الممالك الإسلامية » : « إن الزمن لا

(١) حسين ( الشيخ محمد خضر ) : دراسات في العربية وتاريخها — الطبعة الثانية — دمشق سنة ١٩٦٠ ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) حسن ( عباس ) : اللغة والنحو بين القديم والحديث — دار المعارف سنة ١٩٦٦ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) جعفر ( أ. د. محمد كمال ) : في الدين المقارن ص ١٦٧ .

يقف بل إن صفته الدائمة التغير »[1] . وهذا صحيح فإن الأشياء في تغير متصل ومستمر ، حتى إن « هيراقليطس » قال : « إنك لا تعبر النهر الواحد مرتين »[2] .

وقد لاحظ الأدباء أن لاختلاف الزمان والمكان أثرا حاسما في تقييم الشعر وتذوقه ، حتى قالوا إنه « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره »[3] .

أما في مجال التطور الروحي فإن بعض الباحثين المحدثين يعتبر أن تاريخ الصوفية يعد أمرا حيويا بالنسبة لفهم تاريخ الإنسانية فهما عميقا ، وذلك لأنه يرينا في حدود مستوى خاص خطوات التدرج الروحي والنفسي ، كما أنه يرينا الطريقة التي ينطلق بها الوعي وينشر بدلا من أن يظل كالكتاب المغلق ، فعند أكابر الصوفية توجد أسمى وجوه التطور للشعور الذي يمكن أن يصل إلى مداه إنسان حيث نرى هذا الشعور معروضا واضحا بكل مراتبه ومراحله ، التي منها الرائع الخلاب والقاهر الغلاب . وإن كان من الصعب أن نربط بين مراحل هذا التطور وسائر أنواع التطور العضوي في سائر أنحاء الحياة ، كما تتحدث عنها « الداروينية » . لكن من الصحيح أن نقارن تدرج الصوفي في مراحل رحلته إلى الله ونموه الروحي الوئيد الثابت بتدرج الجنين أو الإنسان في مراحل وئيدة ، فهنالك خطوات للنمو الروحي ، كما أن هناك خطوات خاصة بالنمو البدني أو العضوي[4] .

وإذا كان التطور يصعد مترقيا نحو الكمال في كل شيء فإنه لا مانع من أن

---

(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ــ دمشق ١٣٤٩هـ ص ٢٢ .
(٢) محمود ( د. زكي نجيب ) وآخرون : مسائل فلسفية ــ القاهرة سنة ١٩٨١ ص ١٧ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ــ القاهرة ١٣٢٥هـ جـ ١ ص ٥٨ .
(٤) جعفر (أ. د. محمد كمال) : التصوف طريقا وتجربة ومذهبا دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠ ص ١٩ – ٢١ .

نتصور أن التطور سيكون دائما إلى نوع أعلى من الشعور والوعي بحيث يشمل أكثر الآدميين ، كما أن روحية الإنسان وباطنيته تمتد وتتسع بحيث يتمكن من رؤية أنحاء من الكون لم تزل خافية عنه[١] .

كما يمكن القول — من جهة أخرى — بأن فكرة استمرارية التطور الفكري المستمر من جيل إلى آخر لم تكن فكرة غريبة تماما عن التفكير الإسلامي ، فالفارابي — مثلا — يقول إن افلاطون كان يقصد من كلامه في محاورة « طيماوس Timaeus » أن كل معرفة يمكن أن تخطر في البال ستصبح يوما في متناول الجنس البشري وذلك نتيجة للبحث الذي لا ينقطع ، بل يستمر من جيل من العلماء إلى جيل آخر . وكان « أبو بكر الرازي » على اقتناع بأن تاريخ الفلسفة ما هو إلا بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة من الفلاسفة . يقول « الرازي » : «إعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر في الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه ، وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقته وصعوبته علم علم من تقدمه منهم ، وحفظه ، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أُخرى ، لأنه مهر بعلم من تقدمه وفطن لفوائد أخرى ، واستفضلها ، إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل »[٢] .

أما في علم الاجتماع فإننا نجد « ابن خلدون » في نظريه الاجتماعية في تفسير التاريخ يأخذ فكرة التطور التدريجي في الحسبان إلى حد كبير ، حيث يرى ابن خلدون أن اتجاه المجتمع البدوي البدائي هو باستمرار نحو الحياة الحضرية المتمدنة . وهذا الانتقال من دور البداوة إلى طور الحضارة عملية تتكرر دائما[٣] .

(١) المرجع السابق ص ٢١١ .
(٢) الرازي : رسائل فلسفية جمعها وصححها بول كراوس جامعة فؤاد الأول كلية الآداب القاهرة ١٩٣٩ .
(٣) ابن خلدون : مقدمة — دار الشعب ص ١١٢ ، ١٥٤ .

فالجماعة الإنسانية — في نظر ابن خلدون — تمر بأطوار مختلفة ، وتتقلب في أطوار متعددة وصور مختلفة ، من حالة البداوة وما فيها من حرية إلى حالة القبيلة ورئيسها ، ثم الدولة وحاكمها . ولكل حالة من هذه الحالات عوارض خاصة من العادات والتقاليد والعلوم ، وقد قسم «مقدمته» وفقا لهذه الحالات(١) .

وإذا انتقلنا إلى مجال الطب والكيمياء(٢) فإننا نجد أن فكرة التطور والنمو التدريجي لم تكن غريبة عن تفكير مفكري الإسلام وعلمائه . ويقال عن « ابن ماسويه » انه عندما قارن بين علمه وعلم « أبقراط » و« جالينوس» قال إنه أضاف إلى علم الطب كثيرا من المعارف الطبية . وقد انتقد « ابن المطران » مؤرخا آخر من مؤرخي علم الطب لم يكن يشاركه اعتقاده بأن تقدم الطب التدريجي ناشيء عن تقدم العقل البشري وأخذه بالبحث العلمي .
ويرى « ابن المطران » أن العلم الذي ثبتت صحته قد وصل الينا بعد أن أضاف إليه العلماء ما أضافوه نتيجة للبحث والدرس ، فإذا « غلط متقدم سدد متأخر ، وإذا قصر قديم تمم محدث ، هكذا في جميع الصناعات »(٣) .

وقد عد مفكرو الإسلام بلوغ الكمال الصفة الرئيسية التي يتصف بها التطور والنمو من جيل إلى آخر ، ولا يبعد هذا عما يقوله « ابن عبد ربه » في عقده : « ثم إني رأيت آخر كل طبقة وواضعي كل حكمة ، ومؤلفي كل أدب أعذب ألفاظا وأسهل بنية ، وأحكم مذهبا وأوضح طريقة من الأول ، لأنه ناكص متعقب والأول باديء متقدم »(٤) .

---

(١) نعيم ( د. محمد السيد ) وحجازي ( د. عوض الله ) : في الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية — الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩ ص ٣٣٤ .

(٢) رسائل جابر بن حيان جـ ٢ ص ٥٤ وما بعدها . نشر بول كراوس .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء تحقيق موللر A. Muller القاهرة — كونكسبرج ١٨٨٢ — ١٨٨٤ جـ ١ ص ٧ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد — القاهرة سنة ١٣١٦هـ جـ ١ ص ٢ .

كما عرف المسلمون التطور في فقههم معرفة وثيقة ، وصاحبوه مصاحبة عميقة في تاريخهم الحي كله ، غير أنهم لم ينحرفوا به عن سواء السبيل لقد عرفوه في فقههم حين قال عمر بن عبد العزيز : « يجد للناس من الأقضية (أي الأحكام) بقدر ما يجد لهم من القضايا »[1] . وحين أخذ الفقهاء هذا الاتجاه نموا الفقة بالاجتهاد حتى شملوا به كل ما جد في حياة الناس من أحداث ووقائع واتجاهات .

أما في حقل العلوم الطبيعية ، فقد ظهر لدى مفكري الإسلام اهتمام شديد لإيجاد نظام تنتظم فيه جميع الموجودات في الطبيعة متدرجة تدرجا تصاعديا ، بدءا بالمعادن ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان[2] . وقد حاول علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر والعشرين أن يروا في ذلك النظام لترتيب الموجودات بعض الشبه بآراء « داروين » في ارتقاء الكائنات وتطورها . يقول « درابر » الأمريكي في كتابه « النزاع بين العلم والدين » : « إننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم (أي المسلمين) من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهبا حديثا ، كان يدرس في مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه . وذلك بتطبيقه على الجمادات والمعادن أيضا »[3] .

والحق أنه ينبغي الاحتراس من مثل هذه الأقوال التي ينخدع بها كثير من الباحثين المسلمين . وبالفعل قد انخدع كثير منهم بمثل هذه الأقوال فرددوها دون فهم أو رويّة . فهذه الأقوال مع أنها تقال غالبا في معرض الإنصاف للإسلام والمسلمين والفكر الإسلامي إلا أنها مع ذلك لا تمثل حقيقة التطور عند

(١) قطب (محمد) : التطور والثبات في حياة البشر — دار الشروق سنة ١٩٧٤ ص ٣٨ - ٣٩ .
(٢) Sarton (G.) : Introduction to the History of Science 1, 168 (Baltimore 1927) and 2, 62 (Baltimore – Washington 1931).
(٣) وجدي (محمد فريد) : الإسلام دين علم خالد — الطبعة الثانية ص ٢٣٣ .

مفكري الإسلام فظاهر الأمر ــ كما يرى العلامة « ج . سارتون G. Sarton » أن مفكري الإسلام في تنظيمهم المتدرج الصاعد للموجودات في الطبيعة لم يقصدوا أن الاشياء تدرجت خطوة خطوة منقلبة من حالة إلى حالة تليها ، بل قصدوا أن هذه الظواهر وجدت في الطبيعة وأمكن ترتيبها بذلك التسلسل .

فالذي اهتدي إليه مفكرو الإسلام شيء آخر غير مذهب النشوء والارتقاء بالمعنى الذي ذهب إليه « تشارلز داروين » و « والاس » وغيرهما . فهم قد لاحظوا التدرج في مراتب المخلوقات من الجوامد إلى المعادن فالنبات فالحيوان فالإنسان . ولكنهم لم يقولوا ــ كما قال « داروين وغيره » إن الإنسان من أصل حيواني ، ولم يبخسوه قدره ، ولا نفوا عنه مزاياه التي تفرد بها ، وردوا تميزه ابتداء ــ إلى إرادة الله الصريحة من خلقه هكذا متميزا متفردا ليصبح خليفة الله في الأرض . ومن ثم عرفوا التطور ، ولكنه لم يتحول في تفكيرهم إلى لوثة مدمرة كما حدث في الفكر الغربي المادي[١] .

لقد عرف المسلمون التطور في كل شيء ، ولكنهم لم يعرفوا التحول Transformation . وهناك فرق بين التطور والتحول ، فالتحول Transformation مذهب بيولوجي يقول بأن الأنواع النباتية والحيوانية تتحول تحولات فجائية تقوم على ولادة أبناء متصفين بصفات مختلفة عن صفات آبائهم ، فإذا كتب لهؤلاء الأبناء البقاء أنسلوا سلالة جديدة ذات صفات مختلفة عن صفات سلالتهم الأولى ، وهكذا دواليك[٢] . فهذا المذهب يقول بأن أنواع الأحياء غير ثابتة ، بل هي قابلة للتحول من نوع إلى آخر . وهو أضيق مجالا من مذهب التطور الذي لا يقف عند عالم الأحياء[٣] .

أما مذهب التطور Evolution فهو في أصله مذهب بيولوجي يقول ــ أيضا

(١) قطب ( محمد ) : التطور والثبات وفي حياة البشر ص ٣٩ .
(٢) صليبا (د. جميل) : المعجم الفلسفي جـ ١ ص ٢٥٩ .
(٣) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ص ٤١ .

ـــ بحصول التحول الارتقائي ، إذ هو عبارة عن نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقها بلاحقها ، كتطور الأفكار والأخلاق والعادات . ولا يكون التطور مسبوقا بتخطيط ولا مستهدفا لغاية على عكس التقدم . وهو في الجملة انتقال من المختلف إلى المؤتلف ومن غير المتجانس إلى المتجانس ، ومن اللا محدود إلى المحدود أو بالعكس . ولا يتضمن التطور في ذاته فكرة التقدم أو التقهقر وإنما يعبر عن التحولات التي يخضع لها الكائن العضوي أو المجتمع سواء أكانت ملائمة أم غير ملائمة[1] . فالمذهب الدارويني هو في الحقيقة مذهب تحولي تطوري ارتقائي غير أن « دارون » قال بالتطور كمذهب بيولوجي ، ولم يجعل منه فلسفة شاملة للوجود . أما « سبنسر » فقد جعل من التطور فلسفة شاملة للوجود ، بكل ما فيه من ماديات ومعنويات ، وبهذا عد « سبنسر » واضعا للفلسفة التطورية في العصر الحديث[2] .

فالذي ينكره مفكرو الاسلام ــ في الواقع ــ هو التحول ، أما التدرج المتصاعد والموجود في أصل التكوين بدءا من الجمادات ، فالنباتات ، فالحيوان فالإنسان ، فتلك حقيقة ثابتة منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، لا يسع العين إنكارها ، فضلا على العقل والفكر . فسلسلة أنواع الموجودات فيها من التناسق في طريق الصعود إلى اعلى ما يجعلها شبيهة بحبات عقد متساوية في التدرج نحو الأكثر جمالا وندرة .

وقد تحدث مفكرو الإسلام عن هذا التدرج المتصاعد الدال بأظهر برهان على وجود الخالق العظيم وعظيم إبداعه .

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ص ٤٧ .

(٢) الجسر ( الشيخ نديم ) : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ١٩٠

فهذا التدرج حقيقة واقعة مشاهدة قائمة ، كما هي منذ أقدم العصور التي وعاها الإنسان . ولا شأن لها — في حقيقة الأمر — بما افترضه « الداروينيون » وأمثالهم من تطور كل نوع من النوع الذي دونه ، سواء بالنسبة للإنسان وغيره ، فهي فرضية قد لا يكون لها أصل عند التحقيق[1] .

هذا هو نوع التطور الذي وجد عند مفكري الإسلام ، ولكن بعض الباحثين قد انخدع بمقولة التطور البيولوجي — كما هي في نظريات التطور الغربية — وراح ينطق مفكري الإسلام بها ، جريا وراء المعاصرة والتحديث والتجديد والعصرية والمواكبة والأصالة ، وذلك في أغلب الأحيان عن حسن نية ، وفي بعض الأحيان عن سوء قصد ، وفي كل حال عن عدم فهم ؛ وسوف أجلي بمشيئة الله — سبحانه — هذه المسألة عندما يقيم البحث نظريات التطور الحديثة وينقدها ، سواء كانت « لاماركية » أو « داروينية » أو « داروينية جديدة » .

وليس من شأن البحث هنا أن يحكم على نظريات التطور إذ سيكون حكما مسبقا ، والعلم والفلسفة يبعدان بالإنسان عن الأحكام المسبقة . وإنما كان من شأننا هنا أن نوضح فقط أن الكون كله يشمله قانون عام هو التطور وأن مفكري الإسلام قد فطنوا إلى هذا وطبقوه في علومهم المختلفة ومعارفهم المتنوعة .

والحق أن مشكلة التطور من أعقد المشكلات التي تصادف الباحثين ، إذ هي مشكلة الخلق الأول ، وأصل الكائنات والأنواع ، وأصل الإنسان . فهل هذا الخلق كان مباشرا وبصفة مستقلة ، بمعنى أن كل نوع قد خلق مستقلا بطريقة مباشرة ، أم أن هناك أصلا واحدا أو عدة أصول نمت وتدرجت وتحولت ، واشتقت منها الأنواع المختلفة بما فيها الإنسان ؟ وبعبارة أخرى ، هل الخلق تم عن طريق الخلق الخاص لكل نوع على حدة ، أم أنه قد تم

(١) البوطي (د. محمد سعيد رمضان) : كبرى اليقينيات ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

عن طريق التطور التدريجي التحولي البطيء ؟ وما أصل هذه المشكلة ، وما هو الطريق الأمثل لمعالجتها ؟
وما العلاقة بين الخلق والتطور ، أو ما موقع التطور من نظريات الخلق بصفة عامة ؟ .

لكي يجيب البحث على هذه الأسئلة الصعبة لابد أولا أن يمهد للإجابة عليها بطرح النظريات المختلفة التي تفسر عملية الخلق ، موضحا منابع هذه النظريات وأنواعها وطرقها ومسالكها ، وذلك بعد أن نكون قد حددنا أصل المشكلة . وكل هذا سيكون في إيجاز أرجو ألا يكون مخلا بالموضوع .
وسيكون ذلك ضمن موضوع الفصل الثاني المتعلق بمفهوم الخلق .



# «الفصل الثاني»
# مفهوم الخلق

## أ ـ تمهيد :

لقد تبين للبحث أن أكثر مصطلحات الخلق دورانا في القرآن الكريم هو مصطلح « الخلق » ، فمادة « الخلق » قد وردت أكثر من مائتين وخمسين مرة ، باشتقاقاتها المختلفة . وكانت الصيغتان الفعليتان «خلق» و«خلقنا» هما أكثر الصيغ ورودا ، حيث ورد الفعل « خلق » أربعا وستين مرة ، كما وردت الصيغة « خلقنا » أربعا وعشرين مرة .

ولما كان مصطلح « الخلق » متصلا بموضوع التطور فقد أفردت له هذا الفصل ، لأوضح معناه عند أهل اللغة ، ومعناه في الاصطلاح الفلسفي ، ثم أوردت بعد ذلك نظريات الخلق المختلفة مبينا صلتها بموضوع التطور .

## ب ـ معنى الخلق :

لقد جاء مصطلح « الخلق » في اللغة ليدل على معنى « التقدير » و« ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه » ، و « الإنشاء على مثال أبدعه » و « إحداث الشيء بعد أن لم يكن » ، ويأتي « الخلق » بمعنى المخلوق وبمعنى الدين . و«الخليقة» الطبيعة ، و«الخلقة» الفطرة و « المخلقة التامة الخلق »[1] . ويأتي « الخلق » ـ أيضا ـ بمعنى « الإيجاد » وبمعنى « الفعل »[2] ، مثل قوله تعالى :« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض »[3] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب جـ ١١ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٥ . مادة « خلق » .
(٢) ابن عربي : الفتوحات المكية ـ تحقيق د. عثمان يحيى ـ هيئة الكتاب سنة ١٩٧٤ سفر ٣
(٣) سورة الكهف ٥١ .

أما معناه في الاصطلاح ، فالخلق « هو تقدير كل شيء من شيء آخر[1] » . وهو اسم مشترك : فقد يقال : خلق ، لإفادة وجود كيف كان ، وقد يقال : خلق ، لإفادة وجود حاصل عن مادة وصورة كيف كان ، وقد يقال : خلق لهذا المعني الثاني لكن بطريق الاختراع ، من غير سبق مادة فيها قوة وجوده وإمكانه[2] . وهذا المعنى الأخير يفيد الخلق من العدم و« الخلق » ـــ أيضا موجود بمادة ، مثل الأفلاك والعناصر والمواليد الثلاثة أي الجمادات والنباتات والحيوانات[3] . ويطلق « الخلق » في أكثر الأحوال على « إيجاد الشيء من الشيء قبله ، كخلق الإنسان من التراب ، ويقتضي تركيبا »[4] .

و«الخلق» عند « الماتريدي » له معنيان : خلق من العدم ، وهو لله وحده ، وخلق من مادة سابقة ، وفي شروط محدودة وهو للإنسان[5] .

وهناك « الخلق المستمر » ، وهو ما يعني إيجاد الله ـــ سبحانه ـــ للعالم والكائنات ، وابقاءه ـــ سبحانه ـــ لهما ، وهذا هو ما يسمى في الفلسفة الحديثة بالخلق الدائم أو الإبداع الدائم .

فالخلق ـــ بناء على هذه التعريفات السابقة ـــ يأتي بمعنى « الابداع » و« الصنع » أي الخلق على غير مثال سابق ، كما يأتي بمعنى « الإيجاد » مطلقا ، سواء كان من مادة سابقة أو من غير مادة سابقة ، كما يأتي ـــ أيضا ـــ بمعنى « التقدير » .

---

(١) إخوان الصفا : رسائل ـــ بمباي سنة ١٣٠٦هـ مجلد ٤ ص ٥١ .

(٢) الغزالي : معيار العلم ص ٢٩٤ .

(٣) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ـــ مادة «خلق» مجلد ١ ص ٤٤٨ .

(٤) الراغب الأصفهاني : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ١٦ .

(٥) قاسم ( د. محمود ) مقدمة كتاب الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١١١ .

## جـ ـــ نظريات الخلق ومنابعها :

### ١ ـــ أصل المشكلة :

إن هناك نظريات متعددة فيما يتعلق بمشكلة الخلق ، وبالأحرى مشكلة تفسير الخلق . والواقع أن هذه المشكلة قد نشأت نتيجة لأمرين :

**أولهما** : أن هناك أنواعا كثيرة من الحيوانات والنباتات تقدر في العصر الحاضر بمليون نوع Species من الحيوانات ، وربع مليون نوع من النباتات ، وكان لابد من البحث عن تفسير لهذا التنوع والاختلاف .

**وثانيهما** : أن مسألة الخلق مسألة دقيقة يصعب على المرء فهمها أو تفسيرها ، وما ذلك إلا « لأن وسع الخلق لا يحتمل درك التكوين كما لايبلغه فهم البشر[١] » ، كما يقول « الماتريدي » بل أزيد من ذلك يقول « داروين » فيما يحكيه عنه « داونز » : «لا أستطيع أن أدعي بأنني ألقي أقل بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العميقة ، فإن سر بداية الأشياء غير قابل للحل . أما فيما يتعلق بي شخصيا فإنني قانع بأن يكون موقفي هو موقف اللا أدري حول هذا الموضوع[٢] » .

فالتنوع المشاهد في الكائنات الحية وغير الحية من ناحية ، ودقة المسألة من جهة ثانية ، كانا السبب الحقيقي لهذا التنوع والاختلاف في تفسير عملية الخلق . ومن هنا وجد لدينا رصيد ضخم من النظريات التي تفسر قضية الخلق ، وهي ـــ في الحقيقة ـــ أكبر مشكلة تواجه الإنسان الذي يتأمل وجوده ومصيره . ومن هنا ـــ أيضا تعددت النظريات وتنوعت طرقها ، بحيث يمكن القول بأن هذه النظريات نفسها قد أصبحت مشكلة محيرة للباحث

---

(١) الماتريدي ( أبو منصور ) : كتاب التوحيد . تحقيق د. فتح الله خليف طبعة سنة ١٩٧٠ ص ٤٩ .
(٢) مجلة تراث الإنسانية ، المجلد التاسع ، العدد الأول سنة ١٩٧١ .

الذي يريد أن يجلي حقيقة الأمر في هذه النظريات . ولكن لا بأس من أن يحاول الباحث أن يقدم نبذة يسيرة تعرف بهذه النظريات على سبيل الإجمال .

**٢ - نظريات الخلق :**

لقد تعددت النظريات التي تفسر عملية الخلق في الفكر الإسلامي وتنوعت ، واختلفت اختلافا بينا ، ولكنها مع تعددها وتنوعها واختلافها تتفق على مبدأين مهمين يحكمان عملية التفسير .

أم المبدأ الأول فهو أنه لا خلاف بين مفكري الإسلام قاطبة على أن الله جلت قدرته ـــ هو الخالق وأن العالم صادر عنه ، ومخلوق له « فالذي ذهب إليه عصابة أهل الحق من الإسلاميين وغيرهم من طوائف المحققين أنه لا خالق إلا الله ـــ تعالي ـــ وأن وجوب وجود ما سواه ليس إلا عنه »(١) .

أما المبدأ الثاني فهو أن هؤلاء المفكرين قد اتفقوا جميعا على أن العناصر والكائنات الحية محدثة ، يقول « ابن رشد » في هذا المبدأ : « فأما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره ، وعن شيء ، أعني عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه ، أعني على وجوده ، وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس ، مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعرية على تسميتها محدثة(٢) » .

وما دام مفكرو الإسلام متفقين على هذين المبدأين ، إذن فالخلاف إنما يكمن في تفسير الخلق وكيف تم ، وعلى أي وجه صدرت الكائنات عن الله

---

(١) الآمدي ( سيف الدين ) : غاية المرام في علم الكلام . تحقيق د. حسن محمود عبد اللطيف ـــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـــ القاهرة سنة ١٩٧١ ص ٢٠٣ .

(٢) ابن رشد ( أبو الوليد ) : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ـــ دار المعارف سنة ١٩٧٢ ص ٤٠ ـــ ٤١ .

ومن هنا ــ أيضا ــ ظهر الخلاف والاختلاف حول تفسير العلاقة بين الله سبحانه ــ والعالم ، لأنها علاقة بين الواحد والكثير ، بين الثابت والمتغير بين اللامادي والمادي ، بين الأزلي والحادث ، بين الأبدي والفاني .

فهذه العلاقة مسألة دقيقة على أفهام البشر وعقولهم ، وذلك لأن أحد طرفي العلاقة ، وهو الله ــ عز وجل ــ ليست ذاته معلومة لنا علما مباشرا ، ولذلك صلته بنا ستظل السؤال الخالد على لسان كل إنسان في هذه الحياة ومن هنا كان تفسير هذه العلاقة بين الله ــ سبحانه ــ والعالم موضع نقاش ونزاع طويلين ، بين مفكري الإسلام جميعا ، سواء كانوا متكلمين أو فلاسفة أو متصوفة ، من جهة ، وبين مفكري الإسلام وغيرهم من مفكري الغرب سواء كانوا فلاسفة أو علماء ، من جهة أخرى .

والحق أن محاولة تفسير عملية الخلق لابد أن تقوم أساسا على وضع الفروض الثلاثة ــ الآتية أمام من يحاول تفسير هذه العملية :

**الفرض الأول** : أن نقول إن العالم قد حدث وأبدعه الخالق ــ جلت قدرته ــ بما فيه من سماوات وأرض وعناصر ونبات وحيوان وإنسان دفعة واحدة بلا زمان وأخرجه الباري ــ تعالي ــ من العدم إلى الوجود على ما هو عليه الآن .

**الفرض الثاني** : هو أن نقول إن هذه الكائنات قد أخرج بعضها من العدم إلى الوجود دفعة واحدة ، وأخرج بعضها على التدرج .

**الفرض الثالث** : هو أن نقول إن الكائنات أبدعت وأخرجت من العدم إلى الوجود على تدريج ونظام وترتيب أولا فأولا ، على ممر الدهور والأزمان .

وفي مجال تحقيق هذه الفروض تنوعت التفسيرات وتعددت واختلفت أيضا ــ وتباينت .

فأهل السنة يفرقون تفرقة واضحة بين الخالق والمخلوق ؛ فالخالق أزلي ،

والمخلوق محدث بعد العدم وكائن بعد أن لم يكن[١] . ويتم الخلق بكلمة «كن» ، وبهذا الأمر التكويني يكون كل شيء من الله ، على إختلاف أحوال الكائنات بأوقاتها وأمكنتها ، وفقا لعلمه وإرادته[٢] .

فالتكوين أو الخلق عند المتكلمين من أهل السنة إبداع واختراع أو هو خلق مباشر من العدم . وقد بنوا نظريتهم هذه على القول بالجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ . ولقد قال بالجوهر الفرد هذا غالبية المعتزلة ، وجميع الأشاعرة و «الشهر ستاني» ، ونفاه فلاسفة الإسلام و«النظام» و«ابن حزم» . والذين قالوا بإثباته انتهى أكثرهم إلى إثبات حدوث العالم لكن البعض ، مثل القائلين بالكمون والتولد من المعتزلة ، انتهى إلى عكس ذلك ، أي إلى القول بالقدم . والذين نفوا الجوهر الفرد انتهى أكثرهم إلى القول بالحدوث ، الأمر الذي يدل على أنه لا علاقة لمسألة الجوهر الفرد بقدم العالم أو حدوثه[٣] .

والمتكلمون ـــ باستثناء العلاف ـــ مجمعون على إثبات الخلق المستمر أو المتجدد ؛ الأشاعرة أثبتته بناء على القول بالجوهر الفرد ، والنظام وابن حزم أثبتاه دون الاعتماد على هذا الجوهر الفرد[٤] .

فالعلاقة بين الله سبحانه ـــ والعالم في التفسيرين السابقين هي علاقة تباين وانفصال ، فالله خالق للعالم من العدم خلقا مباشرا دون وساطة وهو يخلقه في كل لحظة خلقا مستمرا متجددا . ومن الملاحظ ان المنطلق الذي انبثق عنه

---

(١) الماتريدي ( أبو منصور ) : كتاب التوحيد ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) لمعرفة مزيد من تفصيلات الجوهر الفرد يرجع إلى : ابن حزم : الفصل في الملل والنحل جـ٥ ص١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ وابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ١٣٨ والخياط : كتاب الانتصار ص ٤٥ .

(٤) ابن حزم : الفصل جـ ٥ ص ١٢٧ ـــ ١٢٨ .

هذان التفسيران هو القدرة الإلهية اللامتناهية . ومن هنا كانت قسمة الموجودات في هذين التفسيرين السابقين قسمين فقط : محدثا وقديما ، والمحدث هو العالم ، والقديم هو الله ـــ سبحانه ـــ ولا وساطة بينهما .

أما النظرية الثالثة أو التفسير الثالث لعملية الخلق ، فهي نظرية حاولت التوفيق بين الله الواحد والعالم المتكثر ، فوجدت أن الاتصال المباشر المفاجيء ، بين الخالق والمخلوق على النحو الذي يصوره القائلون بالحدوث لابد أن يوجب في الذات الإلهية تعددا وتغيرا ، ومن ثم تصورت أن الخلق لابد أن يكون قد تم على مراتب أو دفعات .

من هنا اتخذت هذه النظرية شكلين : أحدهما يقول بتقسيم الموجودات إلى ثلاثة أقسام : قديم ، ومعدوم ، ومحدث ، والمعدوم هو الواسطة بين القديم والمحدث . وهذه النظرية هي التي قال بها المعتزلة . والشكل الثاني هو القائل بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، هو العقل ، ثم تبدأ الكثرة بعد صدور هذا العقل ، وهذه النظرية هي المعروفة بنظرية الفيض أو الصدور التي قال بها كل من الفارابي وابن سينا وابن باجة وإخوان الصفا من الفلاسفة .

ونظرية الفيض تعتمد في جوهرها على التفرقة بين الواجب والممكن ، وهي تقسم العقول إلى عشرة عقول ، والعقل العاشر هو المدبر لما تحت فلك القمر ، وهو سبب وجود الأنفس الأرضية من وجه ، وسبب وجود الأركان الأربعة بوساطة الأفلاك من وجه آخر . ويحصل من الأركان الأمزجة المختلفة على النسب التي بينها المستعدة لقبول النفس النباتية والحيوانية والناطقة[1] .

ويلاحظ أن هذه النظرية تتخذ صفة الجود الإلهي منطلقا لها .

والنظرية الرابعة التي تفسر العلاقة بين الله والعالم أو عملية الخلق هي النظرية

---

(١) لمعرفة المزيد من التفصيلات حول نظرية الفيض يرجع إلى :
الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، والثمرة المرضية . وابن سينا الإشارات والتنبيهات ، وكتاب الهداية ، والدكتور محمود قاسم : نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني .

التي تقول بالكمون ، والقول بالكمون هو قول « النظام » من المعتزلة ـــ وهذه النظرية تعني أن الله قد خلق العالم بكل ما فيه ، ومن فيه دفعة واحدة ، غير أنه أكمن الأشياء بعضها في بعض ، بحيث أصبح تقدم بعضها على بعض أو تأخر بعضها عن بعض يتعلق فقط بظهورها من أماكنها أو مكامنها ، دون أن يكون ذلك متعلقا بخلق جديد[1] .

أما النظرية الخامسة من النظريات التي تفسر لنا عملية الخلق والعلاقة بين الله والعالم ، فهي نظرية توجد عند بعض المتصوفة ، الذين يعتقدون أن الكون ليس إلا مظهرا من مظاهر تجليات الذات الإلهية ، والتجلي عندهم يقوم على إلغاء المتوسطات بين الله والمخلوقات ، وعلى القول بأن هذه المخلوقات نفسها ليست إلا تجليات الذات الإلهية .

تلك هي مذاهب الإسلاميين ونظرياتهم في تفسير عملية الخلق وعلاقة الله بالعالم ، فالأول منها مذهب أصحاب الجزء الذي لا يتجزأ والثاني مذهب الخلق المستمر والمتجدد ، والثالث مذهب الفلاسفة والمعتزلة أو مذهب القول بالوسائط والصدور ، وهو في الواقع مذهب أرسطو في الثوب الأفلاطوني الجديد ، والرابع مذهب النظام القائل بالكمون ، والخامس مذهب بعض المتصوفة القائلين بأن العالم ليس إلا مظهرا للتجليات الإلهية .

ويعد بعض الباحثين ثلاثة مذاهب فقط للإسلاميين في تفسير عملية خلق العالم ، على أنه يعد منها « المذهب القرآني » وأساس هذا المذهب عند هذا الباحث ـــ أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ، وهو يعني بهما ويحفظ وجودهما ، والقرآن يعول على تنبيه الإنسان على قدرة الله وحكمته وإرادته

(١) لمعرفة المزيد من التفصيلات حول نظرية الكمون يرجع إلى : الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ص ٨٥ ، والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٢ ، والخياط كتاب الأنتصار ص ٥١ ، ٥٢ والدكتور ابو ريدة : ابراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية ص ١٤٠ ــ ١٥٧ ، والدكتور يحيى هويدي : محاضرات في الفلسفة الإسلامية ص ١٧٧ ـــ ١٧٨ والأستاذ يوسف كرم : الطبيعة وما بعد الطبيعة ص ٤٩ .

ليشعر بضعفه وافتقاره إلى خالقه[1] .

غير أني لا أوافق هذا الباحث على وضعه المذهب القرآني ضمن مذاهب الإسلاميين في تفسير عملية الخلق ، فلا يجوز بحال ما أن يوضع المصدر اليقيني والحقيقي بجانب التفسيرات الظنية التي لا تعدو كونها نظريات، مجرد نظريات ، لتفسير هذه المسألة الدقيقة . وبعبارة أخرى ، كيف نسوي بين من شهد عملية الخلق وبين من لم يشهدها ، بل كيف نسوي بين الفاعل والمفعول فالمذهب القرآني حقيقة علمية ، بينما لا تعدو أية نظرية أخرى كونها مجرد نظرية . ولا تستوي الحقيقة القرآنية العلمية والنظرية الإنسانية مهما يكن مصدر هذه النظرية .

وبعد هذا العرض السريع لتفسيرات مفكري الإسلام لعملية الخلق وكيف تمت ، نستطيع القول — من جهة أخرى — بأن هناك فكرتين أساسيتين تفسران خلق الكائنات الحية ، نشأت إحداهما فيما « بين النهرين » ، ونشأت الأخرى في «مصر» ثم ترعرعت ونضجت في الفكر الإغريقي حيث نقلها من مصر إلى اليونان « فيثاغورس » وكان لها أثرها في فكرة التطور التي قال بها «أرسطو» المعلم الأول ، كما يسمونه .

**أما الفكرة الأولى** : فكانت درامية فجائية ، وأما الثانية فكانت متدرجة متصلة[2] . ويمكن القول بأن الفكرة الأولى هي فكرة « تعاقب الخلق » فالآثار الحيوانية المتحجرة التي عثر عليها في طبقات الأرض قد أكدت أن الإنسان ( حادث ) بعد أن لم يكن ، وأكدت وجود حيوانات ونباتات منقرضة، وقد علل

---

(١) Macdonald: Continuous Recreation and Atomic time in Muslim Scholastic Theology, Isis, 1927 P. 326-344.

(٢) كانون ( د. جراهام ) : نظرات في تطور الكائنات الحية — الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٩ ص ١٢ — ١٣ .

العلماء هذا الانقراض بالنكبات التي أصابت الأرض من الزلازل والطوفان . وقالوا إنه على أثر انقراض الأحياء في كل نكبة كانت تخلق حياة جديدة ، ثم تصيب الدور الجديد نكبة أخرى يعقبها خلق جديد ، وهكذا . ومذهب « تعاقب الخلق » هذا قد أيده كثير من العلماء ، منهم العالم الفرنسي « كوفيه » والعالم السويسري « أجاسيز » .

**والفكرة الثانية** : وهي فكرة « التطور Evolution » فبعض علماء « الجيولوجيا » لم يقتنعوا بأن انقراض الدور كان يتم بتأثير النكبات ، لأنها لم تكن عامة شاملة ، بل كانت في بعض جوانب الأرض ، ففسروا هذا الاختلاف الموجود بين آثار الأحياء المتحجرة بنظرية النشوء البطيء المتدرج ، وقالوا إن هذا النشوء يحدث على كر الدهور أنواعا جديدة[١] .

وهكذا انقسم العلماء إلى فئتين في تفسير خلق الكائنات الحية : فئة تقول بأن الخالق ــ سبحانه ــ خلق في الماضي ويخلق بعد كل انقراض أحياء جديدة وأنواعا مستقلة ، وفئة تقول إن ظهور الأحياء تم بفعل الطبيعة تدريجيا على طريق النشوء البطيء المتدرج وتحول الأنواع وظهور أنواع جديدة . وهذه الفكرة الثانية تنسب ــ عادة ــ إلى « تشارلز دارون » بعد نشره لكتابيه « أصل الأنواع » و« أصل الإنسان » ولقد قال « توماس هكسلي » في حفل تكريم أقيم لداروين في نوفمبر سنة ١٨٧٧ : « منذ تلخيص أرسطو للعلوم البيولوجية إلى وقتنا هذا ، لم يأت بشر بعمل أعظم من كتاب أصل الأنواع لداروين في شرح ظواهر الحياة ، وربطها حول فكرة أساسية[٢] » .

ومن الواضح أن التنازع الحقيقي إنما يتركز بين القائلين بالخلق الخاص

---

(١) الجسر ( الشيخ نديم ) : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ــ الطبعة الثالثة ــ دار العربية ــ بيروت سنة ١٩٦٩ ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٢) عبد العليم (د. أنور) : قصة التطور ــ دار القلم ــ القاهرة ص ٧٠ ــ ٧١ .

المستقل والقائلين بالتطور . وهو تنازع مستمر ، وإن اختلفت صوره وأشكاله من آن لأخر . ولب المشكلة في هذا التنازع أن كل من يحاول تفسير مسألة خلق الكائنات لا يبحثها في ضوء وحي خالق هذه الكائنات ، ولا في ضوء أقواله .

ولما كان موضوع هذه الرسالة هو «نظرية التطور عند مفكري الإسلام — دراسة مقارنة» فلابد من بحث هذه المشكلة — مشكلة الخلق — أولا في ضوء الكتاب والسنة ، حتى يكون لدينا المقياس والمعيار الذي نحكم به بعد ذلك على نظرية التطور عند مفكري الإسلام ، وعند مفكري الغرب ، حكما صحيحا لا خلل فيه ، لأنه سيكون عندئذ بميزان الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فما هي حقيقة الخلق وكيف تم وكيف يفسر في الكتاب الكريم والسنة المطهرة ؟ وإجابة هذا السؤال هي موضوع الباب الثاني من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

## د — مفاهيم أخرى :

هناك مصطلحات أخرى تتعلق بمسألة الخلق ، أرى تتميما للفائدة أن أعرض لها في نهاية هذا الباب .

١ — من هذه المصطلحات «الإبداع» ولم يرد من اشتقاقاته في القرآن الكريم سوى ثلاثة هي : « ابتدع » و « بدع » و « بديع » . وقد وردت صيغة « بديع » مرتين فقط . ومن الجدير بالذكر القول بأن لفظ « بديع » قد جاء متعلقا بخلق السموات والأرض ، وذلك في قوله تعالى : « بديع السموات والأرض »[١] .

(١) سورة البقرة ١١٧ ، سورة الأنعام ١٠١ .

ومصطلح «البدع» أو «الإبداع» أو «الابتداع» هو اسم مأخوذ من الفعل «بدع» أو «ابتدع» أو «أبدع» بمعنى أنشأ وبدأ واستنبط ، وأحدث ، واخترع . و« البديع » و« البدع » الشيء الذي يكوّن أولا ، و« البديع » المحدث العجيب ، و« المبدع » ، أيضا . فهي ــ أي « البديع » ــ تأتي بمعنى المفعول ، وبمعنى الفاعل ، وهي اسم من أسماء الله ــ تعالى وصفة من صفاته .

فالإبداع هو الاختراع على غير مثال سابق ، والله سبحانه هو « البديع » لأنه أبدع الأشياء وأحدثها وبدأها وخلقها واخترعها لا عن مثال سابق[1] .

وكلمة «الإبداع» في اللغة الانجليزية هي «Creation» التي نستعملها أيضا للدلالة على معنى الخلق .

هذا هو معنى الإبداع في اللغة ، أما معناه في الاصطلاح الفلسفي فهو «إظهار الشيء عن ليس[2]» «وتأسيس الشيء لا عن شيء ولا بواسطة شيء » و« أن يكون للشيء وجود مطلق عن سبب بلا متوسط ، وله في ذاته أن لا يكون موجودا[3] »و«إيجاد الشيء لا عن شيء موجود من قبل »[4] و« أن يكون من الشيء وجود لغيره متعلق به فقط دون متوسط من مادة أو آلة أو زمان »[5] ، وهو بهذا المعنى الأخير أعلى رتبة من التكوين والإحداث .

ويعرف « الإبداع » ــ أيضا ــ بأنه « إيجاد شيء غير مسبوق بالعدم »[6] وهو بهذا يقابل « الصنع » ، إذ هو إيجاد شيء مسبوق بالعدم .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ــ مادة « بدع » جـ ١٠ ص ٣٥١ ــ ٣٥٣ وقارن : التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ــ طبعة كلكتا سنة ١٨٦٣ جـ١ ص ١٣٤ ، د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي جـ١ ص ٣١ .

(٢) الكندي : رسائل . نشرة د. أبو ريدة، القاهرة سنة ١٩٥٣ ص ١١٥ .

(٣) ابن سينا : رسالة الحدود . ضمن تسع رسائل . قسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ ص ٦٩ .

(٤) الراغب الأصفهاني : تفصيل النشأتين .. الجميدية المصرية ــ القاهرة سنة ١٣٢٣هـ ص ١٥ .

(٥) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ــ طبعة الحلبي ، القاهرة جـ ٣ ص ١١٥ ــ ١١٦ .

(٦) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون جـ ١ ص ١٣٤ .

و« الإبداع » — أيضا — « إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان[١] » وهو يقابل التكوين لكونه مسبوقا بمادة ، ويقابل الإحداث ، لكونه مسبوقا بزمان .

والإبداع بهذا المعنى يساوي « الاختراع » إذ الاختراع هو « الإخراج من العدم إلى الوجود[٢] » أو هو « إيجاد شيء من لا شيء[٣] » كما يعرف « الإبداع » — أيضا بأنه « اختراع الشيء لا عن شيء دفعة[٤] » ، وهو هنا يؤدي المقصود بفعل الخلق « كن » المذكور في قوله تعالى : « وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون[٥] » .

ويقول الفارابي عن « الإبداع » إنه « حفظ إدامة وجود الشيء الذي ليس له وجود بذاته ، إدامة لا تتصل بشيء من العلل غير ذات المبدع »[٦] وعلى هذا المعنى فالإبداع إيجاد وإبقاء ، وهذه هي نفسها فكرة « الإبداع الدائم » في الفلسفة الحديثة ، إذ هو الفعل الذي يبقى به الله — سبحانه العالم ، وهو عين الفعل الذي يخرجه به من العدم إلى الوجود .

فالله — إذن — مبدع ، ومبق ، لأنه إذا قبض جوده بطلت الموجودات كلها دفعة واحدة ، وهذا أيضا يقابل التأليف ، لأن التأليف باق ، وإن أمسك المؤلف تأليفه ، أما الإبداع فهو إيجاد وإبقاء؛ وعلى هذا نستطيع تفسير قوله تعالى : « بديع السموات والأرض » بأنه — تعالى — موجدها وحافظها وراعي بقائها. ومن الجدير بالذكر القول بأن كلمة «بديع» هنا قد جاءت مضافة إلى السموات والأرض ، الأمر الذي يدل على أن «الإبداع» هو

(١) الجرجاني : التعريفات . مادة « إبداع » قسطنطينية سنة ١٢٧٥هـ .
(٢) إخوان الصفا : رسائل — طبعة بمباي سنة ١٣٠٦هـ مجلد ٤ ص ٥١ .
(٣) اخوان الصفا : رسائل بيروت — دار صادر سنة ١٩٥٧ مجلد ٢ ص ١٢٧ .
(٤) البيضاوي : تفسير جـ ١ ص ٤٠ .
(٥) سورة البقرة ١١٧ .
(٦) الفارابي : عيون المسائل ص ٦ .

فعل الله البكر ، وكلمته الأولى ، وأنه إيجاد الأشياء من لا شيء ، فهو ليس بتركيب ولا تأليف ، وإنما هو إيجاد من العدم إلى الوجود والإبداع إنما يظهر حقيقة في خلق السموات والأرض .

لهذا فرقوا بين « الإبداع » و« الخلق » فالإبداع إيجاد شيء من لا شيء والخلق إيجاد شيء من شيء ، لذلك قال الله ــ سبحانه ــ « بديع السموات والأرض » ولم يقل بديع الإنسان ، بل قال : خلق الإنسان ، فالإبداع بهذا المعنى أعم من الخلق .

ويتبين لنا مما سبق عرضه من معاني مصطلح الإبداع أن علاقة الله ــ سبحانه ــ بالعالم هي علاقة إبداع ، بمعنى أن قدرة الله لها تأثيرها في إيجاد العالم من العدم إلى الوجود ، فالله ــ تعالى ــ ليس مؤلف نظام الأشياء ومرتب صورها فحسب ، وإنما هو مبدع مادتها أيضا ، ومعنى ذلك أن كل ما لم يكن موجودا ، فقد صار بفعل قدرته ــ تعالى ــ موجودا .

٢ ــ المصطلح الثاني هو « النشأة » ، وقد ورد هذا المصطلح باشتقاقاته المختلفة في ثمانية وعشرين موضعا في القرآن الكريم ، وأكثر هذه الاشتقاقات دورانا هما الصيغتان « أنشأنا » حيث وردت ست مرات ، و« أنشأناكم » حيث وردت خمس مرات ، وكذلك المصدر « النشأة » حيث ورد ثلاث مرات .

وقد جاءت كلمة « النشأة » في اللغة لتدل على معنى « التربية » و« الخلق » و« والإيجاد » أي ابتداء الله ــ سبحانه ــ للخلق ، ولتدل ايضا ــ على « البناء » و« الارتفاع » ، يقول الزجاج في قوله تعالى : « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات[1] » أي ابتدعها وابتدأ

---

(١) سورة الأنعام ١٤١ .

خلقها ، وكل من ابتدأ شيئا فهو أنشأه[1] . ويقول ابن سينا : « واجب الوجود هو مبدع المبدعات ومنشئ الكل » .

٣ ــ والمصطلح الثالث هو « التكوين » وقد ورد منه في القرآن الكريم الفعل « كن » في ثمانية مواضع للدلالة على الخلق في اللحظة الخاطفة .

والتكوين يأتي في اللغة بمعنى « الإحداث » ، والله مكون الأشياء ، أي يخرجها من العدم إلى الوجود[2] . ويأتي « التكوين » ــ أيضا ــ بمعنى « التصيير » و« التخليق » و« الاختراع » و« الصنع » و« التصوير » .

أما معنى « التكوين » في الاصطلاح الفلسفي فهو « أن يكون من الشيء وجود مادي[3] » ، وهو عند المتكلمين « إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود[4] »ويأتي في الفلسفة القديمة بمعنى الكون القابل للفساد ، فتكوين الشيء هو الفعل الذي أحدث به ذلك الشيء حتى وصل إلى حالته الحاضرة ، أو هو مجموع الصور المتعاقبة على الشيء .

ويشترط في التكوين عند الفلاسفة أن يكون مسبوقا بمادة خلافا للإبداع الذي يشترط فيه انتفاء المادة .

٤ ــ أما المصطلح الرابع فهو « الإحداث » ، والحدوث « كون شيء لم يكن وأحدثه الله فحدث ، وحدث أمر ، أي : وقع[5] » .

ومن الناحية الاصطلاحية ، الإحداث يقال على وجهين : أحدهما زماني والآخر ذاتي غير زماني .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ــ مادة « نشأ » جـ ١ ص ١٦٤ ــ ١٦٦ .
(٢) المرجع السابق مادة ( كون ) جـ ١٧ ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦ .
(٣) التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون مجلد ١ ص ١٣٤ .
(٤) المرجع السابق مجلد ٢ ص ١٢٧٦ .
(٥) ابن منظور : لسان العرب . مادة حدث جـ ٢ ص ٤٣٦ .

فالإحداث الزماني : إيجاد شيء بعد ما لم يكن له وجود في زمان سابق « فهو الذي لزمانه ابتداء[1] » و « وهو الذي لم يكن ثم كان[2] » .

أما الإحداث الذاتي غير الزماني فهو افادة الشيء وجودا وليس له في ذاته ذلك الوجود ، ولا بحسب زمان دون زمان ، بل في كل زمان كلا الأمرين « فهو الذي لذاته مبدأ هي به موجودة[3] » .

فالحدوث الزماني هو كون الشيء مسبوقا بالعدم سبقا زمانيا ؛ أما الحدوث الذاتي فهو كون الشيء مفتقرا في وجوده إلى الغير .

هذا ويتضح مما سبق عرضه من مفاهيم متصلة بقضية الخلق والتطور ، أن « الإبداع » أعم من « الخلق » وأنه يأتي بمعناه أيضا ، كما أن « الإبداع » يساوي « الاختراع » ويقابل « الصنع » كما أن الإبداع أعلى رتبة من « التكوين » و « الإحداث » وكل منهما يقابل « الإبداع » من وجه ، و« الإبداع » أقدم منهما ، إذ « التكوين » و« الإحداث » مترتبان على « الإبداع » ، وهو أقرب منهما إلى الله سبحانه وتعالي .

وبعد استعراض هذه المفاهيم وما يتصل بها من قضايا تخص الخلق والتطور ، فقد حان للبحث أن ينتقل إلى الباب الثاني ليستعرض قضية الخلق والتطور في الكتاب والسنة حتى يكونا المقياس الذي نزن به صدق أو عدم صدق آراء مفكري الإسلام ومفكري الغرب إن شاء الله تعالي .

---

(١) ابن سينا : النجاة ص ٢١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٢١٨ .

# الباب الثاني

## قضية الخلق في الكتاب والسنة

الفصل الأول : خلق العالم .

الفصل الثاني : الحياة والكائنات الحية .

الفصل الثالث : تفسير الخلق والتطور .

# « الفصـــل الأول »

# خـلـق العـالــم

## أ ـــ منهج ينبغي اتباعه :

عندما يتعرض البحث لعملية تفسير الخلق في ضوء الكتاب والسنة فلابد بطبيعة الحال ـــ أن يتعرض لكثير من الآيات الكونية التي تحتاج إلى تفسير علمي ، وهنا يجد الباحث ـــ أي باحث ـــ نفسه أمام منعطف خطير ، ومنزلق لا تؤمن عواقبه ، الأمر الذي يدعو إلى الحيطة والحذر في التناول .

وكم من أناس قد انزلقوا بحسن نية ، وطوحوا عن سوء فهم للمعاني الحقيقية التي أرادها الله ـــ سبحانه ـــ من آياته الكونية ، ذلك، لأنهم لم يحددوا لأنفسهم منهجا موضوعيا في تناولهم لهذه الآيات الكونية ، وفهمها الفهم الصحيح .

لهذا يجب على الباحث أن ينبه على المنهج الذي ينبغي اتباعه في تفسير الآيات الكونية تفسيرا علميا . وهذا المنهج الذي يرتضيه الباحث يرتكز ـــ في أساسه على ثلاث قواعد في غاية الأهمية هي :

**أولا** : أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه .

إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة قد أدى إلى كثير من الخطأ في التفسير . وسنرى أن من أعجب عجائب القرآن أن المطابقة بين آياته وآيات الفطرة تكون أتم وأيسر كلما أخذنا بتلك القاعدة في فهم كونيات

القرآن الكريم .

**ثانيا** : أنه ينبغي ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص .

إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية البسيطة ــ أيضا ــ قد أوقع الكثيرين في أخطاء شنيعة عندما أخضعوا القرآن الكريم وآياته الكونية لفروض ظنية لم يتحقق لها اليقين الثابت من العلم ، وسنرى أمثلة لهذا عند تقييمنا ونقدنا لنظريات التطور الدارونية ، كتلك الأخطاء التي وقع فيها كل من المفسرين المحدثين الشيخ طنطاوي جوهري والأستاذ عبد الكريم الخطيب ، اللذين أنطقا الآيات الكونية بنظرية داروين التطورية .

ولا شك أن الحقائق هي سبيل التفسير الحق ، هي كلمات الله الكونية ، ينبغي أن يفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية ، أما الحدسيات والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل ، إن لم تكن عرضه للإبطال في أي وقت ، فسبيلها أن تعرض على القرآن بالقاعدة السابقة ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه ، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون مقدار حظها من الصواب[١] .

**ثالثا** : أنه ينبغي تفسير الآيات الكونية في ضوء الفهم الصحيح لجميع الآيات القرآنية ، دون الاقتصار على بعض الآيات التي تتمشى مع هذا الاتجاه أو ذاك .

إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية الأصلية البسيطة جعلت بعض مفكري الإسلام يقدمون لنا ، عند تناولهم لمسألة خلق العالم آراء كثيرة جاء معظمها غريبا عن الروح العامة القرآنية ، الأمر الذي جعلهم يتورطون في مشكلات

---

**( ١ ) الغمراوي ( محمد أحمد ) : الإسلام في عصر العلم ص ٢٢٣ .**

كثيرة وقعوا فيها تحت تأثير « أفلاطون » أو « أرسطو » أو « أفلوطين » أو غيرهم وجاءت بعيدة كل البعد عن الرأي العام للقرآن في هذه المشكلة أو تلك .

فمسألة « الجوهر الفرد » ، ومسألة وجود زمان قبل الخلق ، ثم البحث فيما إذا كان الله ــ سبحانه ــ قد خلق العالم من مادة سابقة أم لا ، أو فيما إذا كان قد خلقه على صورة مثال قديم أو مثل قديمة في عقله ، ونظرية الفيض أو الصدور ، والقول بتجلي الذات الإلهية في العالم تجليا نجعل فيه الله والعالم ، أو الله والإنسان شيئا أو وجهين لحقيقة واحدة ، كل هذه أقوال غريبة عن روح الإسلام(١) .

هذا هو المنهج الذي ينبغي اتباعه عند تناول مسألة الخلق في القرآن الكريم أو السنة الشريفة . والباحث الذي لا يأخذ مثل هذا المنهج في الاعتبار لابد أن تزل قدمه ، وأن يتهم في رأيه ، وسنرى أمثلة لهؤلاء الذين لم يراعوا هذا المنهج القويم في تفسيرهم للآيات المتعلقة بموضوع الخلق ، وبخاصة فيما يتعلق بخلق الإنسان ، وذلك في الباب الذي نخصصه لنقد وتقييم نظريات التطور إن شاء الله(٢) .

## ب ــ حقائق يقررها القرآن في مسألة الخلق :

هناك حقائق تتعلق بموضوع الخلق قد قررها القرآن الكريم في كثير من آياته ، هذه الحقائق هي :

١) أن الله ــ سبحانه ــ قد خلق كل شيء ، فهو الخالق والخلاق والبديع ، والبارىء والمصور لكل العالم وما فيه ومن فيه .

٢) أن خلق العالم كله قد تم في ستة أيام ، وهذا هو الخلق الأول أو النشأة

(١) هويدي (د. يحي) : محاضرات في الفلسفة الإسلامية ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ص ١٨٦ .
(٢) الباب الخامس .

الأولى .

٣) أن هناك تجديدا واستمرارا لهذا الخلق الأول .

٤) أن هناك خلقا ثانيا أو نشأة ثانية ( أخرى ) وأن الله تعالى قادر على إعادة الخلق من جديد .

فهناك نشأتان أو خلقان : خلق تم في الماضي وخرج به العالم من العدم إلى الوجود ، وخلق آخر سيتم في الآخرة يوم البعث والنشور . وهناك خلق ثالث هو تجدد الخلق الأول واستمراره ، ذلك أن فعل الخلق أو تأثير الله في الكون لم ينته بصورة قاطعة في ستة أيام ، كما أن هناك بعثا يوميا لأنفس الخلق .

٥) أن فعل الله أو تأثيره في العالم ليس وقفا على الخلق في هذه الأشكال السابقة بل يتناول أيضا عناية الله بالكون وحفظه لكل ما في العالم ومن فيه[١] .

٦) أن الخلق يتم بأيسر قول محتمل ، بفعل الأمر « كن » وفي اللحظة الخاطفة[٢] فالله قد خلق العالم كله «ضربة واحدة من غير زمان ومن غير مادة ما[٣]» كما يقول «الكندي» فيسلوف العرب . بل إنّ أمره — سبحانه — بين الكاف والنون . وكل أمر صدر عن الله أو يصدر عنه في هذا العالم ، وكل أمر سيصدر عنه أيضا في العالم الآخر مرهون باللحظة الخاطفة « إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر »[٤] .

---

( ١ ) سورة الأنعام ١٠٢ ، وسورة يس ٧١ ، وسورة الأنعام ١٠١ ، وسورة آل عمران ٦ وسورة النحل ٤٣ — ٤٥ ، وسورة فصلت ٩ — ١٢ ، وسورة الحديد ٤ ، وسورة النجم ٤٧ ، وسورة الأنبياء ١٠٤ ، وسورة الطارق ١٨ ، وسورة الأنعام ٣٦ ، ٦٠ ، ٩٥ ، ٩٦ وسورة البروج ١٣ والعنكبوت ٩ ، وسورة يوسف ٦٤ ، والأعراف ٥٧ ، وسورة النبأ ٦ — ١٦ ، وسورة الجاثية ١٦ .

( ٢ ) سورة الأنبياء ٣٧ ، ٨١ ، ١٠٤ ، وسورة البقرة ٢٦٠ ، ٢٠٢ ، وسورة الرعد ٤١ .

( ٣ ) الكندي : رسائل .. تحقيق د. محمد عبد الهادي أبو ريدة — دار الفكر العربي سنة ١٩٥٠ .

( ٤ ) سورة القمر ٤٩ ، ٥٠ .

## جـ ــ العالـم :

نستطيع القول ــ بكل تأكيد ــ بأن القرآن الكريم لم يستخدم لفظ « العالم » بصيغة المفرد قط ، بل استخدم هذا اللفظ بصيغة جمع المذكر « العالمين » ، حيث وردت هذه الصيغة نحوا من ثلاث وسبعين مرة ، وفي معظم الأحيان تأتي مضافة إلى لفظ الجلالة « رب » بينما يستخدم المفكرون والعلماء لفظ « العالم » بصيغة المفرد فحسب .

وكلمة « العالمين » لا شك أنها فاجأت العرب من ناحيتين على الأقل : ناحية الجمع ، وناحية تذكير الجمع ، فالعرب لم يكونوا يعرفون إلا عالما واحدا هو الذي كانوا يعيشون فيه . والناس إلى اليوم لا يتحدثون إلا عن عالم واحد هو الذي نحسه ونعيش فيه . فقصر الحمد في قوله تعالي : « الحمد لله رب العالمين[1] » على رب العوالم شيء فاجأ الناس إذ ذاك ، ولـم يألفه كل الناس إلى اليوم .

فالتمس المفكرون والمفسرون تلك العوالم المتعددة فقالوا : هي عوالم الإنس والجن والملائكة ، وقالوا : هي عوالم الحيوان والنبات والجماد ، ولكن ليس كل ذلك بموف معنى اللفظ ، لفظ « العالمين » أنه جمع معرف لا جمع منكر ، ونحن إذا قلنا : « العالم » لم نفهم إلا عالما واحدا هو هذا الشامل لكل ما نرى من أرض وسماء . وإذا أخذنا بحرفية اللفظ في الفهم ، طبقا للمنهج الذي ارتضيناه في فهم الآيات الكونية[2] ، كان عالمنا هذا فردا من أفراد ، وعالما من عوالم مثله ، وهذا معنى لم يسبق إليه غير القرآن الكريم .

ثم جاء علم الفلك الحديث بمراقبة ومراصده وتحليلاته الرياضية وغير الرياضية

---

(١) سورة الفاتحة ٢ .

(٢) طبقا للقاعدة الأولى المذكورة في ص ٤٩ من بحثنا هذا .

فبين أن المجموعة الشمسية التي نحن فيها ومنها ليست في هذا العالم المجري شيئا مذكورا ، وبين أن هناك عوالم مجرية أخرى مترامية المطارح تعد بالملايين[1] .

غير أن العلم الحديث لم يهتد إلى الآن في العوالم المجرية الأخرى إلى أرض كأرضنا ، وإن اهتدى إلى أن في كل عالم مجري آلافا مؤلفة وملايين من الشموس .

ويقتنع أكثر المفكرين من التطابق القرآني العلمي في هذا اللفظ الكريم بهذا القدر ، لكن حرفية المعنى القرآني لا تقنع بهذا ، وتؤدي إلى أكثر كثيرا مما نعرف الآن . فحرفية اللفظ القرآني وحقيقة الجمع القرآني تقتضيان أن تكون هناك عوالم أخرى يتحقق فيها ما هو متحقق لنا في هذا العالم الذي جمعه الله — سبحانه — في أول آية — بعدالبسملة — من كتابه جمع تذكير ، ليكون في ذلك إشارة وتنبيه للناس إلى ما في الكلمة الكريمة من أسرار ليطلبوها ، فلا يصرفوا أنفسهم عنها بتعليلهم صيغة الجمع بمراعاة الفاصلة ، أو التغليب أو ما أشبه ذلك .

وإذا لم يكن لدى العلم الحديث إلا ترجيح ما يفهم من اللفظ الكريم ، فهل في كتاب الله ما يؤيد هذا الفهم وهذا الترجيح ؟ .
هل في القرآن ما يفصل هذا السر المجمل في لفظ « العالمين » ؟

إن أوثق ما يفسر به القرآن هو القرآن نفسه . نعم ، إن الله — سبحانه يخبرنا في كتابه الكريم أن هناك أرضين أخرى مثل أرضنا ، وفرق ما بين الأرض والكواكب الأخرى أن على الأرض حياة ، وإلا فالأرض كوكب سيار كغيره من السيارات وأول ما يطالعنا آيات في سورة فصلت تقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين .

---

(١) جينز ( سير جيمس ) : النجوم في مسالكها في مواضع متفرقة .

ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحي في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم (١) » .

وأول ما يلاحظ أن الآية الأولى من هذه الآيات نص في صحة ما يستنبط من أن العالم في آية الفاتحة ليس هو مجرد عالم الإنس والجن أو عالم الحيوان والنبات والجماد ، ولكن هو العالم الفلكي الذي يتبادر إلى الذهن من اللفظ . ووجه كونه نصا في ذلك أن الآية والتي تليها تتناولان خلق الأرض على شطرين .

ولما كان الشطر الثاني في الآية الثانية متعلقا بتطورات خلق الأرض ، تلك التطورات الضرورية للحياة فيها ، فإن شطر خلقها في الآية الأولى متعلق بتكوين أرضنا أول ما تكونت عند ميلادها ، بالمعنى الفلكي الذي هو موضوع الآية .

ومن لطيف ما ينبغي الإشارة إليه كمثل للإشارات القرآنية العلمية أن يومي الخلق المذكورين في الآية الأولى داخلان — طبعا — في الأربعة الأيام المذكورة في الآية الثانية ، إشارة إلى أن طوري الخلق متداخلان ، كما هما في الواقع .

فإذا انتقلنا إلى الآية الثالثة ، وجدنا أنها تنبئنا أن السماء عندما تم خلق الأرض كانت دخانا ، وأن السموات السبع لم يكن قد تم خلقهن بعد ، بل كن كلهن سماء واحدة ، بدليل قوله تعالي في الآية الرابعة « فقضاهن سبع سموات في يومين » وإذن فقد كان هناك قبل خلق السموات السبع أرض واحدة تم خلقها ، وسماء واحدة كانت دخانا ، وهذا عجيب من أسرار خلق السموات والأرض لا يعرف العلم منها إلا أن السماء كانت يوما دخانا ، ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله — سبحانه — دخانا يشاهدها الفلكيون بمراقبهم

(١) سورة فصلت ٩ — ١٢ .

القوية اليوم في السماء .

ومن لطيف ما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام أن العلم الحديث لم يصل إلى أبعد مما أشار إليه القرآن في « دخانية » السماء . فهو يحدد بداية الكون بوجود « غاز الايدروجين » في الفضاء ، والذي خلقت منه المادة التي تكونت منها الأجسام المختلفة ، غير أنه — أي العلم — يعجز — تماما — عن معرفة أي شيء عن الظروف التي كانت سائدة في الماضي ، ولا عن الحقبة التي سبقت وجود « غاز الأيدروجين » في الفضاء ، أو الأسباب التي أدت إلى وجوده ، فالعلم قانع — فقط — بالوصول إلى الوقت الذي وجد فيه غاز الأيدروجين ، ويبدأ منه[1] .

وواضح أن تخلق السماء سموات سبعا ، المشار إليها في الآية الرابعة كان طاعة من السماء لنصيبها من الأمر « ائتيا » إذن ، فما هو نصيب الأرض ، وقد قالتا : « أتينا طائعين » ؟ هل الأرض في قوله تعالي : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها » هي نفس الأرض التي نحن عليها ؟ .

وان الجواب المتبادر هو نعم ، لكن القرائن تمنع من هذا المتبادر . وأول هذه القرائن وأهمها أن أرضنا كان قد سبق تشكيلها ، وتم خلقها وخلق جبالها ، وخلق الحياة على ظهرها قبل أن يصدر الأمر ، بدليل « ثم » الترتيبية في أول الآية الثالثة ، بعد تمام خبر خلق الأرض في الآيتين الأوليين . والأمر واحد « ائتيا » فإذا كان ( أمر خلق ) فيما يتعلق بالأرض المخاطبة : فهل يمكن أن تكون الأرض المخاطبة بهذا هي الأرض التي تم خلقها ؟ أليست هذه قرينة قوية جدا على أن الأرض في الآية الثالثة غير الأرض في الآية الأولى ، أي غير أرضنا هذه ؟ بلى ، وتكون « أل » للعهد في الآية الأولى ، وللجنس في الآية الثالثة فهل هناك قرائن أخرى على هذا الاستنتاج تؤيده وتزكيه ؟

( ١ ) هدارة ( د. سيد رمضان ) : الكون — ذرة وحركة — دار القلم بالقاهرة سنة ١٩٦٤ ص ٢٠١ .

إذا تذكرنا أن المقابلة تامة في اللغة بين كلمتي أرض وسماء ، وكذلك هي تامة في الآيات الثلاث الأولى ، حين لم يكن إلا أرض واحدة وسماء واحدة ، كان في ذلك إشارة مغنية إلى أن السبع السموات المذكورات في الآية الرابعة يقتضي وجودهن وجود سبع أرضين يقمن بإزائهن : أرض تقابل كل سماء . ولما كانت إحداهن موجودة تامة الخلق بالفعل حين صدر الأمر ، كان المخاطب المعني بالأمر في «ائتيا» هو الأرضين الست الأخرى المقابلة للسموات الست الجديدة،خلقهن ـــ سبحانه ـــ كلهن من السماء الدخانية الأولى . وتكون « أل » في لفظ الأرض في الآية الثالثة هي للجنس كما استنتجنا .

ويزداد هذا المعنى تأييدا ووضوحا في قوله تعالي : « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما[1] » .

إن « أل » في الأرض هنا هي للجنس لا للعهد ، بدليل قوله : «مثلهن» والسموات السبع متعددة ، ليس في ذلك شك ، فلابد أن تكون الأرضون السبع متعددة أيضا على نفس النحو والنمط ، لتحقيق المثلية المنصوص عليها في الآية ، لا أنهن سبع طبقات في أرضنا هذه كما فهم الناس ويفهمون ، فأرضنا واحدة ، وليس يفهم الناس ولا العلم من لفظ الأرض إذا أطلق إلا أرضنا هذه جملة بحذافيرها وطبقاتها كلها . فتفسير الأرضين السبع بطبقات سبع في هذه الأرض تفسير لا يتفق مع اللغة ، ولا مع العلم ، ولا مع القرآن ، ولا مع الحديث الكريم « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن » .

هذه النتيجة التي تتفق مع حرفية القرآن وحمله على الحقيقة اللغوية لا على

---

(١) سورة الطلاق ١٢ .

المجاز تحل لنا وللإنسانية مشكلة السموات السبع حلا حاسما ، فقد عجز الناس إلى الآن عن الوصول إلى فهم للسموات السبع ليس عليه اعتراض . قالوا إنها السيارات السبع ، فظهر من السيارات عشرة ليس من بينها القمر ، كما يقول اليونان . وقالوا إنها سبعة عوالم في السماء فكانوا كأنهم لم يقولوا شيئا ، إذ ليس هناك ما يحدد معنى عوالمهم هذه والعوالم والأكوان أكثر من سبعة بكثير . لكن لنأت الآن إلى المعنى القرآني المتبين آنفا ، ونتذكر الارتباط والمقابلة بين أرض وسماء لفظا ومعنى ، ونطبق ما نفهم من السماء بالنسبة لهذه الأرض على كل أرض من الأرضين الست الأخرى ، فنجد أنه يتحدد معنى السماء وعددها بتحديد معنى الأرض وعددها . أو إذا جئنا المسألة من الطرف الآخر ، فإنه يتحدد معنى الأرض وعددها بتحدد معنى السماء وعددها « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن» سبع سموات وسبع أرضين ، كل أرض تحدد سماءها .

هذا وقد اضطرب المفسرون قديما وحديثا في فهمهم لهذه المسألة التي ناقشناها الآن ، فهم مرة يقولون إن خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، وأخرى يقولون إن خلق السماء كان قبل خلق الأرض . ومرة ثالثة يقولون إنهما كانتا مخلوقتين معا ، ورابعة يقولون إن عوالم السماء مخلوقة قبل الأرض . ويخطيء المحدثون من المفسرين خطأ فادحا عندما يقولون إن الكواكب الأخرى هي السموات ويستنتجون من ذلك أن عوالم السماء مخلوقة قبل الأرض دون أن يحددوا ما المقصود بالأرض بالضبط .

أما المفسرون القدماء ، فابن كثير — مثلا — يقول — إن خلق الأرض كان أولا قبل خلق السماء ، وأن دحو الأرض كان بعد خلق السماء ، في الوقت الذي يسلم فيه في موضع آخر — أن السموات والأرض كانتا جميعا متصلا ثم فصل بينهما بالهواء؛ يقول ابن كثير : « وقال مجاهد في قوله تعالي : ( هو الذي

خلق لكم ما في الأرض جميعا ) قال : خلق الله الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول : ( ثم استوى إلى السماء ) وهي دخان ( فسواهن سبع سموات ) قال : بعضها فوق بعض ، وسبع أرضين بعضها تحت بعض ، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء ، كما قال في آية السجدة :[1] ( قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ... ) فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء ، وهذا مالا أعلم فيه نزاعا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى : ( أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها .. والأرض بعد ذلك دحاها ) قالوا : فذكر خلق السماء قبل الأرض ، وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء ، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء ، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا[2] » .

وأما المفسرون المحدثون ، فالأستاذ عبد الكريم الخطيب ، مع أننا لم نستطع أن نفهم منه ، هل السماء هي المخلوقة أولا أم الأرض ، إلا أنه يقول إن عوالم السماء مخلوقة قبل الأرض ، وذلك حيث يقول : « وقد يفهم من قوله تعالى : ( ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ) بعد قوله سبحانه : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » . وقد يفهم من هذا أن خلق السموات جاء تاليا لخلق الأرض . ولكن مع قليل من النظر ، يتضح أن ذلك كان بعد خلق السموات والأرض . فالأرض كانت مخلوقة ، ثم خلق الله بعد ذلك ما فيها من مخلوقات ... وكذلك السماء كانت قائمة ، فجعلها الله ـــ سبحانه ـــ سبع سموات . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ( ثم استوى إلى السماء وهي دخان ) . وهذا لا يصادم ما يقول به العلم الحديث ، من

---

( ۱ ) الصحيح أنها ليست آية السجدة كما ذكر ابن كثير وإنما هي آية فصلت كما ذكرت من قبل .

( ۲ ) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ۱ ص ٦٧ ـــ ٦٨ .

أن الأرض وليدة انفجار في الشمس ، تسبب عنه انفصال أجرام منها ، وكانت الأرض واحدة من تلك الأجرام . فعوالم السماء مخلوقة قبل الأرض ، والأرض مولد من مواليدها »[1] .

بقيت نقطة واحدة في هذه المسألة التي نناقشها ، لعل من الخير استيفاءها أخبرنا الله ــ سبحانه ــ أن السموات السبع كن قبل سماء دخانية واحدة ، وهذه الأرض مخلوقة . فهل أخبرنا الله ــ سبحانه ــ في القرآن شيئا عن هذه الأرض ، أين كانت قبل أن تخلق ؟ نعم ، أخبرنا ، وهذا ما يخبرنا به أيضا العلم الحديث ففي سورة الأنبياء : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما[2] » ؟ وإذا تركنا المجاز ولزمنا الحقيقة اللغوية[3] ، طبقا للقاعدة التي ارتضيناها ، نتج ــ حتما ــ من هذه الآية أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا متصل الأجزاء . ويقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : « ألم يعلموا أن السموات والأرض كانتا رتقا ، أي كان الجميع متصلا ، بعضه ببعض متلاصق ، متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعا والأرض سبعا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء[4] وروي هذا التفسير عن أبي صالح الحنفي ، ومجاهد ، وسعيد ابن جبير وغيرهم حيث يقول : « كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه»، وقال الحسن وقتادة : « كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء »[5] .

وهذه الحقيقة القرآنية عجيبة كبرى يؤيد القرآن بها العلم الحديث في قوله

---

(١) الخطيب ( عبد الكريم ) : التفسير القرآني للقرآن مجلد ١ ص ٤٨ ــ ٤٩ .
(٢) الآية ٣٠ .
(٣) الفيروز آبادي : القاموس المحيط جـ ٣ ص ٢٤٣ و ٢٨٣ ، مادتا : « الرتق والفتق » حيث ورد فيه أن « الرتق » ضد « الفتق » « والفتق » « الشق » .
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٧٦ ــ ١٧٧ .
(٥) المرجع السابق .

بأن الكون كله كان شيئا منبثا واحدا قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم. فالقرآن الكريم لم يسم ذلك الكون الرتق سماء إذ لم تكن أرض ، وإذ كانت السموات والأرضون شيئا واحدا منبثا ، فلعله كان دون الدخان .

لدينا إذن — على الأقل ثلاث حقائق يقينية يستيقنها العلم الآن هي :

١ — تعدد العوالم فلكيا .

٢ — دخانية السماء في البدء .

٣ — انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها أولا .

فالأرض ليست إلا فردا من أفراد الأسرة الشمسية ، والأسرة الشمسية ليست إلا فردا من أفراد المجموعة المجرية والمجموعة المجرية ليست إلا فردا من افراد مجموعة المدن النجومية التي في الفضاء[١] .

والآن حان لنا أن ننتقل إلى مسألة أخرى ، وهي التطور في خلق هذا العالم .

## د — التطور في خلق العالم :

من الثابت أن الله سبحانه — قد خلق العالم بما فيه من سماوات وأرضين في ستة أيام ، « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب[٢] » .

وقد أجمع علماء الإسلام قاطبة على أن الله عز وجل قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، كما دل على ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة[٣] .

---

(١) جينز ( سير جيمس ) : النجوم في مسالكها ص ١٤٤ .

(٢) سورة ق ٣٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية — دار الفكر العربي — القاهرة جـ ١ ص ٨ .

وبما يجدر الإشارة إليه هنا أن ما جاء في القرآن الكريم عن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، لا مدخل له في تكييف قدرة الله .

لكن تعبير القرآن الكريم عن الخلق في هذه الأيام الستة قد يشتبه على كثير من الناس فيظنون أن هذه الأيام هي الأيام التي نعهدها . وهذا — في الواقع — مثل من المزالق التي على الناظر في آيات القرآن الكونية أن يحذر الانزلاق فيها فيفهم من الرأي أول ما يتبادر إلى ذهنه بحكم الفكر السائد في البيئة ، أو حكم النقص في العلم ، أو حكم الجهل باللغة التي نزل بها القرآن .

فاليوم عند الناس هو يوم الأسبوع ، لكن هذا ليس إلا أحد معاني اليوم في اللغة العربية . فأيام العرب في حروبها — مثلا — كان بعضها يطول إلى أيام ، ومع ذلك كان يطلق عليه لفظ اليوم بالإفراد .

على أن اليوم ، وإن كان أطلق في القرآن الكريم على اليوم العادي مثل يوم الجمعة ، وبمعنى اليوم عند العرب في حروبها مثل يومي « بدر » « وحنين » فقد أطلق فيه على الحقبة من الزمن يتجاوز طولها كل ما كان يمكن أن يخطر ببال إنسان أن يطلق عليه لفظ يوم ، كما في قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[١] » .

فعلى الناظر — إذن — في آيات الخلق في القرآن الكريم أن يتذكر أن أيام خلق الكون ليست كالأيام عند الناس ، وأن يختار لكل منها عند تخصيصها ، كما في آيات سورة فصلت ، معنى يتناسب مع الحقيقة التي قام عليها البرهان عند أهلها من العلماء .

والتعبير القرآني بستة أيام عن الأحقاب الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض في أطوار ستة ، فصلتها الآيات التاسعة والعاشرة والحادية

---

( ١ ) سورة المعارج ٤ .

عشرة والثانية عشرة من سورة فصلت .

ففي الآية التاسعة يقول تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » ، وفي هذا إشارة إلى طوري الانفصال من الشمس ثم الانطفاء حتى التكثف وتجمد القشرة بالبرودة . وقوله تعالى : « وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام » إشارة إلى طور خلق الجبال بنوعيها الأساسيين : ما يتكون منها بتقبض القشرة في أواخر التجمد واستمرار البرودة . وهذا بدلالة جمع الطورين الأولين والطورين الأخيرين معا في قوله تعالى : « في أربعة أيام » إشارة إلى الاتصال والتداخل بين آخر الطور الثاني وأول الطور الثالث طور خلق النوع الأول الناري من الجبال ثم تشير الآية الكريمة إلى خلق النوع الثاني الرسوبي على شواطيء البحار بقوله : « من فوقها » وهذا يستتبع خلق الأنهار ، والتغيرات التي تمكنها من حمل ما ترسبه على شواطيء البحار . وهذا الاستنباط — تفسيرا لقوله : « من فوقها » ضروري ، وإلا لصارت الكلمتان لغوا يتنزه كلام الله — تعالى — عنه ، يؤيده بعد ذلك قوله تعالى : « وبارك فيها » إذ لا بركة بلا ماء ولا أنهار . فهذا طور أو يوم طويل المدى ، الله أعلم بطوله ، متداخل في الطور الذي بعده ، طور إعداد الأرض للحياة ، الذي دلت عليه الآية الكريمة بقوله : « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » . فأطوار الخلق متداخل بعضها في بعض ، بعد أن انفصلت قطعة الشمس التي صارت الأرض بعد ذلك[1] .

ويذكر المفسرون أن الأيام الستة هي أيام الأسبوع ثم اختلف هؤلاء المفسرون في هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ؟ لقد نص مجاهد والإمام أحمد بن حنبل وابن عباس على

(١) الغمراوي : الإسلام في عصر العلم ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

أن اليوم كألف سنة[١] .

ويتلخص خلق العالم في النقاط التالية :

١ ــ وجود ست مراحل للخلق عموما .
٢ ــ تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض .
٣ ــ خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة
٤ ــ تعدد السموات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض .
٥ ــ وجود خلق وسيط بين السموات والأرض[٢] .

ومن الجدير بالذكر القول بأن الله ــ عز وجل ــ خلق السموات والأرض وما بينهما لغاية يعلمها ، فلم يكن الخلق عبثا ولا باطلا « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا »[٣] .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٢٢٠ .
(٢) بوكاي ( موريس ) : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ــ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩ ص ١٦٦ .
(٣) سورة ص ٢٧ .

# « الفصـــل الثانـــي »

# الحياة ..والكائنات الحية

## أ ـــ أصل الحياة :

يمكن القول بأن القرآن الكريم قد تناول موضوع « أصل الحياة » في إيجاز بالغ ، وقد قرنه بعملية تشكل الكون ، حيث يقول سبحانه : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون »[1] .

ويتضح من هذه الآية أن أصل الحياة هو الماء . فالماء هو أصل كل الأحياء ، إذ هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « يا نبي الله ، إذا رأيتك قرت عيني ، وطابت نفسي ، فأخبرنا عن كل شيء . قال : كل شيء خلق من ماء[2] » .

فالماء هو العنصر اللازم لأي حياة نباتية ، حيث يقول — سبحانه : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى[3] » كما أن الماء هو أصل كل تشكيل حيواني « والله خلق كل دابة من ماء[4] » .

وإذا كان القرآن الكريم والسنة الشريفة يؤكدان أن أصل الحياة واحد وهو الماء ، فإنهما يؤكدان أيضا أن أصل الكائنات واحد .

(١) سورة الأنبياء ٣٠ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٧٧ .
(٣) سورة طة ٥٣ .
(٤) سورة النور ٤٥ .

ومن الجدير بالذكر القول بأن العلم الحديث لايخرج ـــ فيما يتعلق بأصل الحياة عن هذا الأصل الذي تحدث عنه القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . فالعلماء يرون أن حالة البحار البدائية من حيث درجة الحرارة والإشعاع والتركيب الكيميائي شجعت على تكوين وبقاء عدد كبير من مركبات « الكربون » المختلفة ، ثم بوساطة عدد لا يحصى من اتحادات هذه المركبات بعضها ببعض تكونت أجهزة فيزيائية وكيميائية لها طبيعة ثابتة نسبيا وتتميز بالصفات الأساسية للحياة .

ويعتقد بعض العلماء أن هذه الكائنات البدائية الأولية كانت تشبه في أول مراحلها « الجين[١] Gene » ويعتقد علماء آخرون أنه يمكن مقارنة هذه الكائنات الأولية بفيروس Virus يعيش معيشة حرة .

ويؤكد بعض العلماء أن الأشياء الحية التي ظهرت على الأرض لم تظهر على هيئة خلايا ، وإنما بصورة أشياء أبسط من الخلايا بكثير يمكن تسميتها « جزيئات حية » . ويرجّح هذا البعض أن التقدم من مرحلة الجزيء الحي إلى مرحلة الخلية الواحدة ( مثل حيوان الأميبا Amoeba » يساوي على الأقل التقدم من مرحلة « الأميبا » إلى الإنسان[٢] .

## ب ـــ خلق الكائنات الحية وتطورها :

اقتضت حكمة الله في الخلق أن يكون هناك زوجان من كل شيء ، حيث يقول سبحانه : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم

---

( ١ ) « الجين » هو الذي يحمل الصفات الوراثية ، ويوجد على الكروموزومات داخل النواة في خلايا جميع الكائنات الحية .

( ٢ ) كمال ( د. علم الدين ) : تطور الكائنات الحية ـــ مقال بمجلة عالم الفكر المجلد الثالث ، العدد الرابع سنة ١٩٧٣ ص ٩٥٣ ، ٩٥٤ .

الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »[١] .

فجميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، والنبات والحيوان والإنسان ذكر وأنثى . أما الواحد الفرد فهو الله ــ سبحانه وتعالى[٢] . وهو الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها .

وقد فرق الله ــ عز وجل ــ خلقه في أرجاء أقطار السماوات والأرض ، سواء كان هذا الخلق ملائكة أو إنسا ، أو جنا ، أو حيوانا ، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم[٣] . وذلك حيث يقول سبحانه : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير[٤] » .

وهنا قد يثار سؤال في تفسير هذه الآية الكريمة السابقة هو : هل هناك حياة خارج هذه الأرض التي نحيا عليها ؟

إن الجواب الذي يتبادر إلى الذهن هو : نعم ، على الرغم من أن المفسرين قد أولوا في هذه الآية ، ففسروا قوله تعالى : « فيهما » أي في مجموعهما ، إذ هم لا يعرفون دواب إلا في هذه الأرض التي نحن عليها ، وفاتهم أن يتذكروا أن هناك ست أرضين أخرى أخبرهم الله بها ، فيمكن إذن أن يكون في بعضها حياة ودواب .

لكن علم الله ــ سبحانه ــ أن احتمال أن يكون في السماء حياة ودواب

---

(١) سورة الذاريات ٤٧ ــ ٤٩ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٢٣٧ ، ١٢٣ .
(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ١١٥ ــ ١١٦ .
(٤) سورة الشورى ٢٩ .

سيكشف عنه العلم بإذن الله في عصر آت ، وسيلهج به الناس كما يلهجون الآن بحياة في بعض الكواكب يظنونها أرقي في العلم حتى من الحياة على الأرض في عصرنا هذا ، فأنزل في سورة النحل ما حقه أن يذهب بتأويل المفسرين الذي يقف بمعنى آيات الله عند حد ما يعلمون ، لا عند ما يحتوي الآي من معنى ، ولو كان إنباء بما لا يعرف الإنسان ، ففصل الله جل جلاله ما أجمل في آية الشورى ، وذلك في قوله : « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة ، والملائكة[1] » فهنا ذكر اسم الموصول مرتين ، لا مرة واحدة ، كما في آية الشوري ، مرة متعلقة بالسماء ومرة متعلقة بالأرض ، ليذهب — سبحانه — بكل شكّ في أن قوله : « من دابة » بيان لما في السماء ولما في الأرض ، ويكون ذكر الملائكة بعد ذلك فيمن يسجد مانعا من تأويل دواب السماء بالملائكة عند من لا يدركون أن الملائكة لا يليق بهم أن يعبر عنهم بالدواب . فالآية الكريمة — إذن — تنبيء البشرية بما تجهله إلى الآن .

ويؤكد هذا الذي نذهب إليه الأثر المروي عن ابن عباس رضي الله عنه حيث يقول : « في كل أرض من الخلق مثل ما في هذه حتى آدم كآدمكم وإبراهيم كإبراهيمكم » . وقد ذكر هذا ابن جرير مختصرا واستقصاه البيهقي في الأسماء والصفات .[2]

وإذا كان الله قد فرق خلقه في أرجاء أقطار السموات فإنّه — سبحانه — جعل حلقات الحياة مترابطة متكاملة فيتوقف خلق في حياته على خلق آخر ، كل ينتفع ويحيا بما يستضر به الآخر .. ويجدد له بذلك ما ينتفع ويحيا به .

والكائنات الحية هي النبات والحيوان والإنسان ، وكل منها له خصائصه الذاتية ، مع اشتراكها جميعا في أنها حية ، وأنها خلقت في أطوار متعددة .

---

(١) سورة النحل ٤٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص ٢١ .

ويسمح العلم الحديث بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات ، حيث اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصري الكمبري ( Precambrien ) أي في أقدم الأراضي المعروفة . ولابد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل[1] ، ثم جاء الإنسان أخيرا .

**١ ) النبات :**

يقترن ذكر النبات ــ غالبا ــ في القرآن الكريم بالتدليل على قدرة الله على إنزال المطر من السماء الذي يكون سببا في الإنبات ، كما يدلل الله على قدرته ــ أيضا ــ على التنويع ، وإيجاد أنواع مختلفة من النباتات والزروع والثمار ، مع أنها جميعا تسقي بماء واحد ، وتنبت في أرض واحدة ، يقول سبحانه : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون[2] » ويقول سبحانه في سورة أخرى : « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون[3] » ويقول سبحانه : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون[4] » .

ويتحدث القرآن الكريم عن التوازن الذي يتحكم في عالم النبات ، فيقول سبحانه « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء

---

( ١ ) بوكاي ( موريس ) : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢١٢ .
( ٢ ) سورة النحل ١٠ ــ ١١ .
( ٣ ) سورة الأنعام ٩٩ .
( ٤ ) سورة الرعد ٤ .

موزون[1] » .

أما عن تناسل النبات ، فإن التناسل الجنسي يتم بوساطة تزاوج عناصر ذكرية بعناصر أنثوية ، ويشير القرآن الكريم إلى هذا بقوله تعالى : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى[2] » وقوله : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج[3] » « فأنبتنا فيها من كل زوج كريم[4] » « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين[5] » .

هذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم في موضوع النبات وتناسله وإذا كان القرآن الكريم يكرر كثيرا وجود عنصري الزوجية هذه في عالم النبات ، فإنه يسجل مفهوم التزاوج والزوجية في إطار أكثر عمومية وشمولا لا يعين حدوده وذلك في قوله تعالى : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون[6] » .

**٢ ) الحيــوان :**

لقد وردت قصة خلق الإنسان صريحة وقاطعة في القرآن الكريم بحيث لا تحتمل لبسا ولا تأويلا .

أما الحيوانات الأخرى فإن القرآن الكريم قد ضرب صفحا عن قصة نشأتها ، ومن هنا فإن لكل عاقل أن يبحث في الأمر إذا أحب ، على أن لا يطوح بفكره بين افتراضات غيبية ، لا سند لها ولا شاهد عليها ، وأن لا يعطي

---

( ١ ) سورة الحجر ١٩ .
( ٢ ) سورة طه ٥٣ .
( ٣ ) سورة الحج ٥ .
( ٤ ) سورة لقمان ١٠
( ٥ ) سورة الرعد ٣ .
( ٦ ) سورة يس ٣٦ .

يقينه إلا لما تكاملت عنده أدلة العلم اليقيني ، ملتزما في ذلك المبدأ الذي ألزمنا الله تعالى به[1] .

يذكر القرآن الكريم أن الله ــ سبحانه ــ خلق كل دابة من ماء ، بناء على أن أصل الحياة هو الماء ، سواء أكان هذا الماء ماء بحار أو محيطات أو أنهار أم كان حيوانا منويا . يقول عز وجل : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير »[2] .

فهذه الآية الكريمة تشير هنا إلى تصنيف الحيوانات ، مع التذكير بقدرة الله الذي خلق هذه الأنواع من الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد. فالصنف الأول « من يمشي على بطنه » وهو الزواحف كالحية وما شاكلها ، والصنف الثاني « من يمشي على رجلين » كالإنسان والطير ، والصنف الثالث « من يمشي على أربع » كالأنعام وسائر الحيوانات[3] وفي قوله تعالى : « يخلق الله ما يشاء » إشارة إلى ما لم يذكر من أصناف الحيوانات الأخرى ، وكل ذلك بقدرته ــ سبحانه ــ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ومن الملاحظ هنا أن الله عز وجل يدخل الإنسان من حيث هو كائن حي في الشجرة التصنيفية للكائنات الحية . وهو سبحانه يتحدث في آية أخرى عن الحيوانات بجانب حديثه عن خلق الإنسان بصفة عامة ، ولكنه يعبر عن خلق الحيوانات بلفظ « أنزل » وذلك في قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في

(١) البوطي ( د. محمد سعيد رمضان ) : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٩ .
(٢) سورة النور ٤٥ .
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك »[1] . فهذه الآية تذكر أن الله — سبحانه — أنزل ثمانية أزواج من الأنعام ، هي المذكورة في سورة الأنعام[2] « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين .. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين[3] » .

ويذكر الله في آية أخرى أنه خلق الحيوانات بيديه حيث يقول : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون[4] » .

كما يقرر الله — سبحانه — في آية أخرى أن كل جماعة من الحيوانات أو الطيور إنما هي أمة تماثل أمة البشر حيث يقول سبحانه : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون[5] » .

ولقد حدد الله الغاية من خلق الحيوان ، وهي حاجة الإنسان ومنفعته فقال سبحانه : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون[6] » .

### ٣ ) الإنســـان :

فيما يتعلق بالإنسان ونشأته وأصله فإن من بديهة الإيمان — كما يقول العقاد رحمه الله — أن تدع للدين حقه في تبليغ هذه النشأة إلى المؤمنين بالغيب ، وأن

( ١ ) سورة الزمر ٦ .
( ٢ ) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٥ — ٤٦ .
( ٣ ) سورة الأنعام ١٤٣ ، ١٤٤ .
( ٤ ) سورة يس ٧١ .
( ٥ ) سورة الأنعام ٣٨ .
( ٦ ) سورة النحل ٥ — ٨ .

تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من تعليم .. إن النشأة الآدمية في القرآن هي طريق الحياة من الأرض إلى السماء ، أو هي طريق الكائن الحي من المادة الصماء إلى الخلاق الحكيم[١] .

مما لا شك فيه أن المصدر الوحيد الذي يمدنا بحقائق مؤكدة عن خلق الإنسان ومكانته وغايته هو القرآن الكريم[٢] .

وقصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم هي قصة الإنسان الأول .. خلق من تراب ... وارتقي بالخلق السوي إلى منزلة العقل والإرادة . وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذي حياة وغير ذي حياة وقضي له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لإرادته ، وانتصارا لعقله على جسده[٣] .

فآدم هو أبو البشر ، خلقه الله بعد أن خلق ما في السموات وما في الأرض[٤] وقصته وردت على تنوع في التفصيل في سبع سور : « واحدة مدنية » هي « البقرة » ، والست الباقية « مكية » هي حسب ترتيب نزول الوحي بها : (ص) والأعراف وطه والإسراء والحجر والكهف .

أما القصة في سورة البقرة التي لم يشركها فيها غيرها من السور المدنية فقد امتازت بأمرين لم يردا في قصة لآدم غيرها : امر استخلاف آدم ، وبنيه طبعا في الأرض « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة[٥] » ، وأمر

---

(١) العقاد (عباس محمود) : الإنسان في القرآن — دار الكتاب العربي — بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ ص ٦٦ .

(٢) حلمي (د. مصطفى) : المخاطر التي تواجه الشباب المسلم وكيف نتوقاها ، دار الأنصار — القاهرة ص١١٣ — ١١٤ .

(٣) المرجع السابق « العقاد » ص ٦٣ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية — مادة « آدم » .

(٥) سورة البقرة ٣٠ .

إعداد آدم وبنيه لعلم ما في الكون كله ، المشار إليه بقوله : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة[1] » .

ومما ينبغي التنبه له هنا أن قصص آدم في القرآن الكريم قد امتاز بأمرين عظيمين هما : أمر الملائكة بالسجود لآدم مع إباء الشيطان السجود معهم فهذا أمر له لم يرد له ذكر في التوراة التي بأيدي الناس ، وأمر اختداع الشيطان آدم حتى أكل من الشجرة التي كان منهيا عنها ، وأخرج لأجل ذلك من الجنة إلى الأرض ، فإن سفر التكوين يقول إن الحيّة هي التي خدعت حواء حتى أكلت وأطعمت زوجها ، وحتى لم يقل إن الشيطان حملته الحية بصورة ما إلى داخل الجنة ليستزل آدم وزوجه في أمر الشجرة كما يحاول بعض الناس أن يقرب حديث الحية إلى الأفهام . ومع ذلك يزعم بعض المستشرقين ومن يتابعهم أن القصص القرآني مأخوذ من قصص أهل الكتاب ...[2] .

وحيث أن قصة آدم هي قصة الإنسان الأول ، فسيكون حديثنا عن هذا الإنسان كيف نشأ ، ومن أي شيء نشأ ، وكيف تطور ، وما هي مراحل حياته ؟

وقبل أن نعرض لهذه النشأة ، وهذه التطورات والمراحل ينبغي أن نشير إلى هذه الملاحظة المهمة ، وهي أن القرآن الكريم والسنة المطهرة يؤكدان أن هناك صلة قوية بين الإنسان وبقية الكائنات الحية من نبات وحيوان فالإنسان في القرآن الكريم نبات من نبات الأرض « والله أنبتكم من الأرض نباتا[3] » وروي عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام ، وليس من

---

(١) سورة البقرة ٣١ .

(٢) الغمراوي ( د. محمد أحمد ) : الإسلام في عصر العلم ص ٢٠٣ وقارن محمد إقبال : تجديد التفكير الديني في الإسلام .

(٣) سورة نوح ١٧ .

الشجر شيء يلقح غيرها[١] » . ويؤكد أسلوب الحصر في قوله تعالي : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم[٢] » أن الدواب والطيور هي أمم تماثل أمم البشر . وحكاية مسخ أهل « طبرية » أو « أيلة » من اليهود قرودا لصيدهم الحيتان في يوم السبت توحي — أيضا — بالصلة بين الإنسان والحيوان .

والحق أن هناك صفات مشتركة بين الإنسان والحيوان ولكن هذا لا يعني التطابق أو التماثل ، يقول « ابن تيمية » في معرض مناقشة المنطقيين في تعريف الإنسان بأنه « حيوان ناطق » : « وإن أرادوا بالاشتراك أن مثل تلك الصفة حاصلة للنوع الآخر ، قيل لهم : لا ريب أن بين حيوانية الإنسان وحيوانية الفرس قدرا مشتركا ، وكذلك بين صوتيهما وتمييزهما قدرا مشتركا[٣] » .

وهناك آية جامعة في خلق جميع الكائنات هي قوله تعالي : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »[٤] فهذه الآية تؤكد أن خلق أول المخلوقات هو من نفس المادة التي يخلق الله منها جميع المخلوقات ، فأكل الإنسان مأخوذ من الحيوان أو النبات ، والحيوان أصله من النبات فالكل مأخوذ من النبات الذي ينمو من مواد الأرض والهواء .

والإنسان الأول أو آدم ابتدأ الله — سبحانه — خلقه من تراب ، من غير أب ، وهو في هذا يشبه عيسى عليه السلام الذي خلق من غير أب « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[٥] ، أي أن مثل عيسى وشأنه الغريب كشأن آدم خلق جسمه من تراب فلا أب له ولا أم

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١١٧ — ١١٨ .
(٢) سورة الأنعام ٣٨ .
(٣) ابن تيمية : نقض المنطق ص ١٩٤ .
(٤) سورة يس ٣٦ .
(٥) سورة آل عمران ٥٩ .

له ، فهو أغرب من عيسي المخلوق بلا أب[١] . وفي عبارة أخرى : إن شأن عيسى كشأن آدم في الخروج عن مستمر العادة ، وهو التولد من أبوين[٢] .

وقد ورد أن الإنسان خلق من تراب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم . وجاء في السنة الشريفة : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحشن، والخبيث والطيب وبين ذلك »[٣] .

فإذا أضيف إلى التراب ماء صار طينا ، وقد ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه أن الله ــ سبحانه ــ بدأ خلق الإنسان من طين . فالإنسان مخلوق من سلالة من طين ، أي خلاصته ، وقد فسر ابن عباس وغيره الطين اللازب بأنه اللزج الجيد ، وفسره قتادة بأنه الذي يلزق باليد[٤] .

ثم بعد ذلك صب الطين اللازب في قالب معين ، وصور في صورة إنسان ، ثم ترك حتى يبس وأصبح صلصالا يرن كالفخار « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون[٥] » ، « خلق الإنسان من صلصال كالفخار »[٦] .

ويذكر القرطبي أنه لما كان جسدا من غير روح مرت الملائكة به فلما رأته فزعت منه ، وكان إبليس أشد فزعا منهم ، وكان يضربه لما كان جسدا قبل نفخ

---

(١) جوهري ( الشيخ طنطاوي ) : الجواهر في تفسير القرآن . الطبعة الثانية سنة ١٣٥٠ هـ ــ الحلبي جـ ٢ ص ١٢٦ .

(٢) الأنصاري ( ابن هشام ) : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ــ التجارية الكبرى جـ ٢ ص ٣٩٩ .

(٣) السيوطي ( جلال الدين ) : الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ــ الطبعة الأولى جـ ١ فصل الألف ص ٧٠ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ــ مكتبة التراث الإسلامي ــ حلب سنة ١٤٠٠ هـ جـ ٤ ص ٣ .

(٥) سورة الحجر ٢٦ .

(٦) سورة الرحمن ١٤ .

الروح فيه ، فكان يصوت كالجسد ، كما يصوت الفخار ، وكان يقول للملائكة أرأيتم هذا الذي لا يشبه واحدا من الخلائق[1] ؟
كما روي عن الرسول ﷺ أنه قال : « لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه فجعل إبليس يطيف به ، فلما عرف أنه أجوف عرف أنه لا يتمالك[2] » .

وبعد أن سواه الله ، وصوره بتلك الصورة نفخ فيه الروح وأمر الملائكة بالسجود له « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين[3] » « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم[4] » .

هذا هو أصل الإنسان الأول أو آدم ، وتطوراته المختلفة ، أما نسله أو ذريته فلها شأن آخر ، ونشأة أخرى .

## آدم أبــو البــشــر :

يؤكد القرآن الكريم والسنة المطهرة أن الناس جميعا قد خلقوا من آدم وحواء عليهما السلام ، وأن حواء خلقت من آدم أيضا ، وقد ورد ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، حيث يقول تعالي : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء[5] » .

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به[6] » ، « ألا هو العزيز الغفار .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ــ دار الكاتب العربي ــ طبعة ثالثة سنة ١٩٦٧ جـ ١ ص ٢٨١ .
(٢) العسقلاني ( ابن حجر ) : فتح الباري بشرح البخاري جـ ٢ باب خلق آدم ص ١٧١ .
(٣) سورة الحجر ٢٩ .
(٤) سورة الأعراف ١١ .
(٥) سورة النساء ١ .
(٦) سورة الأعراف ١٨٩ .

خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها[1] » .

فهذه الآيات وغيرها تؤكد أن الله عز وجل خلق جميع الناس من آدم عليه السلام ، وأنه خلق منه زوجه حواء ، ثم انتشر الناس منهما ، برغم اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم . فالجميع من آدم وحواء « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[2] » . وقد ورد أن حواء خلقت من ضلع حيث يقول الرسول ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء[3] » .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة وقال : أنا سيد القوم يوم القيامة ، هل تدرون بمن يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس أبوكم آدم ، فيأتون فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، إذهبوا إلى غيري »[4] فهذا الحديث نص في أن آدم أبو البشر ، كما أن احتجاج آدم وموسى — أيضا — يفيد أن آدم هو أبو البشر ، فقد ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذي

---

(١) سورة الزمر ٥ — ٦ .
(٢) سورة الحجرات ١٣ .
(٣) العسقلاني ( ابن حجر ) : فتح الباري بشرح البخاري جـ ٧ ص ١٧٧ .
(٤) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٢٣٠ .

اصطفاك ربك وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ، فحج آدم موسى[1] » .

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ : « إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ولا أبالي »[2] .

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم[3] » إن المراد بذلك آدم « وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر[4] » .

ويلمح بعض الباحثين المحدثين الإشارة الدقيقة اللطيفة في ضمير الخطاب للجمع في قوله : « خلقناكم ثم صورناكم » مع أن ذرية آدم لم تكن وجدت بعد ، بدليل قوله : « ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » فهذه ألطف إشارة إلى أن الذرية ستتبع والديها في الصورة وما تحت الصورة من صفات تورث ، سنة الله في الخلق ، خلق الإنسان وغير الإنسان من الأحياء[5] .

## تطور خلق الإنسان :

تمر ذرية آدم في خلقها بتطورات مختلفة ومراحل متعاقبة ، متنقلة من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا »[6] .

---

(١) صبري ( مصطفى ) : موقف البشر تحت سلطان القدر ص ١١٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .
(٣) سورة الأعراف ١١ .
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٥) الغمراوي : الإسلام في عصر العلم ص ٢٠٠ .
(٦) سورة نوح ١٣ — ١٤ .

يتضح من هذه الآية السابقة أن التطور كلمة قرآنية أصيلة[1] وأن معرفة الأطوار تدعو إلى الإيمان وتزيده . وهذه الأطوار قد يكون المقصود منها معاني شتى : فخلق الأجنة في بطون الأمهات خلقا من بعد خلق أطوار ، وتدرج الإنسان بعد ذلك من طور الطفولة إلى الشباب ثم الشيخوخة أطوار ، وتدرج الجنس البشري من الإنسان العملاق الشديد وتفرعه إلى الأشكال البشرية البائدة والحالية المتغايرة أطوار ، وكل شيء في الكون متغير حتى السماء قال عنها القرآن إنها متغيرة وآخذة في الاتساع « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون[2] » .

وقوله تعالى : « لتركبن طبقا عن طبق[3] » يدل — أيضا — على التطور في خلق الإنسان .

غير أنه من الجدير بالذكر القول بأن أغلب المفسرين قد فسروا الأطوار بالنطفة والعلقة والمضغة ، مخلقة وغير مخلقة ، والعظام واللحم ، والطفولة ، والمراهقة والشباب والرشد والكهولة والشيخوخة والوفاة والبعث بعد الموت ، وكذلك فسرها علماء اللغة .

كما شملت الأطوار — أيضا — الحالات النفسية المختلفة والمعنوية ، كالشدة والرخاء ، والفقر والغنى ، والصحة والمرض .

وفسر بعض المفسرين الأطوار بما سبق وزاد عليه أطوارا أخرى ، هي أطوار ما قبل النطفة . فقد فسر ابن عباس وعكرمة وقتادة ويحيى بن رافع والسدي وابن زيد الأطوار بأنها النطفة والعلقة والمضغة[4] . كما فسر ابن عباس قوله تعالى : « لتركبن طبقا عن طبق » بقوله : « حالا بعد حال ، قال هذا

---

(١) زينو ( د. حسن ) : التطور والإنسان — دار الدعوة — بيروت طبعة أولى سنة ١٩٧١ ص ١١

(٢) سورة الذاريات ٤٧ .

(٣) سورة الانشقاق ١٩ .

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ، هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ » .. وقال عكرمة « طبقا عن طبق » حالا بعد حال ، فطيما بعد أن كان رضيعا ، وشيخا بعد ما كان شابا . وقال الحسن البصري : ( « طبقا عن طبق » يقول : حالا بعهد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقما بعد صحة )[1] .

كما فسر « البيضاوي » الأطوار بقوله : « أطوارا أي تارات ، إذ خلقهم أولا عناصر ، ثم مركبات تغذي الإنسان ، ثم أخلاطا ، ثم نطفا ، ثم علقا ثم مضغا ، ثم عظاما ، ولحوما ، ثم أنشأهم خلقا آخر[2] » .

ولقد عرضت آيات القرآن الكريم لهذه الأطوار والحالات عرضا متسقا لا خلل فيه ولا غموض ، ولا يحتاج إلى مزيد ولا تزيد .

من هذه الآيات الكريمة قوله تعالي : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى[3] » « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا[4] » .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون[5] » «هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة

(١) المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٨٩ — ٤٩٠ .
(٢) البيضاوي : تفسير جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٣) سورة طه ٥٥ .
(٤) سورة الحج ٥ .
(٥) سورة المؤمنون ١٢ — ١٦ .

ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون »[١] « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء »[٢] « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك »[٣] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة السابقة عن أطوار خلق الإنسان ومراحله ابتداء من التراب والطين ، وانتهاء بالموت ثم بالبعث يوم القيامة .

فالمرحلة الأولى أو الطور الأول هو الطور الترابي . وهذا الطور خاص بآدم عليه السلام الذي هو أب لكل البشر كما سبق الحديث عن ذلك .

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة « النطفة » أو الماء المهين « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج »[٤] ، ومن نطفة أمشاج ، أي أخلاط ، وفسره ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس بماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا أو اختلطا ؛ ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال وكون إلى كون[٥] .

وفي المرحلة الثالثة تصير النطفة علقة حمراء ، وفي المرحلة الرابعة تستحيل العلقة إلى مضغة أي قطة من اللحم ، وأحيانا يتم تخلقها وأحيانا لا يتم وفي المرحلة الخامسة وبعد اكتمال التخلق في مائة وعشرين يوما ، يرسل الله تعالى ملكا فينفخ فيها الروح ويسويها كما يشاء الله عز وجل ، ويكتب رزقها وأجلها وشقية أو سعيدة ، وفي المرحلة السادسة يخرج الجنين طفلا حيث تأتي مرحلة

---

(١) سورة غافر ٦٧ .
(٢) سورة الروم ٥٤ .
(٣) سورة الزمر ٦ .
(٤) سورة الإنسان ٢ .
(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٥٣ .

الطفولة أو الضعف في كل شيء . ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا إلى أن تأتي مرحلة المراهقة والشباب والرشد وتلك هي المرحلة السابعة ، ثم تأتي المرحلة الثامنة وهي مرحلة الشيخوخة والهرم والضعف ، والمرحلة التاسعة هي مرحلة الموت ، وتلك نهاية النشأة الأولى ، والمرحلة العاشرة هي البعث يوم القيامة ، وتلك هي النشأة الآخرة[١] .

وقد تحدث الرسول ﷺ عن أطوار الجنين ومراحل تكونه فقال : « إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ، ثم علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع : برزقه وأجله وشقي أو سعيد ، فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها[٢] » وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « وكل الله بالرحم ملكا فيقول : أي رب نطفة ، أي رب علقة ، أي رب مضغة ، فإذا أراد الله خلقها قال : أي رب ذكر أم أنثى ، أشقى أم سعيد ، فما الرزق ، فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه[٣] » ... وزيد على ذلك في رواية أخرى « ثم ينفخ فيه الروح[٤] » أي عند اكتمال التخلق وكتابة عمله ورزقه وشقاوته وسعادته .

وعند تفسير قوله تعالى : « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » يقول ابن كثير : « ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .
(٢) صحيح البخاري ــ دار إحياء الكتب العربية جـ ٤ ص ١٤٣ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١١

نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ، ثم تكسى العظام لحما وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ، ثم يشب قليلا حتى يكون صغيرا ثم حدثاً ثم مراهقا ثم شابا وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ ويهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة »[1] .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن القرآن الكريم يعتبر كل طور من أطوار الجنين خلقا جديدا ، حيث يقول سبحانه : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأني تصرفون »[2] .

والواقع أن أطوار تخلق الجنين كما وردت في القرآن الكريم تشبه تقسيمات بعض الأطباء لأطوار الجنين ، حيث يقسمونها إلى : طور العلقة ، وطور المضغة ، ثم طور التخلق ، على أساس أن يبدأ طور العلقة من تعلق الحيوان المنوي بالبويضة[3] .

هذا هو مجمل تطور خلق الإنسان كفرد ، وهناك تطور من نوع آخر للإنسان كجنس على مر العصور والأزمان .

فالقرآن الكريم والسنة الشريفة يقرران أننا متغيرون متبدلون ، حيث يؤكدان أن آدم عليه السلام قد خلق عملاقا ، ستين ذراعا في السماء ، وأن الخلق لم يزل ينقص حتى الآن ، ويؤكدان ــ أيضا ــ خلق أمم تلته مختلفة الأشكال والتراكيب والتعديلات ، منها الصغير ومنها الكبير ، بل إنهما يقرران

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٤٣٩ .

(٢) سورة الزمر ٦ .

(٣) وصفي ( د. محمد ) القرآن والطب ص ٤٩ نقلا عن : د. مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣ ص ١٥١ .

أننا متغيرون ومتبدلون إلى صور لا نعلمها « وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون[1] » . فهذه الآية جمعت كل العلم بل أكثر من كل ما عرفه جميع علماء السلالات البشرية عن هياكل الإنسان وجماجمه وآثاره « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق[2] » .

وآدم — كما مر — خلقه الله — تعالي — من قبضة من جميع تراب الأرض ، ويقول علماء اللغة إن اسمه اشتق هكذا لأنه خلق من تراب ، الأمر الذي يوحي بأن خلق آدم حدث من الطين مباشرة على هيئته السوية دون أن يمر بمراحل ودون أن يتطور من مخلوقات أخرى لتتضح معجزة الخلق الأول بفعل الأمر « كن »[3] .

ويذكر الرسول ﷺ « أن الله خلق آدم على صورته » أي على صورته التي خلق عليها ، حيث يعود الضمير في « صورته » على آدم ، والمعنى أن الله سبحانه أوجده على الهيئة التي خلقه عليها ، لم ينتقل في النشأة أحوالا ، ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته ، بل خلقه رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح .

وكان آدم ضخم الجسم طويلا حيث كان طوله ستين ذراعا هاشميا ، وهو ما يعدل أكثر من ثلاثين مترا . ففي رواية أخرى للحديث السابق « خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعا »[4] .

كما يؤكد القرآن الكريم أن الله عز وجل قد خلق الإنسان في أكمل صورة وأحسن شكل وفي أحسن تقويم حيث جعله منتصب القامة ، سوي الأعضاء

---

(١) سورة الواقعة ٦١ .

(٢) سورة فصلت ٥٣ .

(٣) زينو ( د. حسن ) : التطور والإنسان ص ٦٦ .

(٤) العسقلاني ( ابن حجر ) : فتح الباري بشرح البخاري جـ ١٣ ص ٢٣٨

(٥) رواه البخاري .

حسنها[١] . يقول سبحانه : « وصوركم فأحسن صوركم[٢] » « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم »[٣] .

لكن الإنسان أخذ بعد ذلك في التغير من حيث الحجم لا من حيث الصورة حيث روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ، ثم قال : إذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال : السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .[٤]

فهذا الحديث يفيد حصول التطور في الحجم ولكنه لا يفيد حصول التطور في الصورة ، كما أنه لا يفيد أن الإنسان تطور من حيوانات أخرى بل يؤكد الحديث أن صورة الإنسان هي نفس الصورة التي خلق عليها وأنه سيدخل الجنة بنفس الصورة[٥] .

كما يذكر القرآن الكريم أن الأمم السابقة كانت أطول أعمارا وأشد قوة « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات »[٦] .

فهناك تطور في الحجم ، طولا وقصرا ، وضخامة وضمورا ، قوة وضعفا وفي التكوين الجسمي ، حصل هذا في تاريخ حياة الإنسانية أو في بعض الأجناس وقد أشار إلى ذلك الحديث الشريف ، وتحدث عنه القرآن عندما

---

( ١ ) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٨٦، ٥٢٧ .
( ٢ ) سورة غافر ٦٤ .
( ٣ ) سورة التين ٤ .
( ٤ ) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٢٢٨ باب خلق آدم وذريته .
( ٥ ) العسقلاني ( ابن حجر ) : فتح الباري بشرح البخاري جـ ٧ ص ١٧٥ .
( ٦ ) سورة الروم ٩ .

تحدث عن بعض الأمم البائدة ، مثل ما ورد في قصة « عاد » « قوم هود » فقال تعالي : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد[١] » « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ... واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون[٢] » . «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة[٣] » . « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية .. فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية »[٤] . فهذه الآيات الكريمات تدل على أن قوم عاد قد أوتوا بسطة في القوة والأجسام .

إن الإنسان الحالي هو أقل الحيوانات تسليحا وقوة عضلية ، بينما كانت عظام جماجم الأناس الغابرة أسمك والعضلات أقوى وأشد . ولقد فسر ابن عباس كلمة « كبد » المذكورة في قوله : « لقد خلقنا الإنسان في كبد[٥] » بأنها « شدة خلق » وقد ورد في حديث الإسراء أن موسى قال للرسول ﷺ : « إن أمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأسماعا وأبصارا من بني إسرائيل »[٦] .

---

(١) سورة الفجر ٦ — ٨ .

(٢) سورة الأعراف ٦٥ — ٦٩ .

(٣) سورة فصلت ١٥ .

(٤) سورة الحاقة ٦ — ٧ .

(٥) سورة البلد ٤ .

(٦) زينو (د. حسن) : التطور والإنسان ص ١١٦ — ١١٧

# « الفصل الثالث »

# تفسير الخلق والتطور

## أ ـ تمهيد :

من الثابت أن الرسول ﷺ قد قص على أصحابه والمسلمين الأولين قصة الخلق من ألفها إلى يائها ، فها هو ذا عمران بن حصين يقول : « دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بني تميم فقال : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا ، مرتين ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ،قالوا : قد قبلنا يا رسول الله ، قالوا : جئناك فسألناك عن هذا الأمر ، قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، فنادي مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أني كنت تركتها[١] » .

وقال طارق بن شهاب « سمعت عمر رضي الله عنه يقول : قام فينا النبي ﷺ مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ، ونسيه من نسيه »[٢] .

ومن جهة أخرى نهى الرسول ﷺ عن التشكك في مسألة الخلق ، إذ أن هذا التشكك إنما هو من وساوس الشيطان . روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) صحيح البخاري جـ ٢ ص ٢٠٧ « كتاب بدء الخلق » .
(٢) المرجع السابق

يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته »[1] .

فمسألة الخلق مسألة إلهية ، لا يدرك حقيقتها إلا الخالق نفسه ، وبالتالي لا يدركها البشر إلا عن طريق الوحي الإلهي .

وإذا كانت السموات والأرض وما بينهما ، وما فيهما ومن فيهما قد أبدعتا في تطورات مختلفة فإن الفاعل لهذا الخلق وهذا التطور إنما هو الله سبحانه وتعالي .

## ب ــ الفاعل في الخلق والتطور :

الله ــ وحده ــ هو المستقل بخلق وتطور السموات والأرض ، وهو المستقل بخلق وتطور الإنسان والكائنات الأخرى ، ولم يشهد ذلك غيره ، وهو المدبر لها كلها والمقدر ، ليس معه في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا معين ، « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً »[2] .

والله ــ سبحانه ــ هو الفاعل لهذه الأطوار التي يتقلب فيها الإنسان من طور إلى طور ، فعند تفسير قوله تعالي : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون[3]» يقول ابن كثير : « أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله »[4] .

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٢١ باب صفة ( إبليس وجنوده ) .
(٢) سورة الكهف ٥١ .
(٣) سورة غافر ٦٧ .
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٨٧ .

ولما كان الله سبحانه — هو الفاعل المستقل بالخلق والتطور كانت قدرته مطلقة ، فهو يخلق ما يشاء « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير[1] » .

فمن الناس من يعطيه الله البنات ، ومنهم من يعطيه الذكور ، ومنهم من يعطيه النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد ، فهكذا الأبناء على أربعة أقسام . وكذلك الآباء على أربعة أقسام : فآدم عليه السلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى من أنثى بلا ذكر[2] .

وكل هذا يتم بفعل الأمر « كن » الذي يعبر عن الخلق الإلهي ، أي عن خلق الله للعالم ولكل جزء من أجزائه لوقت وجوده على حسب إرادته وعلمه « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون »[3] .

يتم تنفيذ هذا الأمر الإلهي بوساطة الملائكة ، « وما يعلم جنود ربك إلا هو[4] » فكل حركة في السماوات والأرض ، من حركة الأفلاك ، والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحب ، والنبات والحيوان ، فهي ناشئة عن الله بوساطة الملائكة الموكلين بالسموات والأرض « فالمدبرات أمرا[5] » ، « فالمقسمات أمرا[6] » ، فالمدبرات والمقسمات هي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام .

---

(١) سورة الشورى ٤٩ — ٥٠ .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ١٢١ .
(٣) سورة النحل ٤٠ .
(٤) سورة المدثر ٣١ .
(٥) سورة النازعات ٥ .
(٦) سورة الذاريات ٤ .

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه ، وملائكة لحفظ ما يعمله ، وإحصائه وكتابته ، ووكل بالموت ملائكة ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها ، ووكل بالنار وإيقادها ملائكة ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة .

فالملائكة أعظم جنود الله تعالى . ومنهم « المرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا[1] » ومنهم « النازعات غرقا . والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا[2] » ومنهم « الصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا[3] » . ومنهم ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، وملائكة وكلوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس ، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله عز وجل .

ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله الواحد القهار ، وهم ينفذون أوامره[4] .

فالله ـــ سبحانه ـــ وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة ، فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره ، فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة ، لكونهم هم المباشرين للتدبير ، كقوله : « فالمدبرات أمرا » ، ويضيف التدبير إليه

---

(١) سورة المرسلات ١ ـــ ٥ .

(٢) سورة النازعات ١ ـــ ٥ .

(٣) سورة الصافات ١ ـــ ٣ .

(٤) ابن القيم : إغاثه اللهفان من مصايد الشيطان ـــ تحقيق محمد حامد الفقي ـــ مكتبة عاطف جـ ٢ ص ١٢٥ ـــ ١٢٦ . وأصل مادة «الملك» مألك والمألكة هي الرسالة .

تارة أخرى كقوله : « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر »[1] . فهو المدبر ، أمرا وإذنا ومشيئة ، والملائكة المدبرات ، مباشرة وامتثالا . وهذا كما أضاف التوفي إليهم تارة : « توفته رسلنا[2] » وأضاف التوفي إليه تارة أخرى : « الله يتوفى الأنفس[3] » ونظائره .

والملائكة الموكلون بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره ، فإنهم موكلون بتخليقه ، ونقله من طور إلى طور ، وتصويره وحفظه في أطباق من الظلمات الثلاث ، وكتابة رزقه وعمله وأجله ، وسعادته وشقاوته ، وملازمته في جميع أحواله ، وإحصاء أقواله وأفعاله ، وحفظه في حياته ، وقبض روحه عند وفاته[4] .

## جـ ـ الأنـواع وتعـددهـا :

ما دام الله ـ سبحانه هو الخالق والمطور ، فهو ـ إذن ـ قد هدى كل كائن لطبيعة عمله وحدد له خصائصه التي يعمل بها ويعيش ، الأمر الذي يوحي بأن الأنواع خلقت متعددة متنوعة ابتداء ، يقول سبحانه : « قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[5] » .

وقد فسر ابن عباس هذا بأن الله خلق لكل شيء زوجه ، وأنه قد جعل الإنسان إنسانا والحمار حمارا والشاة شاة وفسره مجاهد بأن الله أعطى كل شيء صورته وأنه سبحانه سوى خلق كل دابة . وفسره سعيد بن جبير بأنه ـ سبحانه أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للإنسان من

---

(١) سورة يونس ٣ .
(٢) سورة الأنعام ٦١ .
(٣) سورة الزمر ٤٢ .
(٤) ابن القيم : إغاثه اللهفان جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٥) سورة طه ٤٩ ـ ٥٠ .

خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا الكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح ، وهيأ كل شيء على ذلك ، فسبحانه خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد[١] .

فالله ـــ سبحانه ـــ خلق الخلق متعددا متنوعا ، فهو عز وجل ، جعل الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة ، والحيوان أمة « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يحشرون » . وقد روي عن جابر بن عبد الله قال : « قل الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء ، فاغتم لذلك ، فأرسل راكبا إلى كذا ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى العراق ، يسأل هل رئي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب من قبل اليمن بقبضة من جراد ، فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبر ثلاثا ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة في البر ، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه[٢] » .

كما خلق الله ـــ تعالى ـــ كل مخلوق على أتم وجه وأحسنه « الذي أحسن كل شيء خلقه[٣] » وسخر له كل الأعضاء والوسائل التي تمكن من العيش في الوسط المقدر له . إذا تغير الوسط الذي يحف بالكائن ، كأن صار بحرا بعد أن كان « برا » فإما أن ينجو بنفسه عن طريق السباحة أو يموت ويندثر . ولكن هذا التغيير أبعد ما يكون عن أن يجعل الحيوان البري مائيا ، كأن يجهزه بخياشيم تتنفس كالسمك . وعليه فليس هناك « تكيف » وإنما هو

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٥٥

(٢) نقلا عن د. حسن ريبو التطور والإنسان ص ١٤ ـــ ١٥ .

(٣) سورة السجدة ٧

انسجام مع شروط معينة يؤدي تغيرها إلى فناء الحي أو نزوحه عن هذه الشروط ، أي الهرب من الشروط القاسية إلى غيرها إن تمكن من ذلك[1] .

ويؤكد القرآن الكريم أن الله ــ لا الطبيعة ــ هو الذي يختار من خلقه للبقاء في الكون ما يشاء « وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون[2] » .

كما يذكر القرآن الكريم أن الصلاح هو سبب بقاء الأمم والحضارات في الدنيا ، وسبب تغلب الضعفاء المتقين على الأقوياء الكافرين . إن الذنوب والفسق عن أمر الله واتباع المنكر والشيطان هي سبب الزوال والهلاك .

ومن حكمة الله ــ تعالى ــ أنه خلق المخلوقات مشابهة لبعضها ، « مشتبها وغير متشابه[3] » ، «متشابها وغير متشابه[4]» . «صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل[5] » « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم[6] » ليدل ــ سبحانه ــ بهذا التشابه وهذا التنوع على عظمة خلقه . ومن حكمته ــ سبحانه ــ أنه خلق مخلوقات تشبه الإنسان في الشكل نوعا ما ليذكر الإنسان بنعمة النبوة والكتاب والعقل والعلم والبيان ، بل وحسن القوام ، كالقرد وغيره من الحيوانات .

إن الاغترار بالمشابهات خطر ، لأنه يغض من أثر الاختلافات « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج

---

(١) زينو ( د. حسن ) التطور والإنسان ص ١٥ .
(٢) سورة القصص ٦٨ .
(٣) سورة الأنعام ٩٩ .
(٤) سورة الأنعام ١٤١ .
(٥) سورة الرعد ٤ .
(٦) سورة الرعد ١٦ .

منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[١]« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين[٢] » .

لقد ألقت الآيتان الضوء الكاشف على حقائق العلم ، وأثبتتا أن المخلوقات كلها قد خلقها الله — على ما يبدو — مستقلة ولم يحدث لها تحول . إن أصل هذه المخلوقات ، وهو الماء ، واحد ، مهما تتعدد وتتنوع وتفرط في الاشتباه لكنها تبقى غير متشابهة .

لقد صنف العلماء النبات فصائل ، وصنفوا الحيوان فصائل ، وهذا التصنيف اصطناعي شكلي ، ورتب العلماء هذه الفصائل إلى جانب بعضها ، فإذا اشتبهت في الشكل أو الحجم أو اللون قالوا عنها إنها نشأت من بعضها وتطورت . ولكن الظاهر — والله أعلم — أن أصل الفصائل متعدد ، وكل فصيلة خلقها الله لنفسها ولم تنشأ منها فصيلة أخرى .

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »[٣] .

ويفسر ابن كثير « الصنوان » بأنه الأصول المجتمعة في منبت واحد ، كالرمان والزيتون والتين والنخيل ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه .

---

(١) سورة الأنعام ٩٩ .
(٢) سورة الأنعام ١٤١ .
(٣) سورة الرعد ٤ .

وينبغي هنا التنويه في هذا الصدد بما يسمى في « التشريح المقارن » ، بالأعضاء المتقابلة كجناح الطائر ويد الإنسان ، لوضعها المتشابه في الجسم برغم اختلاف وظيفتها ، فهي في حقيقتها أعضاء من أصل واحد مركبة في الجسم تركيبا متشابها ولها نفس البناء ، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة « واضمم إليك جناحك من الرهب[1] » حيث تفسر كلمة « جناح » باليد .. بعكس جناح الطائر وجناح الحشرة ، فبرغم اتفاقهما في وظيفة الطيران فإنهما من أصلين من عضوين مختلفين ، لأن جناح الطائر طرف أمامي أما جناح الحشرة فهو بروز بسيط ، فهما غير متقابلين[2] وينص القرآن الكريم على أن الإنسان قد خلق في أحسن خلق وأقومه « يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك . في أي صورة ما شاء ركبك[3] » .

يفسر ابن كثير قوله تعالى : « الذي خلقك فسواك فعدلك » بقوله : « أي جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال» . وقوله تعالى : « في أي صورة ما شاء ركبك » يشير إلى قانون « الوراثة » حيث ورد في تفسير ابن كثير أن النبي ﷺ قال لصحابي : « ما ولدلك ؟ قال : يا رسول الله ما عسى أن يولد لي ؟ إما غلام ، وإما جارية ؟ قال : فمن يشبه ؟ قال : يا رسول الله ، ما عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبي ﷺ : مه ، لا تقولن هكذا ، إن النطفة إذا — استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم ، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى : في أي صورة ما شاء ركبك ؟ قال : تعني شكلك »[4].

---

(١) سورة القصص ٣٢ .
(٢) زينو ( د. حسن ) : التطور والإنسان ص ٢٥ — ٢٦ .
(٣) سورة الانفطار ٦ — ٨ .
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٤٨١ — ٤٨٢ .

## د ـــ الإنسان أفضل المخلوقات :

من الثابت أن الإنسان أشرف المخلوقات وأفضلها . ثبتت هذه الحقيقة بدليلين : أحدهما دليل الخبر اليقيني الصادق ، وثانيهما برهان العقل .

أما الخبر الصادق فقوله عز وجل : «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[1]» .

ففي هذه الآية يخبر الله تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، كقوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ، أي يمشي قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه ، وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله ، وينتفع به ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية ، والدنيوية . وفضل الله الإنسان على كثير ممن خلق من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات[2] .

ومن الخبر الصادق قوله عز وجل : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين[3] » .

فهذان الخبران الصادقان يدلان على أن الإنسان أفضل من المخلوقات الأخرى وأشرف . ولا أريد ـــ هنا ـــ الخوض في مسألة أفضلية الإنسان على الملائكة أو أفضلية الملائكة على الإنسان ، حيث لا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ولا القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك

---

( ١ ) سورة الإسراء ٧٠ .

( ٢ ) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٥١ ـــ ٥٢ .

( ٣ ) سورة البقرة ٣٤ .

( ٤ ) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٢٨٩ .

خبر الله تعالى وخبر رسوله ( أي المتواتر من ذلك ) او إجماع الأمة ، وليس ههنا شيء منه كما يقول القرطبي[1] .

أما برهان العقل على أفضلية الإنسان وشرفه فهو :

**أولا** : إن النفس الإنسانية تمتاز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة ، ألا وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء ، وهي بذلك أول مفتاح لتسخير كثير من مظاهر الكون للإنسان ولجعلها تحت سلطانه .

ومن خصائص هذه القوة العاقلة أنها القوة التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ، ويشرق منها ضوء كبريائه فتهيء صاحبها بذلك لممارسة العبودية لخالقها العظيم جل جلاله . فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله عز وجل .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم ، باستثناء الملائكة نظرا للاعتبارات الاستثنائية بالنسبة إليهم .

**ثانيا** : ما نراه بالتجربة والمشاهدة من دلائل صدق قول الله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض[2] » حيث نرى أن كلا من حركة الفلك ونظام الكون ووظائف المكونات المختلفة إنما تجري وفقا لحاجة الإنسان وخدمته .

فالإنسان يمثل في هذا الوجود الذي من حوله قطب الدائرة ، على حين ينجذب إليه مختلف الموجودات الأخرى في تطواف دائب وسعي مستمر لتنسج

---

( ۱ ) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ۱ ص ۲۸۹ .
( ۲ ) سورة لقمان ۲۰.

له مقومات الحياة الفضلى وتهيىء له متطلباته وحاجاته المختلفة .

ومن لوازم ذلك أن يغدو هذا الكائن — الذي هذا شأنه مع سائر الموجودات وشأن سائر الموجودات معه — أفضلها وأشرفها على الإطلاق .

**ثالثا** : هناك صفات ركبها الله تعالى في الإنسان هي في جملتها فيوضات من صفات الربوبية ، كالعلم والقدرة والتكبر والنزوع إلى السيطرة وغير ذلك .

وإذا أمعن الإنسان الفكر علم أن الإنسان إنما يؤمن بوساطة ما ركب فيه من هذه الصفات ، فبعلمه الجزئي المحدود يتصور علم الله الواسع الذي لا يحد ، وبقدرته الجزئية المحدودة يستطيع أن يتصور قدرة الله المسيطرة على كل شيء ، وبملكيته الصغيرة يتمكن من تصور ملك الله الواسع الذي يدخل فيه كل ما كان وما يكون . ولولا ما أودع الله فيه من هذه النماذج من الصفات ، لما تهيأ لإدراك عظمة الله تعالي وجليل سلطانه .

فإذا كان الإنسان في حقيقته مستودعا لظلال أو فيوضات من صفات رب العزة جل جلاله ، فأخلق به أن يكون أشرف المخلوقات وأكرمها .

فأفضلية الإنسان على سائر المخلوقات ( باستثناء الملائكة ) حقيقة ثابتة بالقطع دل عليها الخبر الصادق المتواتر ، والبرهان العقلي الصحيح[1] .

## هـ — خلـق الإنســان :

الإنسان مخلوق ( من حيث الجنس ) من تراب ، ومتكاثر ( من حيث المصدر ) من الإنسان الأول آدم .

---

( ١ ) البوطي ( د . محمد سعيد ) : كبرى اليقينيات الكونية — دار الفكر — الطبعة السادسة سنة ١٣٩٩هـ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ .

هذه حقيقة البرهان عليها محصور في اعتماد الخبر الصادق المتواتر إذ هي ليست من المسائل المتعلقة بالحسيات حتى تخضع لدليل التجربة والمشاهدة ، وإنما هي منبثقة عن خبر يتعلق بتاريخ قديم ، فلا مطمع للتحقق منها بأكثر من التحقيق في الخبر نفسه .

فأما أن الإنسان مخلوق ( من حيث جنسه ) من عنصر التراب ، فقد دلت على ذلك آيات صريحة أوردناها من قبل . وتقول هذه الآيات إنه خلق من تراب ومن طين لازب ومن صلصال من حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار .

والصلصال طين يبس فهو يتصلصل ، أي يصوّت كأنه الفخار ، أي الطين المشوي ، والحمأ طين أسود متغير ، والمسنون ، أي المصور صورة الإنسان ، فالصلصال تفسير لجنس التراب ، والحمأ المسنون تفسير لجنس الصلصال ، كما تقول : أخذت هذا من رجل من العرب من مصر .

وأما أنه متكاثر من آدم عليه الصلاة والسلام ، الإنسان الأول ، فقد دلت على ذلك — أيضا — آيات صريحة وكثيرة في كتاب الله تعالي وردت في قصة خلق آدم التي تكررت كثيرا في القرآن الكريم .

ولا شأن لنا هنا في البحث في كيفية نزول آدم من الجنة وهل هي أرضية أو سماوية ، ولا التحقيق في البقعة التي هبط إليها من الأرض ، لأن الحديث في ذلك من فضول النظر والقول ، ولا يوجد دليل قاطع على شيء من ذلك في كتاب أو سنة .

كما أنه لا شأن لنا — أيضا — بالزعم الذي يقول إن آدم عليه السلام المذكور قصة خلقه في القرآن ، كان مسبوقا بأوادم كثيرين غيره . فهذا زعم خيالي ، وادعاء مبني على الحدس المجرد ، لا يدعمه دليل من الخبر الصادق القطعي ولا برهان يقيني من النظر العلمي .

والحديث عن النشأة الأولى للإنسان لا يخضع لبراهين التجربة والمشاهدة المحسوسة ، إذ هو في جملته حديث تاريخي .

ولو أن الله عز وجل ــ لم يحدثنا بشيء قطعي في هذا الصدد لما التزمنا في شأنه بأي حكم نعتقده ونقطع به .

لكن الخبر الصادق المتواتر وضعنا في ذلك أمام ما لا مجال للشك أو الظن فيه ، وهو قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم « و » « أل » الداخلة على الإنسان هنا للاستغراق كما هو معلوم ، فهي عامة للأفراد كلهم ومثل ذلك قوله تعالى : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك » أي جعلك مستقيما معتدل القامة في أحسن الهيئات والأشكال .

ومن مؤكدات هذه الحقيقة التي قررها القرآن الكريم ما وري في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ... » أي أنه منذ خلق إنما كانت صورته هي الصورة ذاتها التي استمر عليها وعرف بها ، أي لم ينشأ متنقلا من شكل إلى آخر ، فالضمير في « صورته » راجع إلى آدم . على أن هناك رأيا آخر يرى أن الضمير راجع إلى الله تعالى ، والمقصود بالصورة الصفة ، أي خلقه عالما مريدا حكيما سميعا بصيرا ... وتلك هي صفات الله تعالى .

وسواء أعدنا الضمير على آدم ، كما هو رأي الجمهور ، ويدل عليه ظاهر الحديث ، أو أعدناه إلى ذات الله تعالى ، فالحديث تأكيد للدلالة القطعية في القرآن . إذ البحث في معرض بيان تكريم الله لآدم منذ أول خلقه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن نعلم بأن الإنسان لم يتنقل خلال تاريخه كله في أي تطور نوعي . كأن يقال إنه ترقى من فصيلة إلى أخرى أو تدرج من مظهر نوعي في الهيئة والشكل إلى مظهر آخر .

وهذا الحكم نتيجة قطعية للأمور الثلاثة التي ذكرناها في خلق الإنسان

وهي :

١ ــ أنه أفضل المخلوقات وأشرفها .

٢ ــ أنه مخلوق من التراب ومتكاثر من آدم عليه الصلاة والسلام .

٣ ــ أنه خلق ( في نشأته الأولى ) في أحسن تقويم[١] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن ننبه على حقيقة مهمّة جدا ، هي أن الله سبحانه ــ قد سكت عن بيان أصل الحيوانات في القرآن الكريم ، أما فيما يتعلق بالإنسان فإنه قد فصل نشأة الإنسان وأصله تفصيلا لا مزيد عليه ، وبين أطوار خلق هذا الأصل ، وأيضا أطوار حياة الإنسان حتى يدخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، الأمر الذي يوحي باستقلال الإنسان عن الحيوانات الأخرى .

وبعد أن عرضنا للخلق والتطور في الكتاب والسنة آن لنا أن ننتقل إلى نظرية التطور عند مفكري الإسلام .

( ١ ) البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ .

# الباب الثالث

# نظرية التطور عند مفكري الإسلام

الفصل الأول : العالم .

الفصل الثاني : الحياة والكائنات الحية .

الفصل الثالث : تفسير التطور .

# « الفصـــل الأول »

# الـعـــالـــم

## أ ــ ما المقصود بالعالم :

المقصود بالعالم عند مفكري الإسلام كل موجود سوي الله تعالي ، وهذا العالم جواهر وأعراض وأكوان وأجسام . أما الجوهر فهو المتحيز ، وأما العرض فهو المعنى القائم بالجوهر ، كالألوان والطعوم والروائح والحياة والموت والإرادات والقدر ، وأما الأكوان فهي الحركات والسكون والاجتماع والافتراق ، وأما الجسم فهو المتألف ، فإذا تألف جوهران كان جسما(١) . ويعرفه حجة الإسلام الغزالي بأنه « مجموع الأجسام الطبيعية كلها »(٢) .

ويقصدون به السموات السبع والأرضين وما بينهما من الخلائق أجمعين ، ويسمونه ــ أحيانا إنسانا كبيرا ، لأنهم يرون أنه جسم واحد بجميع أفلاكه وأطباق سماواته وأمهات أركانه ومولداتها ، ويرون ــ أيضا ــ أن له نفسا واحدة سارية قواها في جميع أجزاء جسمه ، كسريان نفس الإنسان الواحد في جميع أجزاء جسده(٣) .

فالعالم بمثابة حيوان واحد ، وفيه قوة روحية واحدة وهو فائض عن الله سبحانه ، بجميع ما فيه من مباديء مفارقة وغير مفارقة ، والله هو الممسك له والحافظ(٤) .

---

(١) الجويني ( عبد الملك ) : لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥ ــ القاهرة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) الغزالي ( أبو حامد ) : معيار العلم ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ ــ القاهرة ص ٣٠٢

(٣) إخوان الصفا : رسائل ــ طبعة سنة ١٣٠٥هـ ؛ بمباي ، مجلد ٢ ص ١٦

(٤) ابن رشد : تهافت التهافت ــ القاهرة سنة ١٩٦٩ ــ القسم الأول ص ٣٧٦ ــ ٣٧٨

والعالم بأسره كري الشكل وحركات أفلاكه دورية[1] .

على أن هناك ملاحظة يجب الإشارة إليها ، وهي أن بعض مفكري الإسلام قد وقع في خطأ كبير حينما اعتبر أن الكواكب الأخرى غير الأرض هي السماوات فإخوان الصفا ــ مثلا ــ يقولون « إن السموات هي الأفلاك ، وإنما سميت السماء سماء لسموها والفلك لاستدارته ، وأعلم بأن الأفلاك تسعة ، سبعة منها هي السموات السبع وأدناها وأقربها إلينا فلك القمر ، وهو السماء الأولى ، ثم من ورائه فلك عطارد ، وهي السماء الثانية ، ومن ورائه فلك الزهرة وهي السماء الثالثة ومن ورائه فلك الشمس ، وهي السماء الرابعة ، ومن ورائها فلك المريخ ، وهي السماء الخامسة ، ثم من ورائه فلك المشتري ، وهي السماء السادسة ، ثم من ورائه فلك زحل وهي السماء السابعة ... وأما الفلك الثامن فهو فلك الكواكب الثابتة الواسع المحيط بهذه الأفلاك ، وهو الكرسي الذي وسع السماوات والأرض ، وأما الفلك التاسع المحيط بهذه الثمانية فهو العرش العظيم[2] » .

فهؤلاء قد جانبهم الصواب من ناحيتين :

**الناحية الأولى** : أن هناك سبع سموات وسبع أرضين ، كما يؤكد القرآن الكريم هذا ، أما هذه الكواكب التي ذكروها فهي زينة سماء واحدة هي السماء الدنيا .

**الناحية الثانية** : أن العلم الحديث يؤكد أن هناك عوالم أخرى كثيرة كما أثبت أن الكواكب المعروفة أكثر من تعسة .

ويقسم مفكرو الإسلام العالم تقسيمات عدة باعتبارات مختلفة ، فيقسم

---

(١) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥هـ مجلد ٢ ص ١٧ .
(٢) المرجع السابق .

بعضهم جواهر العالم كلها إلى قسمين : أحدهما المبدعات بتمام القدرة الإلهية ، نحو الأفلاك والكواكب والأسطقسات الأربعة ، والثاني : المكونات عنها بالتسخير الإلهي ، وهي المفتنة إلى أقسام ثلاثة :

**أحدها** : الحادث في الجو ، كالثلج والأمطار والرعد والبرق والصواعق والشهب .

**والثاني** : الحادث في المعادن ، كالذهب والفضة والحديد والنحاس والزئبق والرصاص .

**والثالث** : الحادث بين الطرفين ، وهي منقسمة إلى النبات والحيوان[١] .

ويقسمون العالم ـــ أحيانا ـــ إلى بسائط ومركبات ،وروحانيات وجسمانيات ، ومبدعات ومكونات[٢] ، وأحيانا أخرى إلى كليات وجزئيات[٣] .

هذا هو تعريف العالم ، وهذه هي أقسامه ، ولا أحب الخوض هنا في هذه المسألة التي قتلت بحثا ، وهي مسألة قدم العالم وحدوثه .

ولعل القول بالتطور يحل هذه المشكلة القديمة ، فإن التطور يعني أن هناك نقطة بدء وأن هناك ـــ أيضا ـــ نقطة نهاية ، ومادام هناك بدء فإن هناك إذن ـــ حدوثا للكائنات ، والعالم .

### ب ـــ الأجسام وتكونها :

هذا العالم يتكون من أجسام ، لكن من أي شيء تتكون الأجسام ؟

(١) العامري ( أبو الحسن ) : الإعلام بمناقب الإسلام ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ص ٩١ .
(٢) الراغب الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ـــ القاهرة ١٣٢٣ هـ ص ٢١ .
(٣) إخوان الصفا : رسائل طبعة ١٣٠٥ مجلد ٢ ص ١٨ .

الواقع أن المذاهب تتعدد في تكون الأجسام وتختلف ، فمن قائل بأن الأجسام تتكون من ذرات أو أجزاء لا تتجزأ أو جواهر فردة ، ومن قائل بأنها تتكون من مادة وصورة ، ومن قائل بأنها تتكون من ذرات روحية أو قوة باطنة في العنصر .

وأول قائل بمذهب الذرة ، أو الجوهر الفرد ، أو الجزء الذي لا يتجزأ هو أبو الهذيل العلاف من متكلمي المعتزلة[1] . وهذا المذهب جزء من صميم مذهب الأشاعرة ، كما يقول الدكتور « س بينيس » ، فإن المخلوقات عند الأشاعرة تنقسم إلى جواهر أفراد ، سواء أكانت أجساما أم أعراضا ، أم مكانا أم زمانا . وكل حادث يقع في الزمان ، فهو ينقسم إلى أجزاء منفصل بعضها عن بعض تمام الانفصال ، ولا يربط بينهما إلّا إرادة الله عز وجل . والأعراض عندهم لا تبقى زمانين ، أما الأجسام فهي تبقى بأن تخلق في كل وقت[2] .

وبالرغم من أن كلمة « ذرة » مذكورة في القرآن الكريم فإن بعض الباحثين يرجعون استعمالها إلى تأثر العرب باليونانيين والهنود .

على أية حال ، يعد القول بأن الأجسام تتألف من ذرات الفصل الأول من فصول المذهب المادي أو المذهب الآلي ، عند بعض الباحثين ، وإن كان القول به لا يحتم الإلحاد ، بل يحتمل الاعتقاد بوجود خالق للطبيعة .

والحق أن القول بالذرة يرجع إلى اليوناني « ديمقريطس » الذي اعتبر الماء والتراب والنار والهواء فروعا للمادة البحتة المجردة من كل تعيين ، الشبيهة بتلك التي نتصورها في العلم الرياضي حين نفكر في النقطة والخط والجسم ، أي أنها امتداد فحسب ، وارتأي أن هذا الامتداد مؤلف من أجزاء غاية في الصغر حتى إنها لا تدرك بالحواس ، ولا تقسم إلى أصغر منها ، تتحرك في الفضاء

---

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ـــ إستانبول سنة ١٩٣٠ جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٢) بينيس ( د. س ) : مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود ، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة ـــ القاهرة سنة ١٩٤٦ ص ٢ .

وتتقابل على أنحاء شتى لا تحصى ، فتأتلف في مجاميع هي الأجسام المنظورة الملموسة ، وتفترق بفعل الحركة أيضا ، فتنحل الأجسام ليتكون غيرها ، واختلاف الأجسام في خصائها يرجع إلى اختلاف الذرات المؤلفة لها ، عددا وشكلا ومقدارا وترتيبا فالجسم الطبيعي في هذا التصور مثله كمثل الآلة الصناعية ، والمادة ههنا مكتفية بنفسها ، مستغنية عن خالق يوجدها ويطبعها بقوانينها ، بل عن صانع يصور مادة مستقلة عنه سابقة على تصويره الجزئيات وتنظيمها .

هذا هو أصل مذهب الذرة الذي اصطنعة متكلمو الإسلام ، ومن هنا نعته بعض الباحثين بأنه مذهب يؤدي إلى الإلحاد(١) . بينا نعته بعضهم الآخر بأنه مذهب لا يحتم الإلحاد(٢) .

غير أني أرى أنه لا يمكن القول بأن هذا المذهب يحتم الإلحاد إلا إذا قلنا إن هذه الذرات هي التي تحرك نفسها ، وتجتمع وتفترق من تلقاء نفسها ، بالمصادفة ، وأنها مكتفية بنفسها ، ومستغنية عن خالق يوجهها ، ويجمع شتاتها ، ولاسيما أن العلم الحديث قد أثبت أن الذرات هي التي تكون الأجسام وأنها تتجزأ .

والحق أن هناك فروقا دقيقة بين لب النظرية الذرية القديمة ونظرية علماء الكلام المسلمين ، فالأولى منهما ذات طابع مادي على الإطلاق ، إذ هي تجعل الأحداث الطبيعية متوقفة على تصادم الذرات وسبحها ودورانها في دوامة مستمرة كالنبع الجياش في وسط البحر مع خضوعها في الوقت نفسه لقانون طبيعي لا يتخلف ، أما عند المتكلمين فإن الذرات دليل على قدرة الله المطلقة الذي يدبر — في كل حال — هذه الذرات وفق محض إرادته . يضاف إلى هذا

---

(١) قاسم (د. محمود) مقدمة الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد طبعة ثانية القاهرة سنة ١٩٦٤ ص ١٢٠ .
(٢) كرم ( يوسف ) : الطبيعة وما بعد الطبيعة — طبعة ثالثة — القاهرة ص ١٢ .

أن عدد الذرات لا يتناهى عند فلاسفة الذرة من القدماء ومن تبعهم ، كما كانت الذرات أكثر انفصالًا بعضها عن بعض بوساطة الفراغ، أما عند متكلمي الإسلام فعدد الذرات متناه يضبطه الله سبحانه ويدبره ، كما أنهم يتجنبون حتى الحديث عن الفراغ . وزيادة على ما تقدم كانت الذرات في نظر علماء الأغريق أجساما ، جزيئات من المادة في غاية الدقة ، غير قابلة للانقسام إلى أصغر منها ، أما عند متكلمي الإسلام فليست الذرات أجساما ولا أجراما . فالجسم عند العرب يتكون من عدد معلوم من الذرات(١) .

يضاف إلى هذا — أيضا — فرق أساسي بين مذهب الجوهر الفرد عند متكلمي الإسلام ، ومذهب « ديمقريطس » هو أن هذا الأخير يرى أن للمادة كما للجواهر الأفراد التي تتألف منها المادة ، خصائص أساسية معينة تكون ماهيتها ، وهي الصفات الأولية ، بالاصطلاح الحديث ، أما عند متكلمي الإسلام فإن الأعراض ، باعتبار أنها جنس من الموجودات على حدة ، تختلف عن الجواهر المجردة من جميع الصفات حتى الأولية منها ، ويمكن أن تقوم الأعراض عند — المتكلمين — في حل كل مشكلة شائكة ، مقام الصور والكيفيات عند الذين أخذوا بمذهب أرسطو فيما بعد(٢) .

هذا وقد ارتضى القول بالذرة من المسلمين غالبية المعتزلة وجميع الأشاعرة والشهرستاني ، ونفاه فلاسفة الإسلام وابن حزم(٣) .

أما مذهب المادة والصورة فهو مذهب أرسطي اصطنعه فلاسفة الإسلام ابتداء من « الكندي » فيلسوف الإسلام . وهو مذهب يتصور الجسم الطبيعي مركبا من مادة ، ومن مبدأ يرد المادة إلى الوحدة ويعطيها ماهية معينة ويسمى المادة بالمادة الأولى أو الهيولي ، تمييزا لها عن المادة الثانية الداخلة في

---

(١) ميلي ( ألدو ) : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي — الترجمة العربية — الطبعة الأولى — القاهرة سنة ١٩٦٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٢) بنيس ( د. س ) : مذهب الذرة عند المسلمين ص ٨ .

(٣) هويدي (د. يحيى): محاضرات في الفلسفة الإسلامية، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ ص ١٤٠ .

المصنوعات ، ويسمى المبدأ المعين بالصورة .

فعند « الكندي » ، « المباديء التي منها وجود كل شيء اثنان ... وهما الهيولي والصورة[1] » ، وقوام الموجودات عند « الفارابي » من شيئين : « المادة والهيولي ... والصورة والهيئة »[2] .

ويفرق « إخوان الصفا » بين أربعة أنواع من الهيولي ، هي هيولي الصناعة وهيولي الطبيعة ، وهيولي الكل ، وهيولي أولي ، فهيولي الصناعة هي كل جسم يعمل منه وفيه الصانع صنعته ، كالخشب للنجارين ... وأما هيولي الطبيعة فهي الأركان الأربعة .... وأما هيولي الكل فهو الجسم المطلق الذي منه جملة العالم .. وأما الهيولي الأولي فهي جوهر بسيط معقول لا يدركه الحس ، وذلك أنه صورة الوجود حسب »[3] .

والمادة منفعلة فقط ، لأنها موضوعة لقبول الصورة ، والمركب من المادة والصورة فاعل بصورته منفعل بمادته . والمادة منفعلة بالقوة دائما ، والمركب من المادة والصورة فاعل بالقوة تارة ، وبالفعل تارة أخرى . فإن له القوة من جهة الهيولي ، والفعل من جهة الصورة[4] .

ويرى فلاسفة الإسلام أن أصل الكائنات هيولي واحدة ، وخالف الله عز وجل — بينها بالصور المختلفة ، وجعلها أجناسا وأنواعا مختلفة ، متفننة ، متباينة ، وقوى بين أطرافها ، وربط أوائلها وأواخرها بما قبلها رباطا واحدا على ترتيب ونظام ، لما فيه من إتقان الحكمة وإحكام الصنعة ، لتكون الموجودات كلها عالما واحدا ، منتظما نظاما واحدا ، وترتيبا واحدا ، لتدل

---

(١) الكندي : رسائل طبعة ١٩٥٣ ، القاهرة جـ ٢ ص ١٦ .

(٢) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، مكتبة صبيح — القاهرة ص ٢٧ .

(٣) إخوان الصفا : رسائل ، طبعة بيروت مجلد ٢ ص ٦ — ٧ .

(٤) التوحيدي ( أبو حيان ) : المقابسات ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

على صانع واحد[١] .

ولقد رفض فلاسفة الإسلام القول بالجزء الذي لا يتجزأ رفضا قاطعا ، وأوردوا على ذلك أدلة كثيرة ، كما رفضه « النظام » « تلميذ »أبي الهذيل » من المعتزلة ، وقال بالكمون والطفرة[٢] ، وارتضى الفلاسفة القول بالمادة والصورة الذي قال به أرسطو ، غير أنهم خالفوه مخالفة صريحة ، فابن سينا مثلا يبين أن الصور معلولة لواهب الصور ، مخالفا بذلك صريح المذهب الأرسطي الذي يرى أن صور الموجودات تكفي نفسها بنفسها في العلية والمعلولية ، بحيث لا يحتاج إلى تدخل « العقل الفعال » إلا في إعطاء صورة العقل الإنساني ، لأنه مفارق للمادة ، لاستحالة أن يصدر الروحاني عن الهيولاني . ويضيف « ابن سينا » إلى هذا أن الصور علل أيضا ، وأن عليتها مشروطة بملاقاة المواد ، فهي علل لوجود ما تلاقيه دون ما تباينه من المواد الجسمية ، « فالمواد الجسمية يستحيل قوامها بالفعل بلا صورة . فواهب الصور مقومها بواسطة الصور . والصور علل ومعلولة ولكنها علل بالملاقاة ، فإنها توجب وجود ما تلاقيه دون ما تباينه »[٣] .

والواقع أن الخلاف بين المتكلمين والفلاسفة في تكون الأجسام هو خلاف يمكن تضييق فجوته ، لأننا إذا قلنا إن الأجسام تتكون من ذرات أو من جواهر أفراد فإن هذه الذرات أو الجواهر ، لابد لها من مادة وصورة .

أما فيما يتعلق بالمذهب الثالث ، فإننا قد رأينا فيما سبق المذهب القائل بأن الأجسام تتكون من ذرات مادية والآن نرى مذهبا يقابل هذا المذهب . يقول هذا المذهب أن العالم أو الأجسام تتركب من ذرات أو وحدات روحية ،

---

( ١ ) إخوان الصفا : رسائل ، بيروت مجلد ٢ ص ١٦٦ .

( ٢ ) أبو ريدة ( د. محمد عبد الهادي ) : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية ــ القاهرة سنة ١٩٤٦ ص١١٣ ــ ١٢٩ .

( ٣ ) ابن سينا : كتاب الهداية ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ ص ٢٣٧ .

وأن الحياة تسري في كل كائن من كائنات هذا العالم سواء ظهرت لنا أم خفيت علينا .

قال بهذا المذهب « محيي الدين بن عربي » ، وذلك فيما أسماه « الأعيان الثابتة » ، وهي تقابل الذرات المادية عند من أخذ بمذهب « ديمقريطس » ، مع فارق مهمّ ، وهو أن مذهب « ديمقريطس » يقوم أساسا على إنكار وجود الله ، وإنكار خلود النفس والثواب والعقاب في حياة أخرى ، بينما يؤكد « ابن عربي » أن الله هو خالق العالم وأنه حكيم ، وأنه يخلق أفضل عالم ممكن ، وأن هناك ثوابا وعقابا في حياة أخرى .

رفض « ابن عربي » « مذهب أرسطو » ، بل إنه قد وصفه بأنه جاهل[١] كما نقد فكرة الجوهر الفرد عند متكلمي الإسلام ، وبخاصة لدى الأشعرية الذين يصفهم بأنهم في لبس من خلق جديد ، لإنهم لم يفطنوا إلى أن الجواهر الفردة إنما هي ذرات روحية ، وأن جميع خواصها تنبثق من داخلها ، وليست حالات تطرأ عليها ، وأن هذه كانت راكدة فيها قبل أن يمنحها الله نعمة الوجود ، فلما كساها الله حلة الوجود بدأت تدب فيها الحياة وجعلت خواصها الذاتية تتجلى شيئا فشيئا[٢] .

كما يري « ابن عربي » أن الذرات الروحية تخرج من النفس الرحماني كما تخرج الحروف من أنفاسنا نحن . وله بيتان في هذا الصدد يقول فيهما :

كنا حروفا عاليات لم نقل ... متعلقات في ذرا أعلى القلل
أنا أنت فيه ونحن أنت وأنت هو ... والكل في هو فسل عمن وصل

ويلاحظ أن فكرة « ابن عربي » في الحروف موجودة عند كل من «سهل

---

(١) قاسم ( د. محمود ) : دراسات في الفلسفة الإسلامية ـــ الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠ ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٢) قاسم ( د. محمود ) : محيي الدين بن عربي وليبنتز ـــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ ص ١٧٨ .

ابن عبد الله التستري » و « ابن مسرة » في رسالتيهما عن خواص الحروف وأسرارها[1] .

فالذرات الروحية تشبة الحروف أو العناصر الأولية ، فإذا انضمت هذه الذرات الروحية أو العناصر الأولية الروحية بعضها إلى بعض نشأت الأجسام أو الصور المادية . فهذه الحروف العليات أو الوحدات الروحية تتألف فيما بينها بصور شتى . وطبيعي أن الأجسام تختلف عن تلك الوحدات الأولية التي دخلت في تركيبها « فهذا تركيب أعيان العالم المركب من بسائطه . فلا تشهد العين إلا مركبا من بسائط »[2] .

وابن عربي يتبنى رأي « التستري » في هذا الصدد حيث يقول « سهل » « إن الحروف تنقسم إلى الهباء ، وهي أصول الأشياء ... وكلام الله تعالى — أعيان قائمة وأنوار روحانية لائحة ، وهي إرادته ومعلوماته المنفصلة عن غيبه . والقوة المفصلة لها هي ( الكن ) ، وهي المظهرة للكلام ، وهي المحيطة بالهباء والهواء هو الحامل للحروف ، والحروف هي القوة الروحانية المفردة ، وهي أصول الأشياء » فالحروف قد انفصلت عن الغيب بقوله تعالى : « كن » . ويرى « سهل » أن الفصل لها كان على نوعين : بالقول ثم بالفعل ، « فالمقولات كلها روحانيات والمفعولات كلها أجسام ، وأصل الأجسام كلها الماء الذي أحدث منه الأجسام بما يليها ، وهو أول الجواهر الظاهرة . فأما الأرواح كلها ففي الجسم الباطن الخفي ، وهو الروح المحيطة بالماء ، الحامل للكل وهو

---

( ١ ) جعفر ( أ. د. محمد كمال ) : من التراث الصوفي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ جـ ١ ص ٣٨٦ . وقارن له أيضا : من قضايا الفكر الإسلامي طبعة سنة ١٩٧٨ ، القاهرة . ومن الجدير بالذكر أنه قام بتحقيق ونشر هاتين الرسالتين ، مع تحليلهما تحليلا ممتازا والتعليق عليهما تعليقات مفيدة للباحثين في كتابيه سالفي الذكر .

( ٢ ) ابن عربي : الفتوحات المكية طبعة سنة ١٣٢٩ هـ — القاهرة جـ ٣ ص ٥٢٤ .

المكان ، وهو الهواء ، وفيه انبسطت الحروف[٢] » .

ومن المعلـوم أن « ليبنتز » الفيلسوف الألماني ، قد قال بالذرات الروحية ــ أيضا ــ فيما أسماه بالمونادات .

غير أنه يلاحظ على مذهب الوحدات الروحية هذا أنه لا يخبرنا كيف تتحول الذرات الروحية إلى مادة ، ولا كيف يأتي الممتد من غير الممتد . إن هذا ــ في الواقع ــ أمر غامض في هذه النظرية ، مما يجعل الإنسان يتوقف في قبوله لها ، أو موافقته عليها .

وبعد ، فهذه مذاهب ثلاثة في تكون الأجسام ، الأول منها يرد الطبيعة وما فيها إلى قدرة الله ، والثاني منها يجمع بين المادة والروح ، والأخير منها ينكر المادة ويستعيض عنها بالقوة وتصور الإنسان للامتداد الذي ينشأ عن الوحدات أو الذرات الروحية أو « المونادات » .

وقد أوضحت أنه يمكن الجمع بين المذهبين الأولين أما المذهب الأخير فإنه غامض وغير واضح .

## جـ ــ تطور خلق العالم :

إذا فكر عاقل في كيفية حدوث هذا العالم وإبداع الخالق له ، بما فيه من سماوات وأرض وعناصر ونبات وحيوان وإنسان ، فلابد أن يعتقد فيها واحدا من آراء ثلاثة : إما أن يظن ويتوهم أنها أبدعت دفعة واحدة ، وأخرجها الباري ــ تعالى ــ من العدم إلى الوجود على ما هي عليه الآن ، أو يظن ويتوهم أنها

( ١ ) التستري : رسالة الحروف ، ضمن كتاب : من التراث الصوفي ، جـ ١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، وقارن أيضا : جابر بن حيان : رسائل جـ ٢ ص ١٥٤ نشرة « بول كراوس » وكتاب المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي . The Mystical Philosophy of Ibn Arabi, P. 68.

أبدعت على تدريج ، فأخرجت على ترتيب أولا فأولًا إلى آخرها ، على مر الدهور والأزمان ، أو يقول : بعضها دفعة وبعضها على التدريج ، إذ ليس في القسمة العقلية غير هذه الآراء الثلاثة .

أما الرأي الأول الذي يقول بأن الكائنات أحدثت دفعة واحدة بلا زمان فلا يجد لما يقول عليه دليلا من الشاهد فيتشكك فيما يقول .

أما الرأي الثاني الذي يقول بأن الكائنات أبدعت وأخرجت من العدم إلى الوجود على تدريج ونظام وترتيب فهو يجد على ما يقول شواهد كثيرة من الموجودات باستقراء واحد .

أما الرأي الثالث الذي يقول بأن بعض الكائنات أبدع وأحدث دفعة واحدة وبعضها أحدث على التدريج فهو محتاج إلى بيان وشرح وتفصيل ، كما يقول إخوان الصفا .

فأما الأمور الطبيعية فقد أحدثت على التدريج لقوله تعالى : « خلق السموات والأرض في ستة أيام » وأما « الأمور الروحانية فحدوثها دفعة واحدة مرتبة منظمة ، بلا زمان ولا مكان ولا هيولي ذات كيان ، بل بقوله تعالى : « كن » فكان ، والأمور الروحانية الإلهية هي العقل الفعال والنفس الكلية والهيولي والصور المجردة ... ثم اعلم أن الأركان الأربعة متقدمة الوجود على مولداتها كما أن الأفلاك متقدمة الوجود على الأركان ... وعالم الأرواح متقدم الوجود على عالم الأفلاك[١] » .

لهذا قال مفكرو الإسلام بتطور عالم المادة والفكر على مراحل ، كما قالوا بأن الله ـــ عز وجل ـــ هو العلة الأولى ، وأن بين فعله وهذا العالم وسائط[٢] .

---

( ١ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٣ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

( ٢ ) دي بور : مقال عن الخلق بدائرة المعارف الإسلامية .

فالكائنات بدأت بسيطة ثم أخذت في التدرج والتطور إلى أن أصبحت أكثـر تعقيدا ، بمعنى أنه وجدت الكائنات الدنيا ثم وجدت الكائنات العليا فالأعلى وهكذا . يقول الفارابي : « إنما شأنها ( أي الأجسام ) أن يكـون لـها أولا أنقص موجوداتها فيبتديء منه فيترقى شيئا فشيئا إلى أن يبلغ كل نوع منها أقصى كما له في جوهره ، ثم هي في سائر أعراضه ... والأجسام من هذه الأسطقسات مثل النار والهواء والماء والأرض ، وما جانسها ، من البخار واللهيب وغير ذلك ، والمعدنية مثل الحجارة وأجناسها ، والنبات والحيوان غير الناطق والحيوان الناطق »[1] ... ويقول إخوان الصفا : « وكل حيوان هو أتم بنية وأكمل صورة فهو أكثر حاجة إلى أعضاء كثيرة وآلات مختلفة وأدوات معينة في بقاء شخصه ونتاج نسله ، وكل حيوان أنقص بنية وأدون صورة فهو أقل حاجة إلى أعضاء مختلفة وأدوات مفننة في بقاء شخصه ودوام نسله »[2] .

هذا التطور يعني التغيير التدريجي المستمر خلال فترات طويلة من الزمن ، وهو ظاهرة عامة ، فلا نعرف شيئا غير متغير ، فإن « الأمور الطبيعية أحدثت وأبدعت على تدريج ممر الدهور والأزمان ، وذلك أن هيولي الكل أعني الجسم المطلق قد أتي عليه دهر طويل إلى أن تمخض وتميز اللطيف منها من الكثيف ، وإلى أن قبل الأشكال الكرية الشفافة وتركيب بعضها جوف بعض ، وإلى أن استدارت أجرام الكواكب النيرة وركزت مراكزها ، وإلى أن تميزت الأركان الأربعة وترتبت مراتبها ، وانتظمت نظامها[3] » .

هذا الوعاء الزمني الذي حدث فيه الخلق والتطور ، أو ما يمكن تسميته « الأزمنة الجيولوجية » أشار إليه « القزويني » بقوله : « وذهب العلماء إلى أن تكرار الأعوام يري فيه حوادث عجيبة الشكل ، غريبة غير معهودة ،

---

( ١ ) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٢٦ .

( ٢ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ .

( ٣ ) المرجع السابق مجلد ٣ ص ١١٩ .

وبحسب اختلاف الأهوية ، معادن غريبة ، ونبات وأشجار بديعة ربما يصير العامر غامرا ، والغامر عامرا ، والبر بحرا ، والبحر برا ، والسهل جبلا ، والجبل سهلا ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم » .

ويورد « القزويني » قصة رمزية خيالية تعبر عن فكرة التطور التدريجي المستمر أحسن تعبير ، وإن كانت تخطيء في تقدير الزمن الذي يستغرقه التطور ، ويورد هذه القصة عن الخضر عليه السلام الذي قصها لأحد الملوك يقول الخضر : « كنت في اجتيازي مررت بمدينة كثيرة الأهل والعمارة ، سألت رجلا من أهلها : متى بنيت هذه المدينة ؟ فقال : هذه مدينة عظيمة ما عرفنا مدة بنائها لا نحن ولا آباؤنا . ثم اجتزت بها بعد خمسمائة سنة ، فلم أر للمدينة أثراً ، ورأيت هناك رجلا يجمع العشب ، فسألته : متى خربت هذه المدينة ؟ فقال : لم تزل هذه الأرض كذلك . فقلت : أما كانت ههنا مدينة ؟ فقال : ما رأينا هاهنا مدينة ، ولا سمعنا عن آبائنا . ثم مررت بها بعد خمسمائة عام ، فوجدت بها بحرا ، فلقيت هناك جمعا من الصيادين فسألتهم : متى صارت هذه الأرض بحرا ؟ فقالوا : مثلك يسأل عن هذا ؟ إنها لم تزل كذلك . قلت : أما كان قبل ذلك يبسا ؟ قالوا : ما رأيناه ، ولا سمعنا به عن آبائنا . ثم اجتزت بعد خمسمائة عام ، وقد يبست ، فلقيت بها شخصا يختلي ، فقلت : متى صارت هذه الأرض يبسا ؟ فقال : لم تزل كذلك ، فقلت له : أما كان بحر قبل هذا ؟ فقال : ما رأيناه ولا سمعنا به قبل هذا . ثم مررت بها بعد خمسمائة عام فوجدتها مدينة كثيرة الأهل والعمارة ، أحسن مما رأيتها أولا ، فسألت بعض أهلها : متى بنيت هذه المدينة ؟ فقال : إنها عمارة قديمة ما عرفنا مدة بنائها نحن ولا آباؤنا »[١] .

---

(١) القزويني : عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ـــ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٠ ص ٦٥ وقارن : الأستاذ ساطع الحصري : آراء ابن سينا في الجيولوجيا ـــ مقال ضمن الكتاب التذكاري للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا ، طبعة ١٩٥٢ ـــ القاهرة ص ٤٦٢ ـــ ٤٦٣ .

إن هذه القصة الرمزية الخيالية التي ينقلها لنا « القزويني » تدل دلالة واضحة على أن فكرة التطور التدريجي المستمر في الجبال والسهول والبراري والبحار ، كانت منتشرة انتشارا كبيرا بين المفكرين في تلك الأزمان البعيدة ولولا قصر مدة الفترات المذكورة فيها لأمكن القول بأنها تمثل مكتسبات العالم المعاصر أحسن تمثيل وأروعه .

ويصف « أبو الريحان البيروني » العصور أو الأزمنة الجيولوجية بقوله : « ... وعندما ندرس السجلات الصخرية والآثار العتيقة نعلم أن هذه التطورات لابد أن استغرقت دهورا طويلة ، تحت ضغط البرد أو الحر ، الأمر الذي لا نعرف وصفه أو قدره ... فإننا نشاهد الماء والهواء ، حتى في أيامنا هذه ، يشغلان وقتا طويلا في إتمام عملهما . أما التطورات التي طرأت في العصور التاريخية فقد درست وسجلت في الصحائف[١] » .

ويستدل مفكرو الإسلام على هذه الأزمنة الجيولوجية بقوله تعالي : « خلق السموات والأرض في ستة أيام »[٢] وقوله تعالي : وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون »[٣] .

إن مفكري الإسلام يرون أن العالم وما فيه من مخلوقات قد صدر عن الله عز وجل ــ بالتدريج البطيء ، وأن هذه المخلوقات تنتظم في سلك واحد مرتب محكم ، يقول ابن خلدون : « إعلم ، أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته »[٤] .

---

(١) الشحات ( علي أحمد ) : أبو الريحان البيروني ص ١٣٨ ــ ١٣٩ .
(٢) سورة الأعراف ٥٤ .
(٣) سورة الحج ٤٧ .
(٤) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ــ القاهرة ص ٨٨ .

ويقول « ابن مسكويه » : « فأما اتصال الموجودات التي نقول إن الحكمة سارية فيها حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها ، حتى اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر ، فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزا كثيرا على تأليف صحيح ، وحتى جاء من الجميع عقد واحد فهو الذي ننبه عليه بالدلالة بمعونة الله »[1] . ويقول إخوان الصفا : « آخر مرتبة النبات متصلة بأول مرتبة الحيوانية ، وآخر مرتبة الحيوانية متصل بأول مرتبة الإنسانية ، وآخر مرتبة الإنسانية متصل بأول مرتبة الملائكة »[2] .

ويقول « القزويني » : « فأول مراتب هذه الكائنات تراب ، وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فإن المعادن متصل أولها بالتراب والماء وآخرها بالنبات ، والنبات متصل أوله بالمعادن ، وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان ، والنفوس الإنسانية متصل أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية »[3] .

ومعنى أن التطور قائم على الترتيب عندهم أن العناصر وجدت أولا ، ثم المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان . كما يرون أن آخر أفق كل نوع من هذه الكائنات متصل بأول أفق النوع الذي يليه . يقول ابن خلدون : « ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده »[4] .

كما أشار ابن خلدون إلى هذا المعنى في عبارة أكثر وضوحا في فصل من الفصول التي تزيد بها طبعة « باريس » « والتيمورية » عن الطبعات المتداولة

---

( ١ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر طبعة سنة ١٣١٩ هـ بيروت ص ٨٦ .

( ٢ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة بيروت مجلد ٢ ص ١٥٠ — ١٥١ .

( ٣ ) القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ١٣٥ .

( ٤ ) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ص ٨٩ .

في العالم العربي من المقدمة وهو الفصل الذي جعل عنوانه « علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وهو « الفصل الخامس من الباب السادس حسب طبعة باريس » وذلك إذ يقول : « وقد تقدم لنا الكلام في الوحي في أول الكتاب في فصل المدركين للغيب ، وبينا هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينخرم ، وأن الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعدادا طبيعيا ، كما في العناصر الجسمانية البسيطة ، وكما هو في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من الحيوان ، وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية »[1] .

وقد جعل هذا النص الأخير الدكتور « علي عبد الواحد وافي » يرى أن نظرية « ابن خلدون » في التطور تختلف عن نظرية مفكري الإسلام الآخرين من أمثال الفارابي وابن سينا وابن مسكويه وابن طفيل والقزويني وابن عربي وغيرهم ممن قالوا بهذه النظرية . وهذا الاختلاف — في نظر الدكتور وافي — من وجهين :

**الوجه الأول** : أن الرقي عند هؤلاء هو رقي في المرتبة فحسب ، فهم يحاولون ترتيب الكائنات من الأسفل إلى الأعلى ترتيبا عقليا منطقيا أما « ابن خلدون » فيقصد الارتقاء من الناحية العضوية البيولوجية .

**الوجه الثاني** : أنه لم يقل أحد من هؤلاء باستحالة هذه الكائنات بعضها إلى بعض ، أما « ابن خلدون » فقد قرر في عبارات صريحة أن الكائنات من كل مرتبة قابلة بطبعها لأن تستحيل إلى الكائنات الأولى من المرتبة التي تليها ، وأنها قد تستحيل إليها بالفعل . وبهذين الوجهين — في نظر الدكتور وافي —

(١) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة سنة ١٩٦٥ جـ ١ ص ٥١١ .

تقرب نظرية ابن خلدون من نظرية « دارون » ومن تابعه من جماعة الارتقائيين المحدثين ، بقدر ما تبعد عن آراء من عرضوا لهذا الموضوع قبله[1] .

والواقع أن حب الدكتور وافي لابن خلدون ، ومحاولة إنطاقه له بنظرية علمية عصرية ، هو الذي حدا به إلى أن يذهب إلى هذا الرأي . ولكن لا يكفي الحب وحده لإقرار أمر موضوعي ؛ وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ إن الدكتور وافي نفسه قد قرر قبل هذا الكلام مباشرة أن فكرة تقسيم الكائنات إلى مراتب يتصل آخر كل مرتبة منها بأول المرتبة التالية لها ليست من مبتكرات ابن خلدون ، بل قد يسبقه إليها كثير من الباحثين قبله ، واستخدموا بعض العبارات والألفاظ التي استخدمها ، وقسموا الكائنات إلى الأقسام نفسها التي قال بها ابن خلدون[2] .

٢ ــ إن ابن خلدون لم يفعل شيئا أكثر من أنه أتي بما قاله السابقون له ملخصا فقط ، فلم يأت بجديد في الموضوع .

٣ ــ إن كل من تكلم في التطور من مفكري الإسلام قال بأن بعض الكائنات يستحيل إلى بعض ، وقد نقل ابن خلدون عنهم كلامهم .

٤ ــ إن معنى قولهم « استحالة » لا يعني بالضروة انقلاب الأجناس فقد يقصدون باستحالة المعادن إلى نبات ، أن النبات يتغذى على الأرض بما فيها من معادن ، وكذلك استحالة المعادن والنبات إلى الحيوان وكذلك استحالة المعادن والنبات والحيوان إلى الإنسان .

فإذا علمنا هذا ، فلا معنى مطلقا لأن يجعل الدكتور « وافي » ابن خلدون متفردا في نظريته عن سابقيه من مفكري الإسلام الذين حازوا قصب السبق

---

(١) المرجع السابق تعليقه في الهامش .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٥٠٩ تعليق في الهامش .

في هذا الموضوع ، ولم يكن ابن خلدون إلا ناقلا عنهم وملخصا لآرائهم في التطور .

ويعتقد مفكرو الإسلام بأن الكائنات محدثة ، وأن لها غاية ، فهم يرون « لكل كون ونشؤ غاية أولا وابتداء ، وله غاية ونهاية إليها يرتقي ، ولغايتها ثمرة تجتني[1] » . فللتطور — عندهم — ابتداء وغاية ، وهذا يدل على الحدوث ، وفي الوقت نفسه يدل على أن هناك نهاية لهذا العالم .

هذا ، ويمكن القول بأن المبدأ الذي راعاه مفكرو الإسلام في الاعتبار في نظريتهم التطورية ومحاولتهم تفسير أحداث العالم ومكوناته وعناصره ، هو مبدأ الرغبة في الوصول إلى الكمال في الكون ، وكذلك مبدأ الأفضلية والشرف ، فالكائنات « تبتديء من أنقص الحالات وأدونها إلى أتمها وأفضلها ، ويكون ذلك في مر الأزمان والأوقات »[2] « والموجودات الجزئية دائمة في الكون متوجهة نحو التمام ، لأنها تبتديء بالكون من أنقص الوجود متوجهة إلى أتم الوجود ، ومن أدون الأحوال مترقية إلى أشرفها وأتمها »[3] .

فالاتجاه في التطور « إنما هو من البسيط إلى المركب ومن السهل إلى المعقد ، ومن الجزئية إلى الكلية . هذا هو خط التطور ، صعودا في جهة واقترابا محققا نحو الكمال في كل شيء[4] » . ومن هنا فإن التغير الذي يصاحب التطور كان دائما تغيرا هادفا يتوخى الوصول إلى مستويات أعلى وأرقى بكثير .

على أنه يلاحظ أن « سبنسر » في العصر الحديث قد ربط بين مبدأ التقدم

---

(١) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ٣٣٧ .
(٢) المرجع السابق مجلد ٢ ص ٢٧٧ .
(٣) المرجع السابق مجلد ٢ ص ٣٣٠ .
(٤) جعفر ( أ. د. محمد كمال ) : التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص ٢١٠ ، ٢١١ .

ومبدأ التغير حتى إنه ذهب :إلى القول بأن أي تغير هو بالضرورة تغير (تقدمي). فالتغير يسير دائما نحو الأفضل والأصلح ، وهو — عنده « ضرورة مفيدة » . ولكن لم تلبث فكرة التقدم أن تراجعت حتى كادت تختفي تماما في معظم النظريات الأكثر حداثة والتي تنظر إلى الأمور نظرة أكثر « مادية »[1] .

---

(١) أبو زيد ( د. أحمد ) : مقال عن التطور الاجتماعي بمجلة عالم الفكر ص ٩٤٨ .

# « الفصل الثاني »

# الحياة والكائنات الحية

## أ ــ الأجسام وأقسامها :

إن الأجسام التي بحثت في تكونها وتطورها في الفصل السابق ، تنقسم إلى قسمين : غير حية وحية ، أو هي ، كما يقسمها « الجاحظ » ، جماد ونام ، أو « نام وغير نام(١) » فالأجسام النامية هي الحية ، وغير النامية هي غير الحية .

ويقسم « ابن سينا » المركبات إلى ما له صورة لا نفس لها ، ويسمى معدنا ، وما له صورة هي نفس غاذية ونامية ومولدة للمثل ، لا حس ولا حركة إرادية له ويسمى نباتا ، وما له صورة هي نفس غاذية ونامية ومولدة للمثل وحساسة ومتحركة بالإرادة ويسمى حيوانا(٢) .

فهناك فروق بين الكائنات الحية وغير الحية ، فالحي يتمايز من غير الحي بخاصيتين أساسيتين : إحداهما الحركة الذاتية في كافة الأحياء ، أي التغير ظاهريا وباطنيا ، والخروج من القوة إلى الفعل ، لا الحركة المكانية فقط بينما المادة الصرف لا حراك لها إلا بدفع من خارج أو إزالة عائق ، بحيث أن الحي الذي يفقد هذه الخاصية يعتبر ميتا محروما من الحياة . والخاصية الأخرى الإدراك في بعض الأحياء ، والإدراك نفسه فعل أو حركة ومبدأ باعث على الحركة الذاتية طلبا أو هربا . وللكائن الحي قوة باطنة هي علة حياته وأفعاله الحيوية ، هي

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ القاهرة جـ ١ ص ٢٦ .

(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ، طبعة سنة ١٩٤٨ ، القاهرة القسم الطبيعي ــ هامش ص ٢٧٧ .

النفس . والحركة الذاتية مقدمة على الإدراك لوجودها في الأحياء قاطبة ، بل هي لهذا السبب الخاصيةالأساسية للحياة الأرضية . يضاف إلى هذا أن المادة غير الحاصلة على حياة ، متجانسة ، أما الكائن الحي فهو متنوع ، وله عمر ينتهي .

تلك هي أهم الفروق بين الكائنات الحية والكائنات غير الحية ، والذي يهم الباحث هنا هو أن يبين أنه كانت بين المادة غير الحية والكائنات الحية مسافة قد عبرت في الماضي البعيد ، فكيف عبرت هذه المسافة ؟ أو ما هو أصل الحياة ؟ .

## ب ـ أصل الحياة :

إن عدم العلم بماهية الحياة كان سببا في تعدد الآراء والمذاهب في أصل هذه الحياة . فقد نشأت نظريات متعددة تفسر نشأة الحياة على هذه الأرض .

**أما النظرية الأولى** : فهي نظرية التولد الذاتي أو التلقائي ؛ ومعناه أن بعض النباتات والحيوانات تتولد من مادة ليس فيها حياة ، وذلك لما يلاحظه الناس من ظهور بعض الحيوانات فجأة ، كخروج الضفادع من الطين ، « وتلك الضفادع إنما هي شيء يخلق تلك الساعة من طباع الماء والهواء والزمان وتلك التربة على مقادير ومقابلات »[1] . وهذا التولد كان يسمى عند فلاسفة العصر الوسيط بالتولد المشكك .

ويضيف بعض الباحثين إلى التولد الذاتي مبدأ العلية ، وينسبه إلى أرسطو والفلاسفة الإسلاميين .

**والنظرية الثانية** هي نظرية الانتقال أو الأصل الكوني ، وهي نظرية تتفرع

(١) الجاحظ : الحيوان جـ ١ ص ١٥٦ .

إلى نظريتين : الأولى تذهب إلى أن الحياة قد أتت إلى الأرض من كوكب آخر ، والثانية تقول إن الشمس كانت قديما أغنى بالأشعة فوق البنفسجية فكانت أقدر على تركيب المادة الحية .

**أما النظرية الثالثة فهي** نظرية الخلق الخاص ، وهي نظرية تذهب إلى أن الحياة قد ظهرت نتيجة لفعل خاص للخلق هو فعل الله عز وجل .

**والنظرية الرابعة** هي نظرية الانبثاق أو الأصل الأرضي للحياة ، وهي نظرية تذهب إلى أن الحياة قد نشأت من تفاعل مواد الأرض تفاعلات كيميائية معقدة وتحت تأثير قوى طبيعية أدت إلى تكوين البروتينات التي تتكون منها المادة الحية أو « البروتوبلازم » وتذهب هذه النظرية إلى أنه لم يكن للبروتوبلازم في بداية الحياة شكل معين ، ثم تعقدت وتكونت خلايا جسمية كون بعضها الكائنات الأولى ، وواصل بعضها الآخر طريق التطور والرقي مكونا الكائنات الحية العديدة الخلايا المختلفة الأنواع ، ثم نشأت الأنواع المختلفة من الكائنات الحية بفعل الطفرات والانتخاب الطبيعي والوراثة ، لكن الكائنات الحية كلها ترجع إلى أصل واحد في النهاية .

**أما النظرية الخامسة** فهي نظرية البذور الحية والكمون ، وينسب بعض الباحثين « البذور الحية » إلى القديس أوغسطين ، و« الكمون » إلى النظام المعتزلي ، والكمون ، كما يقول « الخوارزمي » في مفاتيح العلوم « هو استتار الشيء عن الحس ، كالزبد في اللبن قبل ظهوره ، وكالدهن في السمسم[1] » . ومن مذهب « النظام » « أن الله — عز وجل — قد خلق الموجودات دفعة واحدة ، على ما هي عليه الآن ، معادن ونباتاً وحيوانا ، وإنسانا ، ولم يتقدم خلق آدم عليه السلام خلق أولاده ، غير أن الله تعالي — أكمن بعضها في

(١) صليبا ( د. جميل ) : المعجم الفلسفي جـ ٢ ص ٢٤٤

بعض ، فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهورها من مكامنها دون حدوثها ووجودها ، وإنما أخذ هذه المقالة من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة ، وأكثر ميله أبدا إلى تقرير مذهب الطبيعيين منهم دون الإلهيين »[1] . ويعد الكمون طريقة في فهم التطور دون تحول نوع إلى نوع آخر ، فلا يولد القمح من الفول ، ولا الإنسان من الحيوان ، ولا العكس[2] . ولهذا حاول بعض الباحثين عقد مقارنة بين نظرية الكمون The Germinal Developments ونظرية التطور Evolution[3] .

أما **النظرية الأخيرة** فهي نظرية « المزاج » أو الامتزاج المتكون من العناصر ، وينسب بعض الباحثين هذه النظرية لابن سينا بخاصة ، مع أنها موجودة لدى غيره من فلاسفة الإسلام . فحقيقة المزاج عند « الفارابي » أنه تغير الكيفيات الأربع عن حالها ، وانتقالها من ضد إلى ضد ، وتلك هي الناشئة من القوى الأصلية ، وتأثير بعضها في بعض حتى يحصل كيفية متوسطة ، حكمة الباري — تعالي — في الغاية ، لأنه خلق الأصول وأظهر منها الأمزجة المختلفة ، وخص كل مزاج بنوع من الأنواع ، وجعل كل مزاج كان أبعد عن الاعتدال سبب كل نوع كان أبعد عن الكمال . وجعل النوع الأقرب من الاعتدال مزاج البشر ، حتى يصلح لقبول النفس الناطقة[4] . ويقول ابن سينا : « أنظر إلى حكمة الصانع بدأ فخلق أصولا ، ثم خلق منها أمزجة شتى ، وأعد كل مزاج لنوع وجعل أخرج الأمزجة عن الاعتدال لأخرج الأنواع من الكمال ، وجعل أقربها من الاعتدال الممكن مزاج الإنسان ،

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، طبعة سنة ١٩٦٤ ، القاهرة جـ ١ ص ٨٥ .

(٢) يوسف كرم وآخرون : المعجم الفلسفي ، طبعة سنة ١٩٦٦ ، القاهرة ص ١٣٨ .

(٣) The notes of Ven Den Bergh on the English Translation of Tahafut Al Tahafut. Vol. II P. 48, London, 1954, and Sarton : Introcuction to the History of Science. I.P. 638, and II PP 61 – 62, Baltimor, 1927.

(٤) الفارابي : عيون المسائل ، طبعة صبيح ص ٧٣ .

لتستوكره[١] نفسه الناطقة »[٢] . ويجمع ابن سينا بين فاعلية المادة والفاعلية السماوية في موضوع آخر فيقول : «وقد يتكون من العناصر أكوان بسبب القوى الفلكية إذا امتزجت العناصر امتزاجا أكثر اعتدالا ، وأولها النبات . فإذا حدثت مادة بدن يصلح أن يكون آلة للنفس ومملكة لها أحدثت العلل المفارقة النفس الجزئية ... فالنفس تحدث كلما يحدث البدن الصالح لاستعمالها إياه »[٣] .

فالمزاج هو اختلاط أو امتزاج أجزاء العناصر بعضها ببعض ، أو هو كما في تعريفات الجرجاني — « كيفية متشابهة تحصل عن تفاعل عناصر منافرة لأجزاء مماسة ، بحيث تكسر سورة كل منها سورة كيفية أخرى وأليق الأمزجة المزاج المعتدل الذي تكون بسائطه متساوية ، كيفا وكما ، حتى يحصل منها كيفية عديمة الميل إلى الأطراف المتضادة[٤] » .

تلك هي النظريات المختلفة في أصل الحياة ، ويمكن إرجاعها جميعا إلى نظريات ثلاث فقط ، هي الخلق الخاص ، والأصل الأرضي ، والأصل الكوني[٥] . ومن الجدير بالذكر القول بأن هذه النظريات كلها ليست إلا اجتهادات لأصحابها ، ولا يستطيع الإنسان الجزم بصحة أي منها ، وكل ما يستطيعه الإنسان هو أن يفضل إحدى هذه النظريات على الأخرى .

---

(١) أي تتخذه وكرا لها .

(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ، القسم الثاني ص ٣٠١ .

(٣) ابن سينا : كتاب النجاة ، طبعة سنة ١٣٣١ هـ القاهرة ص ٢٥٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠١ .

(٤) صليبا ( د. جميل ) : المعجم الفلسفي جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٥) لمعرفة المزيد عن نظريات أصل الحياة يرجع إلى : يوسف كرم : الطبيعة وما بعد الطبيعة ، د. علم الدين كمال : تطور الكائنات الحية مقال بمجلة عالم الفكر ص ٩٥٣ — ٩٥٤ ، وهنترميد : الفلسفة ، أنواعها ومشكلاتها ص ١٠٤ د. إمام عبد الفتاح إمام : مدخل إلى الفلسفة ص ٢٢٤ — ٢٢٧ . د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي .

## جـ ــ تطور الكائنات الحية :

تتفاضل الأجسام الطبيعية بقبول الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها « فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد[١] » وهكذا تتفاضل الكائنات بقبول الصور المختلفة .

ويؤكد مفكرو الإسلام أن جميع الكائنات الحية تحتوي على مبدأ أو قوة تزيد على جسمية هذه الكائنات ، وعلى طبيعة « المزاج » أيضا ، فابن سينا مثلا ــ يقول : « ومعلوم .. أن جميع الأفعال النباتية والحيوانية والإنسانية تكون من قوى زائدة على الجسمية بل وعلى طبيعة المزاج »[٢] .

وعندهم أن كل جنس من الأجناس الثلاثة التي هي النبات والحيوان والإنسان تحته أنواع كثيرة ، فمنها ما هي في أدون المراتب ، ومنها ما هي في أشرفها وأعلاها ، ومنها ما هي بين الطرفين .

والآن يعرض البحث لتطور هذه الكائنات الحية .

### ١ ــ النبات :

النبات هو « كل جسم يخرج من الأرض ويتغذي وينمو[٣] » ، وهذا الاغتذاء والنمو والامتداد في الأقطار هو « الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد[٤] » والمعادن .

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ، بيروت سنة ١٩٦١ ص ٦٨ .
(٢) ابن سينا : النجاة ص ٢٥٧ .
(٣) إخوان الصفا : رسائل طبعة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٠٧ .
(٤) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٦٩ .

وهناك علل أربع لحدوث النبات : علة مادية ، وهي الأركان الأربعة النار والهواء والماء والأرض ، وعلة فاعلة ، وهي قوى النفس الفلكية، وعلة غائية ، وهي غذاء الحيوان ومنفعته ، وعلة صورية ، وهي أسباب فلكية[١] .

ويحدث النبات إذا كان « المزاج » أقرب إلى الاعتدال ، حيث يستعد لقبول النفس النباتية التي لذوات النمو والتغذي ، التي لها ثلاث قوي هي : الغاذية ، والمنمية ، والمولدة[٢] فالنبات يحدث باختلاط أكثر تركيبا من العناصر والأسطقسات وأبعد عنها برتب أكثر[٣] .

والنبات متقدم الكون في الوجود على الحيوانات في الزمان ، لأنه مادة لها كلها ، وهيولي لصورها ، وغذاء لأجسادها ، وهو كالوالدة للحيوان وذلك أنه يمتص رطوبات الماء ، ولطائف أجزاء الأرض .. ثم يحيلها إلى ذاته ، ويجعل من فضائل تلك المواد ورقا وثمراً نضيجا ، ويناول الحيوان غذاء صافيا ، هنيا مريا ، كما تفعل الوالدة بالولد ... فلو لم يكن النبات يفعل ذلك من الأركان لكان يحتاج الحيوان إلى أن يتغذي من الطين صرفا ، ومن التراب سفا ، فاقتضت حكمة الله — تعالي أن يكون النبات واسطة بين الحيوان والأركان حتى يتناول بعروقه لطائف الأركان وعصاراتها ، ويهضمها وينضجها ويصفيها ، ويناول الحيوان لبابها وحبوبها وقشورها وورقها وثمارها وصموغها ونورها وأزهارها ، لطفا من الله تعالي بخلقه ، وعناية منه لبريته ، فتبارك الله أحسن الخالقين[٤] .

وهناك أصول متعددة لأنواع النبات ، يقول إخوان الصفا : « واعلم ... بأن لكل نو ع من النبات أصلا ، فلأصله كيموس ما ، ولا يتكون من ذلك الكيموس ( أي الخلط ) إلا ذلك النو ع من النبات ، وإن كان يسقى بماء

---

(١) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٠٤ .

(٢) ابن سينا : كتاب الهداية ص ٢٠٤ .

(٣) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٣٨ — ٤١ .

(٤) اخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٢٠ .

واحد ، وينبت في تربة واحدة ، ويلقحها نسيم هواء واحد ، وينضجها حرارة شمس واحدة ، فالهيولي الأولى موضوعة لقبول جميع الصور ، ولكن الهيولات الثواني كل واحدة منها لا تقبل الصور إلا بأعيانها مخصوصة ، والمثال في ذلك أن التراب والماء موضوعان لشجرة الحنطة ولشجرة القطن ، ولكن من القطن لا يجيء إلا الغزل ، ومن الغزل الثوب ومن الثوب القميص وغيره فعلى هذا المثال والقياس تختلف أحوال النبات ، وذلك أن رطوبة الماء ولطائف أجزاء الأرض إذا حصلت في عروق النبات تغيرت وصارت كيموسا على مزاج ما ، لا يجيء من ذلك الكيموس والمزاج غير ذلك النوع من النبات ، وكذلك حكم أوراقه ونوره وثمره وحبه »[1] .

أما من حيث « التصنيف » فإن النبات ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية « فمنها ما هي أشجار تغرس قضبانها أو عروقها ، ومنها ما هو زروع تبذر حبوبها أو بذورها ، ومنها ما هي تتكون من أجزاء أركان الأرض إذا اختلطت وامتزجت ، كالكلأ والحشائش ، فهذه الثلاثة الأجناس يتنوع كل واحد منها أنواعا كثيرة من جهات عدة وصفات مختلفة »[2] .

ومن المعلوم أن « الأقسام » هي أعلى طبقة تقسيمية في النبات حسب التشريع الذي أقره مؤتمر علم النبات الدولي في « استوكهولم » عام ١٩٥٠ لنظام التقسيم النباتي[3] .

هذه التقسيمات للنبات توجد لدى كل من « إخوان الصفا » و « ابن مسكويه » مع اختلاف بينهما في الترتيب ، إذ يمضي « ابن مسكويه » في بحثه على قاعدة التقسيم الأولى التي يعتمد عليها المؤلفون العصريون في كتابة مؤلفاتهم في هذا العصر ، فهو يقسم مرتبة النبات ثلاث مراتب متباينة ،

(١) المرجع السابق مجلد ٢ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق مجلد ٢ ص ١٠٧ .
(٣) عاشور ( د. محمد عبد القادر ) وآخر : محاضرات في علم النبات ــ جامعة القاهرة ص ١ .

ويذكر « أن لكل مرتبة من هذه المراتب غرضا كبيرا » ، ذلك برغم تمييزه بين الحيوان والنبات في الترتيب الزماني ، فيذكر أن النبات أسبق بالوجود من الحيوان ، لأن حركة أثر النفس ، أي الحياة في النبات كانت أول ما ظهر في الأرض بعد امتزاج عناصرها الأولى[1] .

فالتطور في النبات يبدأ بوجود النفس ، وذلك « أن أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز ( أي مركز النشوء ) بعد امتزاج العناصر الأولى ، أثر حركة النفس في النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء ، وللنبات في قبول هذا الأثر غرض كثير ومراتب مختلفة لا تحصى ، إلا أنا نقسمه إلى ثلاث مراتب ، وهي الأولى والوسطى والآخرة ، ليكون الكلام عليه أظهر ، وأن لكل مرتبة من هذه المراتب غرضا كثيرا ، وبين المرتبة الأولى والوسطى مراتب كثيرة[2] » .

فهم يقسمون النبات إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، وكل قسم منها يرتبونه ترتيبا تطوريا داخليا ، وفي الوقت نفسه كل قسم منها يعد مرتبة في التطور ، فأول القسم الأول منها في أفق الجماد ، وآخر قسم منها في أول الحيوان ، وأدنى المراتب هي مرتبة « خضراء الدمن » وأشباهها وهي قريبة من الجماد ، وأعلى الرتب وأرقاها هي شجرة النخل ، وهي قريبة من الحيوان .

فأدني المراتب في قبول أثر النفس هي لما نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذر ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش ، وذلك أنه في أفق الجماد ، والفرق بينهما هو هذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة في قبول أثر النفس[3] .. وهذا النوع من النبات يكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ،

---

(١) مظهر ( إسماعيل ) : مقدمة ترجمة كتاب أصل الأنواع لدارون ص ٩ .

(٢) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٦ — ٨٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٧ .

فلذلك هو في أفق الجمادات وقريب الحال منها[1] . ومن هذا النوع خضراء الدمن والكمأة ، وخضراء الدمن وغيرها ليست بشيء « سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم تصيبه الأمطار وأنداء الليل فتصبح بالغدوات خضراء كأنها نبت زرع وحشائش فإذا أصابها حر الشمس نصف النهار جفت ، ثم يصبح من غد مثل ذلك[2] » وهذا النوع يعد معدنا نباتيا أو نباتا معدنيا .

وهذا القسم يشبه أقسام الطحالب والفطريات في أحدث نظام لتقسيم المملكة النباتية وهو نظام بولد ( Bold, 1957 ) وفيه تنقسم النباتات إلى أربعة وعشرين قسما تتدرج في الرقي من الطحالب إلى النباتات الراقية[3] .

فالفطريات هي النباتات التي تتكاثر بوساطة الخلايا الجرثومية التي يقول فيها علماء النبات المحدثون إنها قسم عظيم من أقسام العالم النباتي تحتوي على الفطريات والطحالب وغيرها من نباتات بسيطة التركيب ( الثالوسيات ) وتتركب من خلية واحدة ، أو من جرم من الخلايا المتصلة تتكون من طبقة أو طبقتين أو أكثر من الأنسجة الخلوية ، ولا يتميز فيها الجذر من الساق أو الورق ، ويقولون بأن الجرم الخلوي عبارة عن جرم من الأنسجة الخلوية يتركب عادة من طبقتين أو اكثر من الطبقات التي تكون مسطحة ، وفي بعض الأحيان تكون أفقية أو مستطيلة أو متفرعة ، ومنها تتكون مادة النباتات ذوات الخلايا الجرثومية ، وأدت بهم بحوثهم إلى أن هذه النباتات تمثل في تركيبها أبسط الصور النباتية ، لأنها تتركب من جرم خلوي فيه أجهزة التناسل ، وأنه إذا ظهر في أنواع هذه الطائفة ما يشبه الأوراق فإنها لا تكون حائزة لصفات الأوراق النباتية الحقيقية ، لأن بعض نباتاتها إن كان لها ما يشبه الساق في طول مكثه

---

( ١ ) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٦٩ .

( ٢ ) إخوان الصفا : رسائل ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١١٢ .

( ٣ ) عاشور ( د. محمد عبد القادر ) وآخر : محاضرات في علم النبات ص ٣ .

ومتانته ، فإنه يتركب من أنسجة خلوية ليس لها شيء من صفات الألياف الخشبية[1] .

تلك هي نباتات هذا القسم التي قال عنها « ابن مسكويه » إنها تشترك في الحد مع الجماد ، ولا تمتاز عنه إلا بما أسماه « أثر النفس » ويقصد به الحياة الحيوانية ، ويقول فيها المحدثون من علماء النبات إن أوراقها لا تكون حائزة لصفات الأوراق النباتية الحقيقية .

ثم يترقى هذا القسم شيئا فشيئا ، ويقوي أثر النفس في نبات آخر يليه في الشرف « إلى أن يصير له من القوة في الحركة إلى أن يتفرع وينبسط ويتشعب ويحفظ نوعه بالبذر ، ويظهر فيه من أثر الحركة أكثر مما يظهر في الأول[2] ، وهذا القسم يفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب ، حتى يظهر فيه قوة الإثمار وحفظ النوع بالبذر الذي يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله »[3] .

ثم يظل النبات يترقى ، شيئا فشيئا ، ويزداد أثر النفس « ولا يزال هذا المعنى يزداد في شيء بعد شيء ظهورا إلى أن يصير إلى الشجر الذي له ساق وثمر ، ويحفظ به نوعه ، وغراس يصونه بها ، بحسب حاجته إليها ، وهذا هو الوسط من المنازل[4] » ، ويقصد « ابن مسكويه » بهذه المرتبة مرتبة الحشائش والأعشاب[5] .

هذه المرتبة الوسطى متدرجة أيضا ، فأولها « متصل بما قبله ، وهو في أفقه ،

(١) مظهر ( إسماعيل ) : مقدمة ترجمة كتاب أصل الأنواع ص ٩ .
(٢) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٧ .
(٣) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٦٩ .
(٤) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٧ .
(٥) مظهر ( إسماعيل ) : مقدمة ترجمة أصل الأنواع ص ١٠ .

وهو ما كان من الشجر على الجبال ، وفي البراري المنقطعة وفي الغياض وجزائر البحار ، لا يحتاج إلى غرس ، بل ينبت لذاته وإن كان يحفظ نوعه بالبذر ، وهو ثقيل الحركة بطيء النشوء ، ثم يتدرج من هذه المرتبة ويقوي هذا الأثر فيه ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهي إلى الأشجار الكريمة ، التي تحتاج إلى عناية من استطابة التربة واستعذاب الماء والهواء لاعتدال مزاجها ، وإلى صيانة ثمرتها التي تحفظ بها نوعها ، كالزيتون والرمان والسفرجل والتفاح والتين وأشباهها »[١] وهذه الأنواع وأشباهها ، وإن كانت في أفق الحيوان « إلا أنها ــ بعد ــ مختلطة القوى ، أعني أن قوى ذكورها وإناثها غير متميزة ، فهي تحمل وتلد المثل ، ولم تبلغ غاية أفقها الذي يتصل بأفق الحيوان »[٢] .

وتلك هي المرتبة الثالثة عند ابن مسكويه ، ويقصد بذلك النباتات كاسيات البذور من مرتبة ذوات الفلقتين ، حسب التقسيم الذي يجري عليه المحدثون من علماء النبات .

ثم يرق النبات ، ويقوى فيه أثر النفس ، إلى أن ينتهي إلى « رتبة الكرم والنخيل ، فإذا انتهى إلى ذلك صار في الأفق الأعلى من النبات وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له صورة النبات ، وقبل حينئذ صورة الحيوان »[٣] .

فالنخل آخر المرتبة النباتية ، مما يلي المرتبة الحيوانية « وذلك أن النخل نبات حيواني ، لأن بعض أحواله مبائن لأحوال النبات ، وإن كان جسمه نباتا . بيان ذلك أن القوة الفاعلة منفصلة من القوة المنفعلة ... فأما سائر النبات فإن القوة الفاعلة منه ليست بمنفصلة من القوة المنفعلة بالشخص بالفعل »[٤] .

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٧ ــ ٨٨ .
(٢) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٦٩ ــ ٧٠ .
(٣) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٨ .
(٤) إخوان الصفا : رسائل طبعة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١١٢ .

وقد بلغ النخل من شرفه على النبات أن فيه نسبة قوية من الحيوان ومشابهة كثيرة منه ، والدليل على ذلك « أن الذكر متميز عن الأنثى ، وأنه يحتاج إلى التلقيح ليتم حمله ، وهو كالسفاد في الحيوان ، وله مع ذلك مبدأ آخر غير عروقه وأصله ، أعني الجمار الذي هو كالدماغ من الحيوان ، فإن عرضت له آفة تلف ، وليس كذلك سائر الأشجار ، لأن لتلك مبدأ واحداً ، وهو الأصل الثابت في الأرض ، فما دام ذلك ثابتا على حاله لم تعرض له آفة فهو باقي الحياة ، وبزر النخل الذي يسمى طلعا وبه تلقح النخلة شبيه الرائحة ببزر الحيوان ... وإلى هذا المعنى يتوجه ( قول النبي ﷺ ) : ( أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من بقية طينة آدم عليه السلام[1] وأيضا لطلع النخل غلاف كالمشيمة التي يكون فيها الولد ، وإذا تقاربت ذكور النخل وإناثها حملت حملا كثيرا لأنها تستأنس بالمجاورة ، وإذا كانت ذكورها بين إناثها ألقحتها بالريح ، وربما قطع إلف النخلة من الذكور فلا تحمل لفراقه وإذا دام شربها للماء العذب تغيرت . ويعرض للنخل أمراض مثل أمراض الإنسان ، منها الغم ، والعشق ، وهو أن تميل شجرة إلى أخرى ويخف حملها وتهزل ، ومن أمراضها — أيضا — منع الحمل ، وسقوط الثمرة بعد الحمل[2] .

ومن هنا يظهر أن النخل نباتي بالجسم حيواني بالنفس ، « إذ كانت أفعاله أفعال النفس الحيوانية ، وشكل جسمه شكل النبات[3] فإذا بلغ النبات إلى هذه المرتبة صار في أفق الحيوان « ولم يبق بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة ، وهي الانقلاع من الأرض والسعي إلى الغذاء .. فإذا تحرك النبات وانقلع من أفقه وسعى إلى غذائه ، ولم يتقيد في موضعه إلى أن يصير إليه غذاؤه ، وكونت له آلات آخر يتناول بها حاجاته التي تكمله ، فقد صار

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ٨٨ — ٨٩ .
(٢) ابن الوردي : فريدة العجائب وفريدة الرغائب ، القاهرة سنة ١٩٣٩ ص ١٧٥ .
(٣) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١١٢ .

حيوانا[١] » وقد بان بما وصفنا أن آخر المرتبة النباتية متصل بأول مرتبة الحيوانية ، وأما سائر المراتب النباتية فهي بين هذين[٢] .

تلك هي حالات التطور في النبات ومراتبه ، والأساس فيها هو النفس النباتية ، وهذه النفس لها سبع قوى فعالة ، وكل قوة من هذه القوى تفعل شيئا خلاف ما تفعل القوة الأخرى . وهذه القوى هي : القوة الجاذبة ، والقوة الماسكة ، والقوة الهاضمة ، والقوة الدافعة ، والقوة الغاذية ، والقوة المصورة ، والقوة النامية ، « فأما أول فعلها في تكوين النبات فهو جذبها عصارات الأركان الأربعة ، ومصها لطيفها وما فيها من الأجزاء المشاكلة لنوع نوع من أصول النبات ، ثم إمساكها بالقوة الماسكة ، ثم نضجها لها بالقوة الهاضمة ، ثم دفعها إلى أطرافها بالدافعة ، ثم تغذيتها لها بالغاذية ، ثم النمو والزيادة في أقطارها بالنامية ، ثم التصوير لها بأنواع الأشكال والأصباغ بالمصورة ... فهذه الأفعال التي ذكرناها كلها أفعال النفس النباتية الخادمة للنفس الحيوانية ، المتوسطة بينها وبين الأركان الأربعة »[٣] .

وهكذا يتبين لنا مما سبق تفصيله أن التطور في النبات قد تم على مراحل أو مراتب كل مرتبة أعلى وأرقى من التي سبقتها ، وأن لكل مرتبة طرفين : طرفا أدنى يتصل بالمرتبة التي دونه ، وطرفا أعلى يتصل بالمرتبة التي فوقه ، وهناك واسطة بين كل طرفين .

هذا ويرى « الدكتور عمر فروخ » أن مفكري الإسلام قد جانبهم الصواب في بعض الأمور ، منها أنهم عدوا النخل أعلى مرتبة في النبات ، لأنهم أخذوا بصورة النخل واعتقاد الناس فيه . ويقول « الدكتور فروخ » إن النخل

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٧٠ .

(٢) إخوان الصفا : رسائل طبعة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١١٢ .

(٣) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٠٥ ــ ١٠٦ .

من ذوات الفلقة الواحدة ( في بزرها ) في النبات وهذه أدنى في سلم التطور من النبات الذي من ذوات الفلقتين . كما أنهم عدوا « خضراء الدمن » من الفطر ، والواقع أن خضراء الدمن نبتة جميلة قوية ناضرة . وفيما عدا هذا فإنه يمكن القول بأن الاتجاه العام في التطور ــ عندهم ــ صحيح جدا ، كما أن رأيهم في لقاح النبات صحيح وواضح ، وبينما كان أرسطو ينكر ذلك[1] .

غير أنني عندما رجعت إلى كلام المختصين في علوم النبات من المحدثين وجدت أن بعضهم يرى أن النباتات ذوات الفلقتين أكثر بدائية من ذوات الفلقة الواحدة ، وأن بعضهم يرى أن ذوات الفلقة الواحدة أكثر بدائية من ذوات الفلقتين . فبينما يعتبر كل من «هتشسون» و « بس » أن ذوات الفلقة الواحدة مشتقة من ذوات الفلقتين ، يعتبر « إنجلر » أن ذوات الفلقة الواحدة أكثر بدائية من ذوات الفلقتين[2] .

## ٢ ــ الحيوان :

عندما يعتدل المزاج أكثر من اعتداله الذي كان في النبات يستعد لقبول أمر أكمل من ذلك ، وهو « النفس التي تكون منمية حيوانية ، لا نباتية فيكون له ــ إلى أفعال النفس المذكورة أن يتحرك بالإرادة عن قوة تستدعي جلب لذيذ وملائم أو ضروري ، وهي الشهوانية ، أو دفع ضار ، وهي الغضبية »[3] .

فحينما يرقى النبات من منزلته الأخيرة فإنه لا يبقى إلا أن ينقلع من الأرض ، ولا يحتاج إلى إثبات العروق فيها ، بما يحدث له من التصرف بالحركة الاختيارية ، وهذه هي الرتبة الأولى من الحيوانية ، وهي رتبة ضعيفة لضعف أثر الحس

---

(١) فروخ ( د. عمر ) : تاريخ العلوم عند العرب . بيروت سنة ١٩٧٠ ص ٢٩٢ ، ٢٦٠ .
(٢) قسم النبات الزراعي بكلية الزراعة ــ جامعة القاهرة . محاضرات في النبات العام ص ٩ .
(٣) ابن سينا : كتاب الهداية ص ٢٠٦

فيها ، إذ يوجد في هذه الرتبة من الحيوان ما له حس واحد « وهو الحس العام الذي يقال له حس اللمس ، وذلك كالصدف وأنواع الحلزون ( نوع من الديدان يكون بين الصخور على سواحل البحار وشواطيء الأنهار ) .. وإنما تعرف حيوانيته ويعلم أنه ذو حس واحد من أجل أنه إذا استلب من موضعه بسرعة وعلى عجلة وخفة فارق موضعه واستجاب للأخذ ، وإن أخذ بإبطاء ، وعلى ترتيب لزم موضعه وتمسك به ، لتشبثه به ، وهو يضعف عن التنقل وإن كان قد انقلع عن الأرض ، وصارت له حياة ما ، لأنه في الأفق القريب من النبات ، وفيه مناسبة منه »[١] .

هذه الرتبة هي أول الأفق الحيواني[٢] ، وهذا النوع حيوان نباتي ، فهو نبات لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات ، ومن حيث أنه يتحرك حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوان[٣] . « وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية ، وبدنه متخلخل ، وجلده رقيق ، وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ... وهو سريع التكوين وسريع الهلاك والفساد والبلى »[٤] .

ويلاحظ أن هذه الرتبة تنطبق على الحيوان ذي الخلية الواحدة المعروف باسم « أميبا Amoeba » في علم الحيوان الحديث .

ثم يرقى الحيوان في رتبته الثانية إلى « أن ينتقل ويتحرك وتقوى فيه قوة الحس ، كالدود وكثير من الفراش والدبيب[٥] » . والحيوان في هذه الرتبة له

( ١ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٩ .
( ٢ ) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ص ٨٩ .
( ٣ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١١٣ .
( ٤ ) المرجع السابق مجلد ٢ ص ١٢٢ .
( ٥ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨٩ .

حاستان فقط ، هما حاسة الذوق وحاسة اللمس[1] . وهو في هذه الرتبة أتم بنية وأكمل صورة .

وفي الرتبة الثالثة يرتقي الحيوان ، ويقوى أثر النفس إلى أن يصير من الحيوان الذي له ثلاث حواس ، كالخلد ( حيوان يعيش في باطن الأرض وقعر البحر وليس له عينان ) وما أشبهه[2]، وهذه الحواس الثلاث هي اللمس والذوق والشم[3]، وهي للحيوانات التي تعيش في قعر البحر والمواضع المظلمة .

ويرتقي الحيوان من ذلك إلى أن يصير له حس من البصر ضعيف ، كالنمل والنحل والحيوان الذي عيونه تشبه الخرز وليس له أجفان ولا ما يستر أحداقه[4] . وهذه هي الرتبة الرابعة من الحيوان ، وفيها يوجد من الحيوان ما له « لمس وذوق وسمع وشم وليس له بصر[5] » وهو كل حيوان من الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة .

أما الرتبة الخامسة والأخيرة في ارتقاء الحيوان فهي رتبة الحيوان الكامل في الحواس الخمس « وهي مع ذلك متفاوتة المراتب : فمنها البليدة الجافية الحواس ، ومنها الذكية اللطيفة الحواس التي تستجيب للتأديب وتقبل الأمر والنهي وتستعد لقبول أثر النطق والتمييز ، كالفرس والبهائم ، والبازي من الطير . ثم يقرب من آخر مرتبة البهائم وإن كانت شريفة فهي خسيسة دنية بعيدة من مرتبة الإنسان ، وليس بينها وبينه إلا اليسير الذي إن تجاوزه صار إنسانا[6] » .

فالمرتبة التي قبل الإنسان هي مرتبة « عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ، ولم ينته إلى الفكر والروية بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الإنسان[7] » . « وليست القردة فقط هي المرتبة الحيوانية التي تلي مرتبة

---

( ١ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٢٣ .

( ٢ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٩٠ .

( ٣ ) إخوان الصفا : رسائل ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٢٣ .

( ٤ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٩٠ .

( ٥ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٢٣ .

( ٦ ) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٩٠ .

( ٧ ) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ص ٨٩ .

الإنسانية في الرقي ، بل هناك أنواع أخرى » وذلك أن رتبة الإنسانية لما كانت معدنا للفضائل وينبوعا للمناقب لم يستوعبها نو ع واحد من الحيوان ، ولكن عدة أنواع ، فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة جسده مثل القرد ، ومنها ما قارب بالأخلاق النفسانية ، كالفرس في كثير من أخلاقه .. ومثل الفيل في ذكائه وكالببغاء والهزار ونحوهما من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات .. إلى ما شاكل هذه الأجناس وذلك أنه ما من حيوان يستعمله الناس ويأنس بهم إلا ولنفسه قرب من نفس الإنسانية »[1] .

هذه هي حالات التطور في الحيوان ، وهي تبدأ — كما تبين — بالحيوان ذي الخلية الواحدة ، أو ما له حاسة واحدة هي حاسة اللمس ، والحيوان في هذه الحالة قريب من النبات ، ولذلك فهو يعد حيوانا نباتيا ، ثم يترقى هذا النوع إلى أن يصبح له حاستان فقط ، هما حاستا اللمس والذوق ، ثم يرتقي حتى يصير له ثلاث حواس هي اللمس والذوق والشم ، ثم يرتقي إلى أن يصير له مع هذه الحواس حس رابع هو السمع ، ثم يرتقي إلى أن يصير له مع هذه الحواس الأربع حس خامس هو البصر ، وبذلك يكون الحيوان كاملا في في حواسة الخمس ، غير أن هذه الرتبة الأخيرة متفاوتة ، فمنها البليدة الجافية الحواس ، ومنها الذكية اللطيفة الحواس ، حتى تصل إلى أقرب مرتبة إلى الإنسان وهي مرتبة القردة وأشباهها من الحيوانات التي قاربت الإنسان من حيث الشكل والخلق ؛ فالرتبة الأخيرة من الحيوان التي قبل الإنسان هي رتبة ما له حواس خمس كاملة ، وهذه الرتبة تتفاضل فيما بينها في الجودة والدون ، على حسب ما ذكرنا .

### ٣ — الإنســـان :

عندما يزداد المزاج اعتدالا تنبجس إليه صورة النفس الإنسانية « وهي التي — مع أنها نفس غذاء ونمو وحس وحركة — هي أيضا نفس نطق فكان

(١) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١١٤ .

باجتماعها مع المتفرق[1] ، الإنسان[2] » .

فحينما يتجاوز الحيوان في رقيه مرتبة القرود وأشباهها ، ويصل إلى مرتبته الإنسانية ، تنتصب قامته ، « ويظهر فيه من قوة تمييز الشيء اليسير فضل تمييز واهتداء إلى المعارف ، ويقوى فيه أثر النفس ، ويقبل التأديب بالفهم والتمييز ، وهذا الأثر وإن كان شريفا بالإضافة إلى ما دونه من رتب البهائم فهو خسيس دنيء جدا بالإضافة إلى الإنسان الكامل النطق[3] » وهذه هي المرتبة الأولى في الإنسانية ، وهي في أفق البهيمة .

ثم يرقى الإنسان ويزيد فيه أثر النطق « إلى أن يصير بحيث تراه من الذكاء والفهم والتيقظ للأمور ، والكيس في الصناعات واستخراج غوامض العلوم ، والاتساع في المعارف ، ثم يقع التفاوت في هذه الرتبة منها إلى حيث يوماً إلى الواحد بعد الواحد ، في سرعة الهاجس وقوته ، واستقامة النظر وصحة الفكر وجودة الحكم على الأمور الكائنة والإخبار بالأحوال المستقبلة حتى يقال : فلان ألمعي ، وفلان محدس ، وكأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق . فإذا بلغ الإنسان هذه الرتبة فقد قارب البلوغ إلى أفقه الذي يتصل به إلى أفق الملائكة ، أعني الوجود الذي هو أعلى من الوجود الإنساني ولم يبق بينه وبين مرتبة عليين إلا درجات يسيرة »[4] .

ويقول « ابن مسكويه » في موضع آخر إنه لا يقف التدرج عند أفق الإنسان ، بل يتفاضل الناس بين أمم لا تتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة وأمم « تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم فيحدث فيهم

---

(١) أي العناصر والكيفيات المختلفة المتضادة التي يتكون منها المزاج والتي ما كان لها أن تجتمع وتلتئم دون قوة تجمع شتاتها وتحفظ التئامها وهي النفس .

(٢) ابن سينا : كتاب الهداية ص ٢١٦ .

(٣) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٩٠ .

(٤) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٩١ .

الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالإرادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل إلى آخر أفقه . فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهي أعلى مرتبة الإنسان ... وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذي يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هي التي قيل في حدها : إنها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهي إليها بعينها . ودائرة الوجود هي المتأحدة التي جعلت الكثرة وحدة ، وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على وحدانية موجدها وحكمته وقدرته وجوده ، تبارك اسمه وتعالى ، وتقدس ذكره »[1] .

ثم يقول ابن مسكويه مخاطبا طالب المعرفة : « وإذا تصورت قدر ما أومأنا إليه ، وفهمته ، اطلعت على الحالة التي خلقت لها وندبت إليها ، وعرفت الأفق الذي يتصل بأفقك ، وتنقلك في مرتبة بعد مرتبة ، وركوبك طبقا عن طبق ، وحدث لك الإيمان الصحيح ، وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكنونة التي مبدؤها تعلم المنطق ، فإنه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطباعها ، ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية ، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل ، وعطاياه ، فيأتيك الفيض الإلهي فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية ، وتلحظ المرتبة التي ترقيت فيها أو لا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها في وجودها وعلمت أن الإنسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يحصل له ما قبله ، وأنه إذا صار إنسانا كاملا ، وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما حكيما تاما ، تأتيه الإلهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٧٤ .

والتأييدات العلوية في التصورات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا ، يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل[١] .

تلك هي مراتب تطور الإنسان ، ويلاحظ أن الانتقال من المشابهة بالجسد إلى المشابهة بالنفس عند مفكري الإسلام يشبه احتراس النشوئيين المحدثين عندما يفرقون بين الإنسان من جانبه الحيواني ، والإنسان من جانبه الوجداني أو الروحي . كما يصحح « الخازني » ما لعله يسبق إلى الوهم من القول بتدرج الكائنات ، إذ يخيل إلى الجاهلين بمعناه أنه يعني تنقل الكائنات في درجة درجة من مراتبه المترقية ، وإنما حقيقته أننا إذا قلنا إن الإنسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا « فليس معنى ذلك أنه كان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا حتى صار في النهاية إنسانا »[٢] .

(١) المرجع السابق : ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) العقاد ( عباس محمود ) : الإنسان في القرآن ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

وقارن : حسن حسين : مقدمة ترجمة كتاب فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء لإرنست هيكل ص ٥٦ . الطبعة الثانية سنة ١٩٢٤ ، القاهرة .

# « الفصــل الثالــث »

# تفسـيـر التـطـور

## ١ ــ فلسفة التقسيم :

اتضح لنا من عرض حالات التطور في النبات والحيوان والإنسان ، أن مفكري الإسلام يقسمون الكائنات الحية لأنواع ورتب ، وقد يوحي ترتيب الأقسام بأن هذه الكائنات قد نشأت بوساطة التحور ، كل من المرتبة التي تسبقه ولكننا في الواقع لا نستطيع أن نجزم مما سبق عرضه بأن مفكري الإسلام يقولون بتحول الكائنات بالمعنى الذي ذهب إليه « دارون » من بعد . وكل ما نستطيعه هو أن نقول إن التطور عند مفكري الإسلام نوع من الترتيب والتقسيم والتصنيف يعتمد على أفضلية الكائنات وشرفها دون أن نذهب إلى القول بأنهم « دارونيون » فعلا .

فهم قد قسموا الكائنات النامية إلى حيوان ونبات، وقسموا الحيوان إلى ثدييات وطيور وأسماك وزواحف ، وقسموا الثدييات إلى إنسان وبهائم وسباع وحشرات[١] .

ثم قسموا الطير إلى ثلاثة أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أنواع وهناك من الطير ما هو مشترك بين نوعين . كما أن هناك من الحيوانات ما هو مشترك أيضا بين نوعين[٢] .

وهم يقسمون الحيوان باعتبارات مختلفة ، فيقسمونه إلى فصيح وأعجم[٣] .

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ١ ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٨ ــ ٣١ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢ .

والفصيح هو الإنسان . ويقسمونه إلى نتاج وتكوين[١] . والنتاج من مماسة الأجسام بعضها ببعض والتكوين من امتزاج الطبائع بعضها ببعض . وهناك تقسيم آخر للحيوانات ، حيث تقسم إلى : تامة كاملة ، وهي كل حيوان ينزو ويحبل ويرضع ويربي الأولاد ، وناقصة وهي كل حيوان يسفد ويبيض ويفرخ ، ومتولدة من العفونات ، وهي كل حيوان لا يسفد ولا يبيض ولا يلد ولا يعيش سنة كاملة[٢] .

كما أنهم يرون أن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخلق ، وذلك أنها تتكون في زمان قصير ، والتي هي التامة الخلقة تتكون في زمان طويل[٣] . وحيوان الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان ، لأن الماء قبل التراب والبحر قبل البر في بدء الخلق والحيوانات كلها متقدمة الوجود على الإنسان بالزمان ، لأنها له ولأجله ، وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم الوجود عليه[٤] .

ولقد عقدوا مقارنات عديدة تبين المشابهة التي بين الإنسان والطير وبين الإنسان والحيوان في الناحيتين : النفسية والتشريحية[٥] . فقارنوا بين الإنسان والحمام ، وقارنوا بين الإنسان والقرد والفرس وبعض الحيوانات الأخرى . وهم يستدلون من ذلك على وحدة الخلق .

---

( ١ ) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ٣٧٦ .
( ٢ ) المرجع السابق : مجلد ٢ ص ١٢٨ .
( ٣ ) المرجع السابق : مجلد ٢ ص ١٢٠ .
( ٤ ) المرجع السابق مجلد ٢ ص ١٢١ .
( ٥ ) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ١ ص ١٠٦ ، ١١٠ ، ١٩٤ ، جـ ٢ ص ٣٥٥ وقارن : ابن قتيبة : عيون الأخبار ، طبعة سنة ١٩٦٣ ، القاهرة جـ ٢ ص ٢٦٧ ٨٤ ، ٩١ ، ٩٤ ، والدميري : حياة الحيوان الكبرى طبعة سنة ١٩٧٠ القاهرة جـ ٢ ، ص ٢٠١ ، وابن طفيل : حي بن يقظان ، نقلا عن د. محمد جلال شرف : المذهب الإشراقي بين الفلسفة والدين ، طبعة أولى سنة ١٩٧٢ القاهرة ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ــ وابن عربي : الفتوحات المكية ــ بيروت دار صادر جـ ٣ ص ٢٦٦ .

والواقع أن المشابهة لا تكفي دليلا على أن الكائنات تطورت عن طريق التحول ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على وحدة الخلق ووحدة الخالق سبحانه .

وقد نفي « الجاحظ » اتخاذ المشابهة دليلا على أصل الحيوان أو الطير حيث يقول : « وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه ( اشتركا وبلنك ) دليلا على تركيب الخلق ، فالجاموس بالفارسية ( كاوماش ) وتأويله ضأني بقري ، لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيرا من مشابهة الثور ، وليس أن الكباش ضربت في البقر فجاءت الجواميس »(١) .

## ب ـــ الفاعل في التطور :

فهم بعض الناس أن غريزة حب البقاء وكراهية الفناء التي جبل الله ـــ عز وجل ـــ المخلوقات عليها والتي تحدث عنها مفكرو الإسلام هي التي تسبب التطور والتقدم ظنا منهم أنها تؤدي إلى ما يؤدي إليه قانون « التنازع في سبيل البقاء » عن طريق الانتخاب الطبيعي الذي قال به « دراون » والتطوريون المحدثون .

والحق أن مفكري الإسلام قد تحدثوا عن هذا القانون كجبلة فطر الله الكائنات عليها ولا يترتب عليها فناء الكائنات لأن كل كائن أعطى وسيلة للدفاع عن نفسه ، وفي الوقت نفسه يقرون بأن الله هو الخالق لكل الكائنات وهو المطور لها إلى أقصى غاياتها . يقول « إخوان الصفا » : وأعلم .. أنك إذا أمعنت النظر .. وجودت البحث عن مباديء الكائنات وعلة الموجودات علمت وتيقنت أن هاتين الحالتين ، أعنى شهوة البقاء وكراهية الفناء ، أصل

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ١ ص ١٥١ ـــ ١٥٢ .

وقانون لجميع شهوات النفس المركوزة في جبلتها ، وأن تلك الشهوات المركوزة في جبلتها أصول وقوانين لجميع أفعالها وصنائعها ومعارفها في متصرفاتها .. وإنما صارت هاتان الحالتان مركوزتين في جبلة كل الموجودات وجميع الكائنات ، من أجل أن الباري– جل ثناؤه — لما كان هو علة الموجودات ، وسبب الكائنات ، ومبدعها ومخترعها ، وموجدها ومبقيها ومكملها ، ومبلغها إلى أقصى مدى غاياتها وأفضل حالاتها وكان — جل ثناؤه — دائم البقاء ، لا يعرض له شيء من الفناء ، صار من أجل هذا في جبلة الموجودات محبة البقاء وشهوته ، وكراهية الفناء وبغضته ، لأن في جبلة المعلول يوجد بعض صفات العلة ، دلالة دائمة عليها ، وإنما لا يعرض للباري — جل ثناؤه — شيء من النقص والفناء ، من أجل أنه علة الوجود لذاته ، وبقاؤه من نفسه وأما سائر الموجودات وجميع الكائنات فلوجودها أسباب وعلل ، ومتى عدم منها شيء أو نقص عرض لها الفناء والنقص والقصور عن البلوغ إلى الحال الأفضل(١) .

هذا القانون ينطبق على الإنسان والحيوان ، إذ الحيوانات أنواع كثيرة ، ولكل نوع منها خاصية دون غيره ، والإنسان يشاركها كلها في خواصها ، ولكن لها خاصيتان تعمها كلها ، وهما طلبها المنافع ، وفرارها من المضار ولكن منها ما يطلب المنافع بالقهر والغلبة كالسباع ، ومنها ما يطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور ، ومنها ما يطلب بالحيلة كالعنكبوت ، وكل ذلك يوجد في الإنسان ، ولكن بعضها يدفع العدو عن نفسه بالقتال والقهر والغلبة كالسباع ، وبعضها بالفرار كالأرانب والظباء والطير ، وبعضها يدفع بالسلاح كالقنفذ ، وبعضها يتحصن في الأرض كالفأر والهوام والحيات ، وهذه كلها توجد في الإنسان(٢) .

---

(١) إخوان الصفا : رسائل ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ١ ص ٥٢ .
(٢) المرجع السابق : مجلد ٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

فكل حيوان — كما يرى مسكويه — قد أعطي آلة يتناول بها حاجاته وهذه الحاجات تتزايد في الحيوان من أول أفقه ، وتتفاضل فيه ، فيشرف فيه بعضها على بعض ، فلا يزال يقبل فضيلة — بعد فضيلة حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة والأذى ، فيلتذ بوصوله إلى منافعه ، ويتألم بوصول مضاره إليه ، « ثم يقبل إلهام الله — عز وجل — إياه ، فيهتدي إلى مصالحه فيطلبها ، وإلى أضداده فيهرب منها . وما كان من الحيوان في أول أفق النبات فإنه لا يتزاوج ولا يختلف المثل ، بل يتولد كالديدان والذباب وأصناف الحشرات الخسيسة ، ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة ، كما كان في النبات سواء ، ثم تحدث فيه قوة الغضب التي ينهض بها إلى دفع ما يؤذيه فيعطي من السلاح بحسب قوته وما يطيق استعماله ، فإن كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه تاما قويا ، وإن كانت ناقصة كان ناقصا ، وإن كانت ضعيفة جدا لم يعط سلاحا ألبتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه ، وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذي أعطي القرون التي تجري له مجرى الرماح ، والذي أعطي الأنياب والمخالب التي تجري له مجرى السكاكين والخناجر ، والذي أعطي آلة الرمي التي تجري له مجرى النبل والنشاب ، والذي أعطي الحوافر التي تجري مجرى الدبوس والطبرزين ، فأما مالم يعط سلاحا ، لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ، ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطي آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها . وإذا تصفحت أحوال الموجودات من السباع والوحوش والطير رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها ، فتبارك الله أحسن الخالقين . فأما الإنسان فقد عوض عن هذه الآلات كلها بأن هدي إلى استعمالها كلها ، وسخرت هذه كلها له »[1] .

ويتحدث « ابن خلدون » عن هذا القانون فيقول : « ولما كان العدوان

(1) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٧١ — ٧٢

طبيعيا في الحيوان ، جعل الله — سبحانه وتعالي — لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره . وجعل للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر ، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع ، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة »[1] .

كما يلخص « القزويني » قانون حب البقاء وكراهية الفناء هذا قائلا : « ولما كانت الحيوانات بعضها لبعض عدو اقتضت الحكمة الإلهية لكل حيوان آلة يحفظ بها نفسه من عدوه . فمنها ما يدفع العدو بالقوة والمقاومة كالفيل والأسد والجاموس . ومنها ما يسلم من عدوه بالفرار ، فأعطي آلة الفرار كالظباء والأرانب والطيور . ومنها ما يحفظ نفسه بسلاح كالقنفذ والشاهين والسلحفاة ومنها ما يحفظ نفسه بحصن كالفأر والحية والهوام . ومقتضي الحكمة الإلهية أن الله تعالي خلق لكل حيوان من الأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه لا زائدا ولا ناقصا ، ولذلك اختلفت أشكالها وأعضاؤها ، وتنوعت أنواعها بأنواع كثيرة[2] .

ويرى بعض الباحثين أنه نتيجة لهذا التنافس بين الكائنات الحية تكون هناك عملية انتقاء أو انتخاب تؤدي إلى حفظ بقاء الأفراد المتصفين بأكمل الصفات والتي استطاعت أن تتلاءم مع بيئتها وتتكيف ، غير أن مفكري الإسلام لا يصرحون بمبدأ « الانتخاب الطبيعي » المعروف لدى علماء اليوم ، وإنما نجدهم يستعملون ألفاظا مثل «الحكمة الإلهية» التي تقابل مبدأ الانتخاب الطبيعي لدى علماء التطور المحدثين ، فاختلفت بينهما الأسماء وتشابهت نتائج

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ص ٣٩ .
(٢) القزويني : عجائب المخلوقات ص ١٩٩ .

المؤثـرات[1] .

غير أن الإنسان يجد في هذا التأويل لآراء مفكري الإسلام نوعا من الخلط في عرض الحقائق ، فالحق أن هؤلاء المفكرين ينسبون إلى الحكمة الإلهية كل التنوعات والأشكال التي وجدت عليها الكائنات ويقولون إن الله ـــ سبحانه قد خلق لكل حيوان من الأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه . كما أن الله سبحانه ـــ قد أعطى كل حيوان الوسيلة التي يستطيع بها أن يحافظ على بقاء نوعه سواء كان هذا الحيوان قويا أو ضعيفا ، ولهذا عاش الاثنان معا حتى الآن .

وفوق ذلك فإنهم ينسبون كل أنواع الخلق لله سبحانه ، فإخوان الصفا ـــ مثلا يقولون في حديثهم عن خلق الطيور : « إن الله ـــ جل ثناؤه ـــ جعل أبدان الطيور مختصرة من أعضاء كثيرة مما في أبدان الحيوان البري الذي يحبل ويلد ويرضع ، ليخف عليها النهوض في الهواء والطيران فيه »[2] .

وفي حديثهم عن العلة في أن حيوان الماء لا صوت له يقولون : « والعلة في أن حيوانات الماء أكثرها لا أصوات لها ، لأنها لا رئات لها ، ولا تستنشق الهواء ، ولم يجعل لها تلك لأنها لا تحتاج إليها ، وذلك أن الحكمة الإلهية والعناية الربانية جعلت لكل حيوان من الأعضاء والمفاصل والعروق والأعصاب ، والغشاوات والأوعية ، بحسب حاجتها إليها في جر المنفعة أو دفع المضرة في بقاء شخصها وتتميمه وتكميله وبلوغه إلى أقصى مدى غاياته ، ولسبب بقاء نسلها من آلات السفاد والحبل واللقاح وتربية الأولاد[3] » .

فالحكمة الإلهية لا تعطي حيوانا عضوا لا يحتاج إليه في جر المنفعة أو دفع المضرة « لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه كان وبــالا عليها في حفظها وبقائها

(١) إسماعيل مظهر : مقدمة ترجمة كتاب أصل الأنواع ص ٨ .
(٢) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ١٢٩ .
(٣) المرجع السابق مجلد ٢ ص ١٢٧ .

.. فأما حس الألم فليس للنبات ، وذلك لأنه لم يلق بالحكمة الإلهية أن تجعل للنبات ألما ، وهي لم تجعل له حيلة الدفع كما جعلت للحيوان ، وذلك أن الحيوان لما جعل له أن يحس الألم جعلت له أيضا حيلة الدفع ، إما بالفرار والهرب ، وإما بالتحرز ، وإما بالممانعة »[١] . والحكمة الإلهية — أيضا — جعلت أعضاء كل شخص من الحيوان مناسبة لجملة جسده[٢] .

لكن هناك مسألة يجب الإشارة إليها في هذا الصدد ، وهي أن مفكري الإسلام قد تحدثوا عن جميع الظروف البيئية التي تؤثر في الكائنات الحية فالحرارة لها تأثيرها في وجود الكائنات « وإفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين ، لأنه إذا أفرط الحر جفت المياة والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات ، إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة بيد أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد لأن الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد »[٣] .

فللحر والبرد أثرهما في الكائنات ، ولهما أثر — أيضا — في الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وفي ألوان البشر ، فالذين يسكنون في المناطق الباردة تبيض ألوانهم « وتنتهي إلى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود ، وصهوبة الشعر ، ... وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض ، فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام .. وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء »[٤] .

---

(١) المرجع السابق مجلد ٣ ص ٣٥ .
(٢) المرجع السابق مجلد ٢ ص ٣١٠ .
(٣) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ص ٤٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٧٨ .

وينفي ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع إلى الدعوات أو اللعنات فيقول إن بعض النسابين ممن لا علم لهم بالطبائع التي للكائنات توهم « أن السودان ، وهم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه ، وفيما جعل الله من الرق في عقبه ودعاء نوح على ابنه قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد .. وإنما دعا عليه أن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير . وفي القول بنسبة السواد إلى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات »[1] .

ثم تدرج ابن خلدون من تأثير الهواء في ألوان البشر إلى تأثيره على الصفات الباطنة التي يكون لها أثر في الأخلاق الباطنة التي لها أثر في الأخلاق فقال إن ساكني الأقاليم الحارة إذا « استولى الحر على أمزجتهم ، وفي أصل تكوينهم ، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس على أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا ، فتكون أسرع فرحا وسرورا ، وأكثر انبساطا ، ويجيء الطيش على أثر هذه ، وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ، لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته ، كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة[2] » .

ويرى « إخوان الصفا » أن للبيئة أثرا في اختلاف ألسنة الناس وألوانهم وطباعهم وآدابهم ومذاهبهم وكذلك في اختلاف الحيوانات والنباتات والمعادن « وسبب ذلك اختلاف أهوية البلاد ، وتربة البقاع ، وعذوبة المياه وملوحتها »[3] . كما يرون أن لكل مكان خاصية ليست لآخر ، فينبت فيه أنواع معينة من النبات ، ويوجد فيه أنواع معينة من المعادن والحيوانات[4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٠ .
(٣) إخوان الصفا : رسائل طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ١ ص ١٢٦ .
(٤) المرجع السابق مجلد ٢ ص ٦٩ .

كما أشار « ابن خلدون » إلى احتمال أن يكون لتغاير الأغذية أثر في تغاير الأشكال الظاهرة في الحيوانات فقال : « ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة ، وشاهده أهل التجربة ، أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل واتخذ بعضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون ... فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان ، فلا شك في أن للجوع ــ أيضا ــ آثارا في الأبدان ، لأن ــ الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه »(١) .

فإذا كانت العوامل الخارجية تؤثر في الكائنات الحية ، فإن هناك ــ أيضا ــ عوامل داخلية لها أثرها ، كالوراثة وغيرها . يقول الجاحظ : « وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة ، والأخلاق المتفاوتة ، والعناصر المتباعدة »(٢) . ويقول في ظهور الخاصيات المتوارثة على قدر من العمر « أن الجعل يظل دهرا ولا جناح له ، ثم ينبت له جناحان ، وذلك عند هلكه . والدعاميص قد تغبر حينا ثم تصير فراشا وليس كذلك الجراد والذباب لأن أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ، ومرور من الأيام »(٣) .

### جـ ــ التهجين ( Hybridization ) :

يتعلق بقانون الوراثة الذي تحدث عنه الجاحظ فيما سبق موضوع آخر أو مبدأ آخر هو في حقيقته طريقة أخرى لتنوع الكائنات الحية ، ذلك المبدأ هو « التهجين » « أو النغولة الوراثية » ويقصد بهذا المبدأ التزاوج بين فردين مختلفين في صفة وراثية واحدة أو أكثر ، بحيث ينشأ في النسل الهجين صفات وراثية جديدة مرغوبة ، تحقق الغاية المطلوبة ، ألا وهي التنوع الوراثي في

(١) ابن خلدون : مقدمة طبعة دار الشعب ص ٨٤ .
(٢) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ١ ص ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٥٨ .

الأنسال .

وقد تحدث مفكرو الإسلام عن التهجين ، وعبروا عنه أحيانا بالخلق المركب وأخرى بالنتاج المركب ، وثالثة بالحيوانات المشتركة ، وطبقوا ذلك على العديد من الطيور والحيوانات ( والبشر ) . ومن أهم من تحدث عن هذه الظاهرة « الجاحظ » ، و « ابن قتيبة » و« الدميري » و« القزويني » و« الحافظ الدمياطي » .

كما أنهم ميزوا بين الأمور الواقعية في مجال التهجين وبين الخرافات والأباطيل التي كانت تنتشر في أيامهم وتزعم أمورا وهمية غير صحيحة ، إذ يقول الجاحظ : « وقد تجاسر ناس على توليد أبواب من هذا الشكل ( ويقصد به التهجين بين أنواع حيوانية بعيدة بنسبها عن بعضها ولا يعقل ان تنتج نسلا ) فادعوا أمورا ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان ، وقد زعموا أن الزرافة خلق مركب بين الناقة الوحشية والبقرة الوحشية ــ والذيخ ( وهو ذكر الضباع ) . ومثل هذه الأقوال لا يحققها الامتحان وما عندنا معرفة بها »[1] .. ويتشكك الجاحظ في الأقوال حول تسافد الكلاب مع الثعالب والثعالب مع الهرة الوحشية ، ويفند هذه الأقوال ، ويسفهها ، ويصف أهلها بأنهم ناقلون غير مدققين ، ومقلدون غير مطبقين . كما يرفض تصديق التناكح بين الإنسان وغيره من المخلوقات .

والآن سأستعرض أمثلة من التهجينات بين الأنواع الحيوانية ذكرها مفكرو الإسلام ، وهي في الوقت نفسه مطبقة فعلا في وقتنا الحاضر .

١ ــ التزاوج بين الحمير والخيل ، فإذا كانت الأم فرسا أنتجت لنا بغلا كبيرا ، لكبر رحم أمه فهو شبيه بها ، وإذا كانت الأم « أتانا » أنتجت لنا « نفلا » ، فهو أشبه بأمه الحمارة ، وهو صغير الحجم[2] .

---

(١) الجاحظ : الحيوان : جـ ١ ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) الجاحظ : رسائل ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٥ جـ ٢ ص ٢٩٧ ، والقزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ٣٠٧ .

٢ — التزاوج بين الورشان والحمامة ، يعطي الحمام الراعبي[١] « الذي ذهبت عنه هداية الحمام وشكل هديره وسرعة طيرانه ، وبطل عنه عمر الورشان وقوة جناحه ، وشدة عصبه ، وحسن صوته ، وشحو ( اتساع ) حلقه ، وشكل لحونه ، وشدة إطرابه ... وفي الراعبي أنه مسرول مثقل ، وحدث له عظم بدن وثقل وزن ، لم يكن لأبيه ولا لأمه[٢] » .. فهو لم يأخذ من هداية أمه شيئا ولم يعطه أبوه من طول عمره شيئا .

٣ — التزاوج بين فوالج البخت مع إناث البخت يعطي الحوار . وهي القصيرة العنق التي لا تنال كلأ ولا ماء إلا بمساعدة صاحبها . والبخت هي الإبل الخراسانية التي تنتج من عربية ، وفالج وهو الجمل الضخم ذو السنامين ويوجد في « كازاخستان » وصحاري « تركمانستان » والتزاوج بين فوالج البخت وقلاص العراب يعطي « الجواميز » أو « الجمازات »[٣] ( العراب نوع ممتاز من الإبل العربية ، والجواميز إبل ممتازة أيضا ) .

٤ — التزاوج بين الحمار والوحشي والحمار الأهلي يعطي الحمر الأخدرية[٤] .

٥ — التزاوج بين الكلاب السلوقية وكلب الراعي يعطي الخلاس[٥] . وذكروا أنواعا أخرى كثيرة من التهجين ، وقد اختلفوا في « الزرافة » حيث اعتبرها بعضهم مركبة من الضبعان والناقة والبقرة الوحشية[٦] .

---

( ١ ) الجاحظ : الحيوان جـ ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، جـ ٣ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٢ ، ورسائل الجاحظ جـ ٢ ص ٢٩٧ ، وابن قتيبة : عيون الأخبار ، مجلد ٢ ص ٧٠ والقزويني : عجائب المخلوقات ص ٣٠٧ .

( ٢ ) الجاحظ : كتاب الحيوان جـ ١ ص ١٠٢ .

( ٣ ) الجاحظ : الحيوان جـ ٥ ص ٤٥٩ ، جـ ٧ ص ٢٤٢ ، والرسائل جـ ٢ ص ٢٩٧ . وابن قتيبة : عيون الأخبار مجلد ٢ ص ٧٠ . والقزويني : عجائب المخلوقات ص ٣٠٧ .

( ٤ ) ابن قتيبة : عيون الأخبار مجلد ٢ ص ٧٠ .

( ٥ ) الجاحظ : الحيوان جـ ١ ص ٣١١ — ٣١٢ . والرسائل جـ ٢ ص ٢٩٧ .

( ٦ ) ابن قتيبة : المرجع السابق ، والقزويني : المرجع السابق أيضا ص ٢٤٨ .

ولكن «الجاحظ» يرفض هذا القول ويصفه بانه جهل شديد لا يصدر إلا ممن لا تحصيل عندهم ، لأن الله تعالي يخلق ما يشاء ، وهو نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير ، ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله ، وقد شوهد ذلك وتحقق(١) .

ومن الجدير بالذكر القول بانهم نصوا صراحة على هذا الضرب من التنوع للكائنات الحية ، حيث نجد« القزويني » ــ مثلا ــ يقول عنها إنها الحيوانات المركبة التي تتولد من حيوانين مختلفي النوع(٢) . ويرى الجاحظ أن « البغل » هو أكمل أشكال التهجين ، وأنه عقيم ، كما أنه يرى أن « الهجين » ــ أحيانا ــ يكون أعظم من الأصل .

فهذا طريق آخر للتنوع ذكره مفكرو الإسلام ، ولعله يغني عن محاولة إنطاقهم بفكرة التحول غير المعقولة ولا المقبولة .

## د ــ حقيقة الإنسان :

الإنسان عند مفكري الإسلام هو آخر الموجودات في السلسلة العظمى للتطور . يقول ابن مسكويه : « إن الإنسان آخر الموجودات ، وأن التراكيب تناهت إليه ، ووقفت عنده ، وتكثرت الأغشية واللبوسات والهيولانية على جوهره النير ، أعني العقل الذي به يدرك هذا المعني البسيط ( أي وجود الله عز وجل ) ، وذلك أن البسائط الأولى ابتدأت من الوحدة إلى الاختلاط والتكثر ، ولم يكن ذلك بلا نهاية ، إذ الأمور التي تخرج إلى الفعل تكون أبدا متناهية ، فلما بلغت الإنسان تناهت ووقفت ، ولما حصل الإنسان آخر الموجودات صارت الأشياء التي هي في أنفسها أوائل آخرة عنده »(٣) .

(١) الدميري : حياة الحيوان جـ ١ ص ٥٣٤ .
(٢) القزويني : عجائب المخلوقات ص ٣٠٧ .
(٣) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ٨ .

واسم الإنسان يقع على الجسد والنفس معا ، حيث يقول إخوان الصفا : « إن اسم الإنسان إنما هو واقع على هذا الجسد الذي كالبيت المبني ، وعلى هذه النفس التي تسكن هذا الجسد ، وهما جميعا جزآن له ، وهو جملتهما والمجموع عنهما ، ولكن أحد الجزأين ، الذي هو النفس ، أشرف ، وهي كاللب ، والجزء الآخر ، الذي هو الجسد ، كالقشر »(١) . وعند الفارابي ينقسم « الانسان إلى سر وعلن ، أما علنه فهو الجسم المحسوس بأعضائه ... وقد وقف الحس على ظاهره ، ودل التشريح على باطنه ، وأما سره فقوى روحه »(٢) .

كما أن الإنسان عندما يصل غاية رقية فإنه في هذه الحالة يصير إما حكيما تأتيه الإلهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات العلوية في التصورات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله ، تعالي ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل(٣) .

ولعل فكرة « الإنسان الكامل » قد أخذت من القول بأن الإنسان هو نهاية السلسة التطورية ، كما يتضح من النص السابق لابن مسكويه . وخلاصة فكرة الإنسان الكامل عند المتصوفة « أن الإنسان خلاصة العالم وروحه ، وصلته بخالقه »(٤) .

وقد تميز الإنسان بصفات متعددة عن الحيوانات الأخرى ، وذلك من الناحيتين : التشريحية والنفسية . فقد تميز الإنسان بانتصاب قامته ، وضخامة قحفه ، ووزن دماغه وقدرته على الكلام ، وبشرته العارية من الوبر ، ورأسه

---

(١) إخوان الصفا رسائل ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ مجلد ٢ ص ٢٤٦ .
(٢) صليبا ( د. جميل ) المعجم الفلسفي جـ ١ ص ١٥٦ .
(٣) ابن مسكويه تهذيب الأخلاق ص ٧٥
(٤) عزام ( د عبد الوهاب ) : التصوف وفريد الدين العطار ص ٨٧ .

المملؤة من الشعر ، وأنفه البارز فوق فمه ، وذقنه البارزة ويداه الممتدتان في استقامة ذراعيه ، ورجلاه العموديتان على ساقيه ، ونمو عضلات فخذية وأوراكه ، كما تميز بالنطق وهو القوة التي يعرف بها الإنسان ما في ضمير غيره بوساطة رمز أو إشارة أو كناية ، وكذلك قوة التعجب ، وهي التي توجب الضحك عند رؤية ما يتعجب منه . وكذلك الشيب فإنه لا يوجد إلا في الإنسان[١] . كما تميز الإنسان بخواص عقليه واجتماعية منها « العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات ، وشرف بوصفه على المخلوقات ، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر ، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها ، إلا ما يقال على النحل والجراد ، وهذه إن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهامي ، لا بفكر وروية ، ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه ، لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه ، وهداه إلى التماسه وطلبه ، قال تعالي : « الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدى »[٢] ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات ، لما في طباعهم من التعاون على المعاش »[٣] .

الحق أننا لو أردنا تلخيصا وافيا لحقيقة الإنسان عند مفكري الإسلام لوجدناه عند « القزويني » ، حيث يقول : « إعلم أن الإنسان مجموع مركب من النفس والبدن ، وأنه أشرف الحيوانات ، وخلاصة المخلوقات ، ركبه الله تعالي في أحسن صورة روحا وبدنا ، وخصصه بالنطق والعقل سرا وعلنا ، وزين ظاهره بالحواس والحظ الأوفى ، وباطنه بالقوي ما هو أشرف واقوى ، وهيأ للنفس الناطقة الدماغ وأسكنه أعلى محل وأوفق رتبة ، وزينه بالفكر والذكر

(١) القزويني : عجائب المخلوقات ص ٢٣١ .

(٢) سورة طه ٥٠ .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ص ٣٧ .

والحفظ ، وسلط عليه الجواهر العقلية لتكون النفس أميره ، والعقل وزيره ، والقوى جنوده ، والحس المشترك مريده ، والأعضاء خدمه ، والبدن محل مملكته ، والحواس يسافرون في جميع الأوقات في عالمهم ويلتقطون الأخبار الموافقة والمخالفة ، ويعرضونها على الحس المشترك الذي هو واسطة بين النفس والحواس ... وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق وتطرح ما يخالف ، فمن هذا الوجه فالإنسان عالم صغير ومن حيث أنه يتغذي وينمو قالوا نبات ، ومن حيث أنه يحس ويتحرك قالوا حيوان ، ومن حيث أنه يعلم حقائق الأشياء قالوا ملك ، فصار مجمعا لهذه المعاني ، فإذا صرف همه إلى جهة من هذه الجهات ليلتحق بها ، فإن كان قد صرف همته إلى الجهة الطبيعية فيكون راضيا من أمر دنياه بالتغذي وتنقية الفضول ، وإن كان إلى الحيوانية فيكون إما غضوبا كسبع ، أو أكولا كبقر ، أو شرها كخنزير أو جزعا ككلب ، أو حقودا كجمل ، أو متكبرا كنمر ، أو ذا روغان كثعلب ، أو يجمع هذا كله فيكون شيطانا مريدا ، وإن كان صرف همته إلى الجهة الملكية فيكون متوجها إلى العالم الأعلى ولا يرضى بالمنزل الأسفل والمربع الأدني[1] فيكون مرادا من قوله عز وجل : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا[2] .

---

(١) القزويني : عجائب المخلوقات ص ٢٠٠ .
(٢) سورة الإسراء ٧٠ .

# الباب الرابع

## نظرية التطور عند مفكري الغرب

الفصل الأول : العالم .

الفصل الثاني : الحياة والكائنات الحية .

الفصل الثالث : تفسير التطور .

# « الفصل الأول »

# العالم

## أ ـــ أصل العالم :

هناك ثلاثة آراء في العلم الحديث عن أصل الكون . أما الأول فهو الذي يقول بنظرية الانفجار العظيم ، وهذه النظرية تعني أن الكون نتج من انفجار كتلة واحدة من المادة ، وأنه يتمدد باستمرار وهذه النظرية تسمي بالفرض السديمي[١] .

والرأي الثاني هو نظرية حالة الاستقرار ، ومعناها أن الكون كان له دائما تركيبه الحالي ، وأن المادة تتشكل باستمرار .

أما الرأي الأخير فهو القائل بنظرية التذبذب ، ومؤداها أن الكون يتمدد ويتقلص بانتظام على مدى آلاف الملايين من السنين[٢] .

غير أنه يلاحظ على هذه النظريات الثلاث الحديثة عن أصل الكون أنها لا تجيب على السؤال المهم : من أين أتت المادة الأصلية ، أو الطاقة التي تنتج المادة لتشكيل الكون كله ؟

لهذا وصفت هذه النظريات بأن إحداها ليست أفضل من الأخرى ، فقال عنها بعض علماء الغرب : « ليست واحدة بأفضل من الأخرى ، وأنت أيها

---

( ١ ) الفرض السديمي نظرية تذهب إلى أن النظام الشمسي قد تكون من سديم أو سحاب ـــ دوار ـــ من غاز وغبار ساخنين ، أخذ يقذف بحلقات وهو يبرد وينكمش ، وقد صارت هذه الحلقات فيما بعد الكواكب وتوابعها أنظر : الجامعة الأمريكية : المعجم العلمي المصور ص ٣٨٧ ، وعبد الحميد سماحة : في أعماق الفضاء ، طبعة سنة ١٩٢٥ ، القاهرة ص ٦٧ .

( ٢ ) هل الكتاب المقدس حقا كلمة الله ؟ ص ١٤ .

القاريء يمكنك أن تختار تلك التي تحبها أكثر ، أو يمكنك أن ترفضها جميعاً »(١) .

إن التكهن ببداية الكون سر مكنون لا يزال بعيدا عن تصور العقل البشري . فلا يدري أحد شيئا عن الظروف والحقبة التي سبقت وجود غاز « الأيدروجين » في الفضاء أو الأسباب التي أدت إلى وجوده .

والعالم يتكون من مجموعة مدن نجومية ضخمة ، هذه المدن تكونت من السدائم الغازية ، وهذه المدن تنقسم إلى مجموعات مجرية ، والمجموعات المجرية تنقسم إلى « شموس » والأرض ما هي إلا فرد من أفراد الأسرة الشمسية(٢) .

وتدل الدلائل المستقاة من علوم الفلك وغيرها ، وكذلك من تحليل الشهب والنيازك المتساقطة على الأرض ، ومن دراسة الطيف النجمي ، على أن هذا الكوكب — الأرض — يشترك مع الشمس ومع سائر الكواكب الأخرى في كثير من العناصر التي تدخل في تكوينها ، وعلى أن المجموعة الشمسية بأسرها نشأت من أصل واحد . ومن ثم فإن ظهور صور أخرى من الحياة على بعض الكواكب ليس أمرا بعيد الاحتمال(٣) .

## ب — تاريخ الأرض :

في الوقت الحاضر تعتمد أكثر الطرق دقة لتقدير عمر الأرض على النشاط الإشعاعي Radioactivity فالمواد ذات النشاط الإشعاعي الموجودة في المعادن داخل قشرة الكرة الأرضية تفتت في الطبيعة بسرعة ثابتة ، فمثلا يتحطم عنصر اليورانيوم Uranium إلى عناصر أخرى ( هي غاز الهليوم Helium

(١) المرجع السابق ص ١٥ .
(٢) جينز ( سير جيمس ) : النجوم في مسالكها ص ١٤٤ .
(٣) عبد العليم ( د. أنور ) : قصة التطور ، دار القلم ، القاهرة ص ٩ .

ونوع خاص من الرصاص وزنه الذري Atomic Weight يساوي ٢٠٦ ) بسرعة ثابتة بحيث يبقى ثلاثة أرباع اليورانيوم الأصلي دون تغيير بعد ٢٠٠٠ مليون سنة ، وبذلك تكون نسبة اليورانيوم إلى هذا النوع الخاص من الرصاص مقياسا لتقدير عمر أية صخرة ؛ وباستعمال هذه الطريقة قدر عمر أقدم الصخور الموجودة بالقشرة الأرضية بحوالي ٢٠٠٠ مليون سنة ، أما عمر كوكب الأرض فهو من المؤكد أكثر من ٢٠٠٠ مليون سنة ، وربما يصل عمرها إلى ٥٠٠٠ مليون سنة .

ولقد قسم العلماء تاريخ الأرض إلى خمسة أحقاب Eras وهي :

**١ ــ الحقب أو الدهر العتيق Archeozoic Era .**

**٢ ــ الحقب الفجري Proterozoic Era ويقدر بنحو ١٤٥٠ مليون نسمة .**

**٣ ــ الحقب القديم Paleozoic Era ويقدر بنحو ٣٠٠ مليون سنة .**

**٤ ــ الحقب الوسط Mesozoic Era ويقدر بنحو ١٣٠ مليون سنة .**

**٥ ــ الحقب الحديث Cenozoic Era ويقدر بنحو ٧٥ مليون سنة .**

وهم يقسمون كل حقب إلى عصور Periods ثم يقسمون كل عصر إلى أقسام أصغر سموها عهودا Epochs[١] .

## جـ ــ مصير العالم :

القانون الأول للديناميكا الحرارية هو القانون الذي يقول إن الطاقة لا تزيد ولا تنقص بل تحتفظ بمقدارها ، فقد تتحول من نوع إلى نوع ، كأن تتحول مثلا من حرارة إلى حركة ، لكن المقدار يظل كما هو . فالأمر هنا أشبه ما يكون بتحول النقود من عملة إلى عملة ، أو فكها في العملة الواحدة من قطع كبيرة إلى قطع صغيرة ، لكن المجموع الكلي للمبلغ يظل على حاله ، وبناء على قانون

(١) عبد العليم (د. أنور) : قصة التطور ص ٧ ــ ٩ ، د. كمال (علم الدين) : تطور الكائنات الحية ، عالم الفكر ، ص ١٣ .

حفظ الطاقة هذا يمكن أن نضع قطعة الحديد الأقل حرارة مع الأكثر حرارة بحيث تزيد حرارة الثانية وتقل حرارة الأولى ، ومع ذلك يظل مقدار الحرارة في القطعتين كما كان في البداية دون أن يزيد أو ينقص .

أما القانون الثاني للديناميكا الحرارية فهو يذهب إلى أن انتقال الحرارة إنما يكون باستمرار في اتجاه واحد : وهو اتجاه يسير من الأكثر حرارة إلى الأقل حرارة ، ولا يكون العكس أبدا ، ونتيجة لهذا القانون فإن الكون كما يقول « جينز » لا يمكن أن يكون له سوى نهاية واحدة هي « موت الحياة » حين تتوزع جملة الطاقة توزيعا منتظما فتصير أجسام الكون كلها في درجة حرارة واحدة . وستكون هذه الحرارة منخفضة انخفاضا يجعل الحياة مستحيلة ، فنهاية رحلة الحياة لن تكون سوى الفناء الشامل للأحياء ، بل للكون كله(١) .

---

(١) إمام ( إمام عبد الفتاح ) : مدخل إلى الفلسفة ص ١٨٢ — ١٨٣ .

# « الفصل الثاني »

# الحياة ... والكائنات الحية

## أ ــ أصــل الحيـاة :

يسلم كثير من العلماء بجهلهم فيما يتعلق بأصل الحياة وكيفية نشوئها ، فإن سر بداية الأشياء أمر غير قابل للحل ، كما يقول « دارون »[١] . والماديون من العلماء لا يرون في مشكلة الحياة مشكلة ميتافيزيقية ، بل هي ظاهرة بيولوجية بحتة ، لا دخل للفلسفة في تفسيرها أو تأويلها أو بيان أصلها ، فلا معنى للحديث عن « الحياة » بالمعنى الميتافيزيقي .

وقد يمضي بعض العلماء إلى حد أبعد من ذلك فيقول بأن الكائنات الحية لا تزيد عن كونها مجرد موجودات تتكفل بتفسيرها قوانين المادة البحتة ، ومن ثم فإنه لا موضع للتمييز بين كائنات عضوية وأخرى لا عضوية ما دامت الحياة نفسها لا تزيد عن كونها مجرد صورة من صور حركة المادة[٢] .

على أية حال يسلم العلماء بأن الأرض مشتركة مع الشمس وسائر الكواكب في كثير من العناصر ، وأنها نشأت جميعا من أصل واحد ، الأمر الذي يجعل ظهور صور أخرى من الحياة أمرا غير بعيد .

غير أنهم لا يسلمون بالقول بانتقال الحياة من كوكب إلى آخر ، لظروف طبيعية تحول دون ذلك ، كما أن ذلك لا يفسر وجودها أيضا . وإنما تولد الحياة من جديد ، وبشكل جديد يتفق مع ظروف كل كوكب ، كما أنهم يعتقدون

---

(١) داونز : كتب غيرت وجه العالم – عن مجلة تراث الإنسانية – المجلد التاسع العدد الأول سنة ١٩٧١ ص ١٢٦

(٢) Engels (F.) Dialectics of Nature, Progress Publishers, Moscow, 1966, PP. 225, 231.

بأن هناك الكثير من الكواكب الأخرى المسكونة في هذا الكون .

ولقد وضع العلماء عدة فروض عن أصل الحياة ، ففي الثالث من سبتمبر سنة ١٩٥٩ عقد مؤتمر لعلوم البحار في مدينة « نيويورك » حضره ستة من أئمة علماء الشرق والغرب ، وقد خصصت إحدى جلسات المؤتمر لبحث نشأة الحياة وأصلها على ظهر الأرض . وقد طرح هؤلاء العلماء آراءهم حول « نشأة الحياة » لمناقشتها ، وكلها فروض أو احتمالات قد يقبلها العقل والمنطق ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يجزم بأن أيا من هذه الفروض أو الاحتمالات هو الفرض الصحيح ، إذ ليس ثمة برهان علمي على ذلك ، وإن كانت بعض التجارب التي أجراها هؤلاء العلماء في المعمل قد تؤيد إلى حد ما بعض وجهات النظر المعروضة في هذا المجال .

أما العالم الروسي « أوبارين — Oparin » فقد نظر إلى العناصر التي تتألف منها الأرض ، فوجد أن الكربون يلعب دورا رئيسيا في الحياة العضوية على سطحها ، إذ يتحد هذا العنصر مع « الأيدروجين » ومع « الأكسجين » ليكون مركبات عضوية لا حصر لها ، « والكربون » عنصر له قدرة هائلة على الدخول في التفاعلات الكيميائية ، فيتحد مع « الأكسجين » ليكون غاز « ثاني أكسيد الكربون » الذي نلفظه في عملية التنفس ، ويتحد مع « الأيدروجين » ليكون غاز « الميثان » أو غاز المستنقعات ( ويتكون من اتحاد ذرة من الكربون مع أربع ذرات من الأيدروجين ويرمز له بالرمز ك يد٤ ) . ويعتبر غاز الميثان هذا أبسط المركبات العضوية التي تنتمي إليها « الكربوأيدرات » أو السكريات .

وعلى هذا الأساس ، فقد كان جو الأرض في فجر التكوين وقبل أن تدب عليها الحياة يحتوي على خليط من غاز المستنقعات والنشادر والأيدروجين وثاني أكسيد الكربون ، وغازات أخرى غيرها مع بخار الماء ، وهو جو مشابه في

في كثير من الوجوه للجو السائد على كوكب المشتري اليوم .

وافترض « أوبارين » وجود « عامل مثير » أو « عامل منشط » مثل : البرق أو الحرارة أو الإشعاعات الشمسية أو الأشعة فوق البنفسجية ، ساعد على تفاعل هذه الغازات مع بعضها لتكون مركبات عضوية بسيطة أو جزيئات أولية عضوية من مواد غير عضوية ، وقد تأيدت وجهة النظر هذه بالتجربة المعملية .

ثم تلا ذلك وقت طويل اتحدت فيه الجزئيات المذكورة فيما بينها لتكون مركبات أكثر تعقيدا ، تشبه المواد الدهنية والسكريات والمواد العضوية الفوسفورية وما إليها ، وذلك بخطوات وئيدة جدا . ولربما مرت ملايين السنين قبل أن تتميز المواد العضوية المعقدة مثل : البروتينات والأحماض الأمينية ، وكان ذلك كله في مياه البحار والمحيطات الأولى .

وكانت مثل هذه المواد في أول الأمر ذائبة في الوسط المائي ، ثم تجمعت فيما بينها تحت ظروف خاصة لتكون كتلا أو أكواما من الجزيئات تميزت فيما بينها كأنظمة مفردة ، وتسمى هذه الأنظمة « بالنقاط التجمعية » .

ويؤيد العالم الأمريكي « هارولد أوري H. Urey العالم السوفيتي « أوبارين » في هذه النظرية .

ويستطرد « أوبارين » بعد ذلك فيجد شبها كبيرا بين « البروتوبلازم » الموجود في الخلايا الحية ، وبين « النقاط التجمعية » هذه . بيد أن الفرق الوحيد بين الاثنين هو أن البروتوبلازم الحي له القدرة على القيام بعمليات التمثيل الحيوي ( Metabolism ) ويفرز الأنزيمات التي تساعد على التفاعلات الكيميائية الحيوية التي تقوم بها الخلية ، أما النقاط التجمعية فليس لها مثل هذه الخاصية .

ثم يفترض « أوبارين » أن فترة طويلة جدا من عمر الأرض لابد أن تكون قد مرت قبل أن تكتسب هذه النقاط الخاصية المذكورة ، وهي القيام بالتمثيل الحيوي . ومنذ نحو ١٥٠٠ مليون سنة تحولت هذه النقاط التجمعية إلى كائنات أولية بسيطة ، ثم ظهرت عملية التمثيل الكلورفيلي[١] بعد ذلك .

أما العالم الإنجليزي « برنال Bernal » فقد قدم بحثا عنوانه : « العوامل الطبيعية والكيميائية التي تحدد ظهور العمليات البيولوجية لأول مرة وفيه يؤيد نظرية « الريم Scum » وأن الحياة نشأت على السواحل الطينية ، ومؤداها أن الجزيئات الكيميائية الأولية التي هي أصل الجزيئات الحيوية القديمة ، ربما تكون قد تفجرت من باطن الأرض من شقوق على قاع البحر ، ثم حملتها الرياح وقوى المد والجزر إلى حيث ألقت بها في مصاب الأنهار القديمة .

وهناك على الطمي الرطب المتخلف بالبرك والمستنقعات في دلتا هذه الأنهار القديمة اتحدت هذه الجزيئات مع بعضها لتكون مركبات أكثر تعقيدا إذ المعلوم أن سطح الطمي المندي بالماء يعتبر عاملا منشطا لكثير من التفاعلات الكيميائية ... وهو قد ساعد على تجمع هذه الجزيئات الكيميائية لتكون نقاطا تجمعية ، ثم تحولت هذه بعد ذلك إلى مادة حية تطورت إلى نباتات وحيوانات أولية متعددة الخلايا .

وتعتبر عملية الخلق في نظر « برنال » أمرا ليس بالهين ، كما أن احتمال الحياة على الكواكب الأخرى هو أيضا في نظره بعيد الاحتمال وهو يشك كثيرا فيما إذا كانت الحياة ستبدأ ثانية من العدم على سطح الأرض .

---

( ١ ) تعتبر عملية التمثيل الكلورفيلي أو التمثيل الخضيري أهم حدث في تاريخ التطور في هذه الفترة من عمر الأرض ، إذ معنى ذلك هو منح القدرة للكائنات التي تحتوي على الكلورفيل على بناء المواد العضوية المعقدة كالبروتين والنشويات من مواد غير عضوية بسيطة للمرة الأولى . ولولا هذه العلمية التي اختصت بها النباتات الخضراء على اليابسة وفي الماء لانعدمت الحياة اليوم من على ظهر الأرض ومن البحار .

وعلى النقيض من نظرية « برنال » أو نظرية الريم المتخلق على الطمي يرى الباحث « تيوركيان » أن ماء الخليقة الذي بدأت فيه الحياة كان سائلا لزجا في قوام الحساء ( الشوربة ) وهو خليط من عناصر الصوديوم والكالسيوم والسليكون ومركبات غير عضوية أخرى ، أذابتها الأمطار من الصخور .

ويقول الدكتور « فوكس » من جامعة « فلوريدا » إنه وضع ثمانية عشر نوعا من الأحماض الأمينية ( وهي اللبنات التي تبني منها المادة الحية ) في زجاجة ، وأضاف اليها الماء ، وسخن هذا الخليط ، فنتج عن ذلك ملايين النقاط الصغيرة من أشباه البروتينات(١) .

ومهما يكن من شيء فإن نقطة الضعف في هذه النظريات أو الفروض السابقة إنما هي افتراض اكتساب جزيئات المادة الأولية لخاصية التمثيل الحيوي .. هذه الخاصية التي تقوم بها أبسط الكائنات الحية في الطبيعة من تلقاء نفسها ، وبمنتهى الكفاءة والقدرة ، والتي لم يستطع العلماء أن يهبوها للجزيئات العضوية التي استطاعوا تخليقها في المعمل ، وقد لا يستطيعون على الإطلاق .

## ب ــ الكائنات الحية وتطورها :

قادت البحوث في التركيب الدقيق للخلايا الحية في أبسط الكائنات الحية المعروفة ، ومحاولة فهم التفاعلات الحيوية التي تقوم بها مثل هذه الخلايا ــ قادت العلماء إلى افتراض وظيفتين أساسيتين هما من أخص خصائص الكائنات الحية وهما :

١ ــ القدرة على التكاثر أو بمعنى آخر القدرة على أن يضاعف الشيء نفسه بنفسه .

٢ ــ القدرة على التغير التلقائي أو « الطفرة » ، أي أن يحدث الشيء شيئا

---

(١) عبد العليم ( د. أنور ) : قصة التطور ص ٩ ــ ١٦ .

آخر على هيئته ، ولكنه مخالف له في بعض الصفات أو الخصائص[1] .

ولما كان تكاثر الخلية يتم بوساطة انقسام جسيمات عضوية دقيقة موجودة داخل النواة ( نواة الخلية ) ، ويطلق عليها اسم الكروموسومات ( الصبغيات ) كما أن هذه الكروموسومات تحمل « الجينات » ( أي الناسلات أو حاملات الصفات الوراثية ) ، وهي بدورها دقائق مرتبة ترتيبا خاصا على طول الكروموزوم نفسه ، فمن هذا يتضح الدور المهم الذي تلعبه هذه الكروموسومات في انتقال الحياة والصفات الوراثية بأسرها إلى الأجيال المختلفة .

ومن هنا ــ أيضا ــ اتجه البحث العلمي اتجاها جديدا يهدف لمعرفة التركيب الذي لهذه الكروموسومات ، أو بالأحرى تركيب المادة الوراثية نفسها كخطوة أولى نحو تفهم الحياة . وقد أثبتت هذه البحوث ، التي لم تبدأ بصفة جدية إلا منذ عام ١٩٥١ ، أن « الكروموسومات » وبالتالي « الجينات » أو حاملات صفات الوراثة ليست مادة بروتينية خالصة ، ولكنها تتركب من حامض يسمى الحامض النووي ( نسبة إلى نواة الخلية ) . وهذا الحامض على نوعين : أحدهما يرمز له بالرمز ( DNA ) والآخر بالرمز ( RNA ) ولكل منهما تركيب كيميائي معلوم . ويتم النشاط الحيوي والتكاثر في الخلية عن طريق تفاعل الحامض النووي هذا مع البروتينات .

وجزيء الحامض النووي هذا مركب من حلقات كيميائية مضاعفة الأصل تعرف في الكيمياء العضوية باسم « البلمرات » وتتصل مع بعضها على هيئة سلسلة طويلة دقيقة الحجم جدا ، تتكرر فيها من آن لآخر حلقات متشابهة التركيب ، أساسها « كربوايدرات » ( سكريات ) ومركبات قاعدية وتربطها مع بعضها حلقات أخرى مع مركبات فوسفورية تعرف باسم

---

( ١ ) المرجع السابق ص ١٧ ــ ١٨ .

« الاسترات » .

وقد مثل العلماء التركيب الجزئي للحامض النووي هذا بسلم حلزوني متعدد اللفات ، تمثل درجاته أو عتباته نفسها المركبات القاعدية المتقدمة الذكر ، وتمثل القوائم الرأسية التي تربط بين كل عتبتين حلقات « الأسترات » الفوسفورية . وعلى هذا الأساس فعند انقسام الكروموسوم طوليا في عملية تكاثر الخلية ، تنقسم المادة الوراثية إلى قسمين متشابهين من كافة الوجوه ، مثل السلبية والموجبة للصورة الفوتوغرافية ، أو مثل الجسم المرئي وصورته في المرآة ، وبذلك تنتقل الصفات الوراثية ، إلى الأجيال المختلفة .

لكن على الرغم من التقدم في تفهم تركيب الخلية الحية والعمليات الحيوية التي تقوم بها الخلية ، إلا أن الصورة لم تكتمل بعد لتفهم ماهية الحياة نفسها .

فهل الحياة ترتيب محكم دقيق للجزيئات والدقائق داخل الخلية ، يتبع نظاما خاصا معقدا ، تنجم عنه الحياة ، حتى إذا ما اختل هذا النظام ذهبت الحياة ؟ أم أن ثمة قوة أخرى خارجية لازمة للهيمنة على هذا النظام والتحكم فيه ، وهي ما نعبر عنه بالروح ؟ ولماذا تقف التفاعلات الحيوية للكائن الحي فجأة عند الموت ؟ وكيف يترجم النظام الوراثي الممثل في الكروموسومات الموجودة داخل النواة ( نواة الخلية ) إلى كائن حي مستقل ، يعيش ويسعى ، وله مميزات خاصة ، ويمر في أطوار ومراحل معينة فائقة التنظيم ؟ وأخيرا ما هي الروح نفسها ؟ .

الواقع أن مثل هذه الأسئلة لم يتوصل العلم إلى الإجابة عنها بعد . كما أن موضوع الروح ليس للعلم سلطان عليه ، ولم يتيسر للعلماء بوسائلهم المعروفة إخضاعها للتجربة والقياس .

ومجمل القول أن العلم لم يتوصل إلى كشف هذا السر الأعظم المعروف

بالحياة ، كما يتضح أن هذه المشكلة هي أبعد مدى من أن تكون مجرد بناء مواد عضوية معينة ، وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة .

إن أحدا لا يستطيع أن يعرف متى بدأت الحياة تدب على سطح الأرض ، وذلك لأن الكائنات الحية الأولى لم تترك آثارا بين طيات الصخور يستدل منها عليها ، والمعتقد أن الحياة لم تظهر إلا منذ نحو ألف وخمسمائة مليون سنة ، فقد عثر على انطباعات أولية بين الصخور القديمة لكائنات بسيطة التركيب تشبه النباتات الأولية من فصيلة الطحالب عاشت في الماء منذ بليون سنة أو أكثر من ذلك بقليل . هذا إذا استثنينا بعض الرواسب الحديدية أو الكبريتية الموجودة في بعض الصخور القديمة ، والتي قد يعزى منشؤها إلى نشاط البكتريا ( وهي كائنات حية بسيطة ) في الماء . هذه الرواسب هي أقدم عهدا من شبيهات الطحالب المتقدم ذكرها وإن دلت على شيء فإنما تدل على أن البكتريا ربما كانت أولى الكائنات الحية التي ظهرت في الوجود على الأرض . خصوصا أن مثل هذه الكائنات لها القدرة على الحياة تحت ظروف متباينة من الحرارة والبرودة والضغط ، وقد تتنفس في الهواء أو هي بمعزل عنه ، وقد تعيش في وسط حمضي أو قلوي . ولا يكاد يوجد شك في أن الحياة قد دبت أول ما دبت في الماء أو على الطمي الرطب في المستنقعات القديمة[1] .

أما عن تطور الحياة في العصور الجيولوجية ، فقد بدأت الحياة غير متميزة في الحقب الأولى القديم والحقب الأركي ، وفي الحقب الباليوزي ظهرت الطحالب واللافقاريات البحرية والأسماك ، والبرمائيات الضخمة والأعشاب البحرية ، والنباتات اللازهرية والسرخسيات الكبيرة الحجم ، وفي الحقب المتوسط سادت الزواحف الضخمة والنباتات الزهرية عاريات البذور ، وفي الحقب السينوزي سادت الثدييات والثدييات الراقية والرئيسيات وآخرها الإنسان

( ١ ) المرجع السابق ص ١٨ ــ ٢٤ .

والنباتات مغطاة البذور[1] .

## جـ ـ أدلة التطور :

سأتناول الآن باختصار الأدلة Evidence التي ساعدت علماء البيولوجيا على الجزم بأن الأنواع المختلفة من النباتات والحيوانات ـ سواء تلك التي تعيش في عصرنا هذا أو التي كانت تعيش في الماضي السحيق نشأت بوساطة عملية التطور ، ولقد استنبط الباحثون هذه الأدلة من سبعة فروع مختلفة من علم البيولوجيا هي :

**١ ـ علم التشريح المقارن Comparative Anatomy .**
**٢ ـ علم الأجنة Embryology .**
**٣ ـ علم التقسيم Taxonomy .**
**٤ ـ علم الحفريات Palaeontology .**
**٥ ـ علم التوزيع الجغرافي للحيوانات والنباتات Biogeography .**
**٦ ـ علم وظائف الأعضاء أو الفسيولوجيا Physiology .**
**٧ ـ علم الوراثة Genetics وعلم استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية Domestication and Selective Breeding .**

ويمكن القول إن الأدلة المستنبطة من فرع واحد قد تكون غير كافية تماما بمفردها ، ولكن لو أخذت الأدلة من جميع الفروع فلربما تكون أكثر تأكيدا لمسألة التطور .

### ١ ـ الأدلة المستمدة من علم التشريح المقارن :

يوجد في جميع الفقاريات منطقة رأس وجذع وذيل وزوجان من الأطراف Limbs ( أو الزعانف Fins في الأسماك ) كما أن الأعضاء الداخلية لجميع الفقاريات ( كالجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والجهاز الدوري ) متشابهة إلى

( ١ ) الشحات ( علي أحمد ) : نظرية التطور بين العلم والدين ، الخانجي القاهرة ص ٥٤ ـ ٧٨ .

حد كبير ، ولكن بالطبع يلاحظ تحورات خاصة لها علاقة وثيقة بطريقة حياة الحيوان . والأعضاء الأثرية ( Vestigial Organs ) وهي أعضاء قزمة لا فائدة لها ، عادة توجد في عدد من الحيوانات ( وأحيانا النباتات ) أقاربها Relatives تحتوي على هذه الأعضاء في صورة كاملة وتؤدي وظيفة ما ، وتمثل هذه الأعضاء دليلا على حدوث التطور مستنبطا من علم التشريح المقارن ، إذ يمكن تفسير وجودها بأنها أجزاء من تصميم عام كان موجودا في الأسلاف ، ولم يختلف تماما بالرغم من أنها قد أصبحت عديمة الفائدة . ومن أمثلة هذه الأعضاء الأثرية الزائدة الدودية ، وضروس العقل ، وعضلات الأذن ، والعضلات التي تحرك الذيل .

**٢ ــ الأدلة المستمدة من علم الأجنة :**

والدليل هنا يعني أن جنين الانسان يمر بكل المراحل الحيوانية . فهو يمر بمرحلة الحيوان الأولي ، فالحيوان متعدد الخلايا البدائي ، فالحيوان ثنائي الطبقات ، فالحيوان ثلاثي الطبقات ( يماثل أحد أفراد مجموعة الديدان المفلطحة ) ، ثم المرحلة السمكية ، ثم المرحلة الثديية ، ثم مرحلة الرئيسيات ( أرقى مجموعة من الثدييات ) ، وأخيرا الصفات البشرية .

**٣ ــ الأدلة المستمدة من علم الحفريات :**

الحفريات عبارة عن بقايا أو آثار الحيوانات والنباتات القديمة محفوظة في الصخور . ويعطينا علم الحفريات دليلا على حدوث التطور ، حيث استطاع علماء الحفريات أن يعرفوا نظام ظهور الأنواع المختلفة من الحياة ويعرف هذا بالتعاقب الجيولوجي . ولقد رأي العلماء وجود تعاقب في السجل الحفري ، من كائنات بسيطة للغاية إلى كائنات أكثر تعقيدا وتخصصا .

وقد دلت الحفريات على تطور الكائنات الحية على الوجة الآتي :

أ ـــ **اللافقاريات** ( Invertebrates ) : تحتوي أقدم أنواع الحفريات على لا فقاريـات فـقـط ، ولقد ظهـرت الحيـاة الحيوانيـة لأول مـرة في الصخـور التابعة للعصر الكامبري Cambrian منذ حوالي ٥٠٥ ملايين سنة ، ومعظم شعب Phyla اللافقاريات تركت بقايا حفرية في العصر الكامبري : الحيوانات الأولية Protozoa والإسفنجيات Sponges والسمك الهلامي Jelli-Fishes ( مثل قنديل البحر ) والديدان Worms والجلد شوكيات Echinod Ermata ( مثل خيار البحر Sea Cucumber ) والرخويات Mollusca والمفصليات Arthropoda ( مثل الحيوانات القشرية Crustacea ) . ويلاحظ أن العلماء لم يتمكنوا من تحديد بدايات ظهور بعض الشعب اللافقارية ، ولكن ازدهار واستمرار ثم ندرة أو انقراض Extinction معظم هذه الشعب سجلت بكل دقة ، فمن المعروف أن شعبة المفصليات كانت ممثلة في العصر الكامبري بالقشريات المائية ثم نشأت العقارب Scorpions ( التي تعتبر أول حيوانات أرضية تتنفس الهواء الجوي ) في العصر السيلوري Silurian Period ( منذ حوالي ٣٦٠ مليون سنة ) وأخيرا ظهرت الحشرات في العصر الكربوني Carboniferous Period ( منذ حوالي ٢٨٠ مليون سنة ) .

ب ـــ **الفقاريات** ( Vertebrates ) : لم يسجل وجود أية حفريات فقارية في العصر الكامبري ، وفي الأوردفيشي Ordovician ( منذ حوالي ٤٢٥ مليون سنة ) ظهرت الأوستراكودرمي Ostracodermi وهي فقاريات منقرضة ليس لها فكوك Jaws ، ثم ظهرت البلاكودرمي Placodermi ( وهي أسماك منقرضة تعتبر أول فقاريات لها فكوك ) في العصر السيلوري ( منذ ٣٦٠ مليون سنة ) ثم ظهـرت الأسماك الغضروفيـة Chondrichthye والأسماك العظميـــة Osteichthyes في منتصف العصر الديفوني Devonian ( منذ حوالي ٣٢٥ مليون سنة ) وبعد ذلك ظهرت البرمائيات Amphibia ( التي تعتبر أول فقارية

أرضية ) في نهاية العصر الديفوني ، ثم ظهرت الزواحف Rejetilia ( تطورت من البرمائيات ) في منتصف العصر الكربوني ( منذ حوالي ٢٥٥ مليون سنة ) . وبعض أنواع الزواحف هي التي تطورت لتعطينا الطيور Aves ، وبعضها الآخر تطور ليعطينا الثدييات Mammalia .

وفيما يتعلق بتطور الإنسان ، فإن سجل تطور الجنس البشري يتضمن مجموعة من الأشكال اقتربت تدريجيا من هيئة الإنسان الحالي ، ويمكن اعتبار إنسان جنوب إفريقيا القرد Australopithecus Africanus أول نوع مشابه للإنسان ، ولقد عاش هذا النوع منذ حوالي مليون سنة وكان قصيرا نسبيا وبه شبه بالقرد الكبير من حيث شكل وصفات الجسم . ولقد اكتشفت عدة حفريات من هذا النوع في أفريقيا . ويعتقد معظم العلماء الآن أن هذا النوع يتميز بصفات عائلة الإنسان وعائلة القرد ، وبذلك لا يمكن اعتباره قردا أو إنسانا ، وكان حجم مخه يساوي تقريبا نصف حجم مخ الإنسان الحالي ، وكان يستطيع أن يصطاد الحيوانات ليأكلها بواسطة أسلحة حجرية . أما النوع الذي يعتبر فعلا إنسانا فيسمى إنسان كرومانيون Cro-magnon الذي عاش من ٣٢٠٠٠ سنة إلى ١٥٠٠٠ سنة ، ولقد كان هذا النوع طويلا ومنتصب القامة وذكيا نسبيا . ولقد اكتشفت حفريات هذا النوع في كهوف بوسط فرنسا ، ولاحظ العلماء في هذه الكهوف وجود بقايا حضارة على هيئة أسلحة وعاج منحوت ، بل إن هذا النوع كان يتمتع ببعض الموهبة الفنية لوجود رسومات وصور زيتية لحيوانات ( انقرض معظمها الآن ) على جدران الكهوف التي عاش فيها هذا النوع . ولقد اكتشف علماء الحفريات عددا من الأنواع المتوسطة بين الرجل القرد الإفريقي وإنسان كرومانيون ، من هذه الأنواع الإنسان القرد الجاوي Jafa Ape Man ( نسبة إلى جزيرة جاوة بأندونيسيا ) ، وإنسان بكين Pecking Man ( الذي اكتشفت بقاياه في الصين ) ، وإنسان

هايدلبرج Heidelberg Man ( الذي اكتشفت حفرياته في ألمانيا ) وإنسان نياندرثال Neanderthal ( الذي اكتشف في وادي نياندرثال بالقرب من دوسيلدورف بألمانيا ) ومازالت الاكتشافات بخصوص هذا الموضوع تتوالى حتى الآن .

أما الإنسان الحديث فيسمى Homo-Sapiens أو الإنسان العاقل وقد بدأ ظهوره منذ حوالي ١٢٠٠٠ سنة فقط والتغيرات التي أدت إلى تكوينه كانت عقلية أكثر منها جسمانية ، وبمعنى آخر أدت العمليات التطورية إلى زيادة قوة العقل وليست قوة البدن . ولقد مكن ذكاء الإنسان من أن يكيف نفسه حسب البيئة ويتحكم فيها ، وبذلك أصبح الإنسان الحيوان السائد في الأرض في العصر الحديث . وعلماء التطور لا يقولون إن الانسان انحدر من القرد كما يعتقد عامة الناس وإنما يعتقدون أن الإنسان والقرد كان لهما سلف مشترك .

**٤ ــ الأدلة المستمدة من علم التوزيع الجغرافي للكائنات الحية :**

كان علم التوزيع الجغرافي هو أول ما استرعى تفكير « دارون » لاحتمال نشوء الأنواع المختلفة من الحيوانات والنباتات بوساطة التطور . ويرى العلماء أن نظرية التطور تعتبر أحسن تفسير منطقي لطريقة توزيع الكائنات الحية في كوكب الأرض .

وهناك مبدآن تبني عليهما أدلة توزيع الكائنات الحية جغرافيا هما :

أ ــ أن أسلاف المجموعات ذات القربى نشأت أولا في منطقة معينة يمكن تسميتها المركز المشترك للنشوء .

ب ــ حدوث هجرة Migration الكائنات الحية من هذا المركز المشترك لأسباب مختلفة . وتحدد العوائق الجغرافية ( مثل سلاسل الجبال أو المساحات الكبيرة من الماء ) اتجاه هذه الهجرة ، ويلاحظ أن نقل الإنسان للحيوانات

والنباتات قد أفسد ترتيب توزيعها الطبيعي في الآونة الأخيرة من العصر الحديث ( منذ حوالي ٦٠٠٠ سنة مثلا ) .

**أما أهم الأدلة المستمدة من علم التوزيع الجغرافي فهي :**

**أولا** : توجد مناطق متعددة فوق سطح الأرض يمكن اعتبارها أماكن مناسبة جدا لمعيشة أنواع كثيرة من الحيوانات ومع ذلك فهي خالية تماما منها ، فلو كانت الحياة الحيوانية قد أتت إلى الوجود بواسطة الخلق الخاص فلماذا لا تحتوي جميع الأماكن المناسبة لمعيشة أنواع معينة من الحيوانات عليها ؟ وبالطبع لا يجد العلماء تفسيرا لهذا التساؤل إلا في ضوء تفسير تطوري .

**ثانيا** : من المعروف أن كلا من المناطق المتعددة من العالم تتميز بوجود مجموعة معينة من الأنواع المختلفة من الحيوانات Fauna تختلف عن مجموعات الأماكن الأخرى حتى لو كان الطقس والعوامل البيئية الأخرى لهذا المنطقة تشبه المناطق الأخرى ، فمثلا مجموعة حيوانات قارة إفريقيا تختلف عن تلك الموجودة في أمريكا الجنوبية بالرغم من تشابه القارتين في الطقس وفي معظم العوامل البيئية . وفي ضوء تفسير تطوري يمكن أن يقال إن هذه المناطق بعيدة عن بعضها وتفصلها حواجز طبيعية مثل المحيطات ولذلك تطورت كل مجموعة على انفراد ، وحينما تكون أماكن الأرض الكبيرة منفصلة عن بعضها البعض منذ ملا ين السنين تكون مجموعة الحيوانات بأكملها مختلفة تماما في كل منها ، وبالعكس فإن حيوانات الأماكن المجاورة أو التي لا تفصلها حواجز طبيعية يشبه بعضها بعضاً إلى حد كبير .

**٥ ـ الأدلة المستمدة من علم وظائف الأعضاء :**

يتكون البروتوبلازم Protoplasm ( وهو المادة الحية التي تكون أجسام جميع الكائنات الحية ) أساسا من مادة واحدة في كل العالم الحي Living World فهو

يحتوي تقريبا على نفس العناصر Elements متحدة مع بعضها البعض مكونة تقريبا نفس النسب من البروتينات Proteins والدهون Fats والمواد الكربوأيدراتية Carbohydrates والماء ومواد أخرى . ولقد وجد العلماء أن الوظائف الأساسية للبروتوبلازم متشابهة في كل الكائنات الحية مع وجود استثناءات قليلة . وبعبارة أخرى تتشابه جميع الحيوانات أساسيا في عملية التحول الغذائي Metabolism والحساسية أو الانفصال Irritability والتكاثر Reproduction وغيرها بالرغم من وجود اختلافات كثيرة في تفصيلات هذه العلميات ، ولذلك كان من المنطق أن يفترض أن جميع الحيوانات قد انحدرت من جهاز بروتوبلازمي سلفي Ancestral كانت له جميع هذه القدرات الأساسية .

ودراسة الإنزيمات Enzymes والهرمونات Hormones دليل آخر فمثلا إنزيم التربسين Trypsin ( الذي يهضم البروتينات ) يوجد في مجموعات كثيرة من الحيوانات ابتداء من الأوليات Protozoa ( وهي أبسط أنواع الحيوانات ويتكون جسمها من خلية واحدة مثل الأميبا Amaeba ) حتى الثدييات .

والخلاصة أن التشابه بين مختلف أنواع الحيوانات في الخواص الفسيولوجية والكيميائية الحيوية Bio-Chemical يطابق التشابه بين تركيب الأعضاء الداخلية والشكل الخارجي والمواد الكيميائية الموجودة في أجسام الحيوانات العليا يمكن تتبع منشئها في الحيوانات الدنيا ، وهذا يؤيد أن لها أصلا مشتركا .

**٦ ــ الأدلة المستمدة من علم الوراثة :**

علم الوراثة هو دراسة التشابه والاختلاف بين الأجيال المتعاقبة . وبتقدم علم الوراثة والخلية Cytogemetics وضحت للعلماء النقاط الأساسية في سلوك الكروموسومات والعمليات الوراثية اللازمة لفهم بعض عمليات التطور .

ويمكن تلخيص وتبسيط هذه النقاط فيما يأتي :

١ ــ توجد الكروموسومات داخل أنوية الخلايا وهي تحمل في ترتيب خطي الجينات المسئولة عن تكوين الصفات المميزة للفرد .

٢ ــ الانقسام الاختزالي Meiosis or Reduction Division الذي يحدث فقط في أثناء تكوين الجاميتات Gametes ( أي البويضات Ova أو الحيوانات المنوية Spermatozoa ) يفصل أزواج الكروموسومات المتماثلة ويختزل عددها إلى النصف في كل جامية .

٣ ــ علمية الإخصاب ( وهي عملية الاتحاد الجزافي للبويضة والحيوان المنوي ) تؤدي إلى تكوين تشكيلات من الكروموسومات ( وبالتالي الجينات ) من أب وأم مختلفين ، وهذا يؤدي بالطبع إلى إنتاج أفراد لها اتحادات جينية مختلفة .

٤ ــ يحدث أحيانا ما يعرف بالطفرة Mutation وهي تغير فجائي في الصفات الموروثه يؤدي إلى مواليد جديدة مختلفة عن الأبوين وذلك بسبب تحورات طارئة على الجينات .

ولقد كان عالم النبات الهولندي ديفريز De Vries ( ١٨٤٨ ــ ١٩٣٥ ) أول من سجل حدوث الطفرة ، ففي أثناء دراساته على نو ع من زهرة الربيع يسمى Oan there اكتشف حدوث تغيرات مفاجئة ذات أهمية كبيرة في أحد الأجيال ، وسمى « ديفريز » هذه التغيرات المفاجئة والمتوارثة (أي تتوارثها الأجيال التالية ) طفرات ، واعتقد أن بعض الأفراد التي حدثت فيها الطفرة هي أنواع جديدة تكونت بوساطة خطوة واحدة ، ولذلك آمن بأن التطور يحدث نتيجة للطفرات . ومنذ عهد « ديفريز » حتى الآن لاحظ الباحثون حدوث طفرات في عدد كبير من الحيوانات والنباتات في المعمل ، ولذلك لا يعتريهم شك في حدوثها باستمرار في الكائنات الحية في بيئتها الطبيعية . ولقد سجلوا حوالي ألف طفرة في ذبابة الفاكهة « دور سوفيلا » فقط . ويوجد

نوعان من الطفرات : طفرات صغيرة Micromutations وطفرات كبيرة Macromutations ، والطفرات الصغيرة هي الأكثر شيوعا ، وتحدث في « جين » واحد فقط ، أما الطفرات الكبيرة فتحدث في مجموعة من الجينات ، وهي تؤدي إلى تغيرات كبيرة ومفاجئة ، مثل الأصابع الزائدة في القطط والأرجل الصغيرة في الأغنام . ويعتقد معظم علماء البيولوجيا أن الأنواع المختلفة من الكائنات الحية نشأت بوساطة تجمع عديد من الطفرات الصغيرة وليس بوساطة طفرة كبيرة أو أكثر ، ولذلك فمن المشكوك فيه كثيرا أن نوعا جديدا يتكون في جيل واحد ، وإنما الأقرب إلى المنطق أن يقال إن عدة طفرات دقيقة للغاية ( لدرجة أنها قد لا تدرك بالحس ) تحدث ثم تتجمع بوساطة عملية الانتخاب الطبيعي حتى يتكون نو ع جديد من الكائنات الحية . ويلاحظ أن الطفرات تحدث جزافا في الطبيعة وكذلك بوساطة العوامل المسببة للطفرة Mutagenic Agents ( مثل المواد الكيميائية أو الإشعاعات ذات الطاقة الكبيرة ) . ولا توجد أية علاقة بين الطفرات وبين احتياجات الكائنات الحية ، ولا يمكن التنبؤ بحدوث الطفرات ؛ وبعض الطفرات يكون مفيدا للكائن الحي ، وبعضها الآخر يكون ضارا ، وبعضها يكون محايدا ( أي ليس بضار وليس بنافع ) .

والخلاصة هي أن الجينات تكون ثابتة وتتوارث في الأجيال القادمة حسب قواعد يمكن معرفتها مقدما ، ولذلك فهي تميل لجعل أنواع الكائنات الحية ثابتة Constant ولكن الجينات تستطيع أن تقوم بالطفرات ولذلك تتغير إحدى الصفات في جيل ما ، وهذا التغير تتوارثه الأجيال القادمة ، ولذلك يمكن القول بأن الطفرات تكون قاعدة الاختلاف المتوارث ، ويمكن اعتبارها المادة الخادمة لعملية التطور .

## ٧ ـ الأدلة المستمدة من علم استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية :

ومسألة التطور يمكن الاستدلال عليها من فرع آخر من علوم البيولوجيا وهو استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية Domestication and Selection Breeding فمن المعروف أن الجنس البشري بدأ منذ آلاف السنين في استئناس الأنواع البرية وذلك لأجل رفاهيته ، وخلال هذه الآلاف من السنين تكونت أشكال مميزة من الحيوانات والنباتات تختلف اختلافا واضحا عن أسلافها البرية . ومن الممكن في بعض الأحيان تحديد النوع البري الأصلي الذي انحدرت منه السلالات المختلفة المستأنسة . فمثلا انحدرت السلالات العديدة من الدجاج المستأنس من دجاجة الغابة الشرقية Oriental Jungle Fowl وفي الواقع تكون الاختلافات بين أشكال السلالات الحديثة وبين أسلافها عظيمة للغاية ، خصوصا لو وضع في الاعتبار أن عملية الاستئناس قد حدثت فقط خلال آلاف قليلة نسبيا من السنين ، وبذلك يمكن القول بأن الجنس البشري قد قام بعملية تطور بالمعنى الحقيقي تماما . ولقد قام الإنسان بهذا العمل بوساطة عمليات مستمرة للانتقاء الصناعي Artificial Selection مختارا الأشكال التي تتصف بصفات مميزة مرغوب فيها من وجهة نظره ، وبذلك يمكن القول بأن الإنسان رتب لعملية « البقاء للأصلح » باختياره بعض الأشكال للبقاء على قيد الحياة Survival والتناسل ، ورفضه لأشكال أخرى بها صفة أو صفات لا يرغب فيها الإنسان . ولقد اعتبر « دارون » التطور بوساطة علمية الانتقاء الصناعي هذه مناظرا Analogous تماما للتطور في الطبيعة .

ولكن يجب أن يلاحظ أنه في الطبيعة لا يحدث تزاوج ناجح بين نوعين مختلفين إلا في احوال نادرة جدا . أما الأنواع التي تكونت بوساطة الانتقاء الصناعي للانسان فإنها قابلة للتهجين Interfertile أي للتزاوج بين بعضها البعض ، وبمعنى آخر إنه بالرغم من الاختلافات الواضحة بين نوعين من

الدجاج أو نوعين من الكلاب فإنه يمكنهما التزاوج فيما بينها لتنتج ذرية مخصبة Fertile Offspring . وفي الحقيقة هذا هو السبب في تسمية هذه الأشكال من الحيوانات المستأنسة بسلالات Breeds أو أصناف Varieties ولا تسمى أنواعا Species مختلفة ، هذا بالرغم من أن الاختلافات بينها قد تكون كبيرة لدرجة أن هذه الأشكال لو كانت اكتشفت في الطبيعة لاعتبرت أنواعا مختلفة . بل قد تكون هذه الاختلافات أكبر من الاختلافات الموجودة بينْ نوعين مختلفين . ويجب الأخذ في الاعتبار أن أحد مقاييس الإنسان للاحتفاظ بالسلالات هو الإخصاب ، وربما كانت القابلية للتهجين نتيجة لهذا الانتقاء الصناعي ، وفي بعض أنواع السلالات المستأنسة تبدأ في الظهور علامات عدم الإخصاب بين سلالتين مختلفتين ، فمثلا لا يمكن إجراء تزاوج بين نوع صغير جدا من الكلاب ونوع كبير منها ، وبعد مئات عديدة من الأجيال ربما يصبح هذا التعارض عظيما لدرجة أن يتكون حاجز وراثي بارز بين بعض أصناف الكلاب ، ولو حدث ذلك في المستقبل فإن الإنسان يكون قد أنتج نوعا Species جديدا ، أي أحدث تطورا بمعرفته وتحت إرشاده .

وخلاصة القول إن تكوين أصناف جديدة من الكائنات الحية بوساطة عملية الاستئناس والتربية الانتقائية يوضح نوع وحجم التغير الذي يمكن أن يحدث في الطبيعة في صفات الحيوانات والنباتات بمرور الزمن ، فإذا كان هذا التطور قد حدث بمعرفة الإنسان في وقت قصير للغاية نسبيا ( بضعة آلاف من السنين ) فعلينا أن نؤمن بأن تغيرات أكثر تأثيرا يجب أن تكون قد حدثت في جميع الكائنات الحية خلال فترة طويلة للغاية من الزمن منذ نشأة الحياة فوق سطح الأرض[١] .

---

(١) دارون : أصل الأنواع ، مواضع متفرقة ، ود. علم الدين كمال : تطور الكائنات الحية ــ عالم الفكر ص ٩٥٥ ــ ٩٧٨ .

## « الفصل الثالث »

# تفسير التطور

### أ ـ مقدمة :

إن فكرة التطور فكرة قديمة ، فهي على حد قول الفيلسوف الدانمركي هوفدينج ( Harold Hoffding ) من أقدم تكهنات الفكر الإنساني[1] . فلقد عرفت فكرة التطور عند فلاسفة الإغريق من أمثال أناكسمندر Ainaxmander وأمبدوقليس وأرسطو Aristatle[2] وثيوفارستوس[3] ، ومنذ القرن السابع عشر الميلادي كتب وتكلم في انجلترا كل من راي Ray وهوك Hooke وارازموس دارون Erasomus Darwin ( جد تشارلز دارون ) ، وفي فرنسا دومايية De Maillet وبيفون Buffon وقد قدر لتشارلز دارون أن يأتي بالدلائل النظرية التي أرست أسس مذهب النشوء والارتقاء ومن هنا كانت نظريته هي أهم النظريات وأكثرها ذيوعا وانتشارا .

وقد كانت هناك مدرستان أو أسلوبان لتعليل التطور وتفسيره يسيران جنبا إلى جنب ، واحدة هي تحليل التركيب الطبيعي للعالم ، والثانية هي دراسة عمليات الحياة بدقة وتنوعها وتذبذب دوراتها من الحياة إلى الموت بالنسبة للفرد وللنوع ، ولم تلتق هاتان المدرستان إلا عند ظهور نظرية التطور لأنه حتى ذلك الحين كان هنالك تعارض لم يكن من الممكن حله[4] .

---

( ١ ) كاردينر وبريل : هؤلاء درسوا الإنسان ، ترجمة د. أمين الشريف دار اليقظة العربية ــ بيروت سنة ١٩٦٤ ص ٢٣ .

( ٢ ) Guthrie, W. K. C: The Greek Philosophers from thales to Aristatle, Great Britain, 1976, PP. 28, 53, 140, 144.

( ٣ ) Encyclopaedia Britannica Vol 11, 1958, London .

( ٤ ) برونوفسكي ( ج ) : ارتقاء الإنسان . ترجمة د. موفق شخاشيرو ، الكويت سنة ١٩٨١ ص ٢٢٣ .

تنحو المؤلفات التي تعالج موضوع التطور البيولوجي منحيين ، وقد تجمع بينهما في كثير من الأحيان . فأولهما هو الحديث عن التطور نفسه فكرته والكلام عنها من الناحيتين التاريخية والفلسفية ، ثم الأدلة المؤيدة لحدوثه ، بينما يعالج ثانيهما طريقة حدوثه(١) .

ويمكن القول بأننا لا نجد اليوم بين المشتغلين بدراسة التطور خلافا جوهريا على فكرته وأدلته ، بينما هم يذهبون كل مذهب بالنسبة لطرائقه ، وخلافهم فيها لا نهاية له(٢) .

هذا ويمكن تصنيف المهتمين بقضية التطور إلى فئتين هما : الحيويون والآليون Mechanists وإذا رجعنا إلى قاموس الفلسفة وجدنا تعريف الفلسفة الحيوية بأنها المذهب القائل بأن لظاهرات الحياة طبيعة منفردة تجعلها مختلفة جذريا عن الظاهرات الفيزيائية الكيميائية . إن معتنقي هذه الفلسفة يقولون بأن مرد الحركة في الكائنات الحية هو « قوة حيوية » كتلك التي يدعوها درايش Driesh « نزعة الكمال » أو ما يدعوه برجسون Bergson بالدافع الحيوي . ويقابل الفلسفة الحيوية مذهب الآلية البيولوجية الذي يؤكد أنه يمكن تفسير جميع الظاهرات الحية بوساطة المفاهيم الفيزيائية الكيميائية دون غيرها(٣) .

## ب ــ نظريات التطور :

كان القرن التاسع عشر قرن نظريات التطور ، وقد شملت بعض هذه النظريات الكون كله ، وعرفت هذه النظرية بنظرية التطور الكوني العام Theory of Cosomosic Evolution ، وشمل بعضها الكائنات الحية وعرفت هذه

---

(١) كانون ( جراهام ) : نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣ .
(٣) كيمني ( جون ) : الفيلسوف والعلم ، ترجمة د . أمين الشريف ، بيروت سنة ١٩٦٥ ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

باسم نظرية التطور العضوي Organic Evolution .

### ١ ــ التطور الكوني العام :

كان هربرت سبنسر H. Spencer ( ١٨٢٠ ــ ١٩٠٣ ) في مقدمة الدعاة إلى نظرية التطور الكوني العام ، وقد عرض نظريته في كتابه « المباديء الأولى First Principles » الذي نشر لأول مرة سنة ١٨٦٠ أي بعد نشر كتاب دارون « أصل الأنواع » بسنة واحدة فقط . وهذا الكتاب ملخص للمعارف الكونية كان ينوي التوسع فيه خلال السنين اللاحقة بإضافة جميع المعلومات المتعلقة بالحياة والفكر والمجتمع . وقد صمم هذا الكتاب بحيث يظهر الترتيب المنظم في أفعال الطبيعة من تطور المجرات إلى تطور الانفعالات البشرية[١] .

ولا يمكن أن يقال إن « سبنسر » قد استفاد من « دارون » حتى في نظريته عن التطور العضوي . إذ الواقع أن طرافة « سبنسر » وإضافته لم تكن في مجال التطور العضوي بمقدار ما كانت في مجال التطور الكوني العام . ولهذا كان أقرب إلى المذهب الفلسفي من « دارون » الذي حصر اهتمامه في مشكلة أصل النبات وأنواع الحيوان .

يرى « سبنسر » أن العالم ككل إنما يعبر عن عملية تطورية هائلة ، وأدوات هذه العملية إنما توجد في المادة « والحركة » « والقوة » وهي في ذاتها ليست حقائق نهائية ، ولكنها تمثل حدود معرفتنا التي لا تستطيع أن تتجاوز نطاق الظواهر ، ولكن في مقدورنا مع ذلك أن نستدل على مالا يمكن معرفته ، وهي قوة لا تدرك ، هي مصدر الظواهر التي أهمها جميعا « قانون التطور » فهو أعم القوانين وأشملها ، ومهمة الفلسفة البحث عن صيغة لهذا القانون مادام العالم ينتج من توزيع وإعادة توزيع المادة والحركة والقوة ، إذ يقضي قانون التطور

---

( ١ ) كاردينر وبريل : هؤلاء درسوا الإنسان ص ٤٦ .

بأن يبدأ كل شيء ظاهرة بسيطة فتلتئم حولها بالضرورة ظواهر أخرى ، فتركب كلا أعقد ثم كلا أكثر تعقيدا . ولقد صاغ « سبنسر » قانون التطور صياغة غامضة على النحو التالي :

التطور هو تكامل المادة وما يصاحبها من تشتت الحركة ، وخلال هذا التكامل وهذا التشتت تنتقل المادة من حالة التجانس غير المتعين وغير المترابط إلى تنافر أولا تجانس متعين ومترابط ، وفي أثناء ذلك يطرأ على الحركة المحفوظة تحول مواز للتحول السابق(١) .

ومعنى هذا أن كل ما في الكون من الأشياء المادية والعضوية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية ناتج من تجمع الأجزاء المتجانسة تجمعا يحد من حركتها ويقيدها ويشتت قوتها ، فيؤدي بها إلى التباين في الصور والتنوع ، ثم إلى التنافر والانحلال والموت ، ثم إلى التجمع كرة أخرى ، وهكذا ...

فمن تجمع الذرات المادية تتكون الحجارة والجبال ، ومن تجمع قطرات الماء تتكون البحار ، ومن تجمع الأفراد تتكون الأسر ، ومن الأسر تنشأ القبائل ، ومن القبائل تتكون الدولة ، ومن العادات تتكون الأخلاق والنظم والأديان ، ومن تعدد الآلهة نشأ التوحيد ، ومن تجمع الأحساسيس تتكون الأفكار والمعارف الجزئية ، ومن المعارف الجزئية يتكون العلم ، ومن تجمع العلوم تتكون الفلسفة .

أما تطور الأحياء فإنه يسير كما قال « دارون » وغيره على أساس التوفيق والملاءمة بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها والضرورات والحاجات التي تساعده على الحياة والبقاء . وبحكم هذه الضرورات والحاجات تكونت أعضاء الحيوانات وحواسها ، حتى العقل وما فيه من الأفكار التي نسميها فطرية قد نشأ من هذا التطور . فأصل الغرائز انعكاسات متراكمة ، وعادات

(١) إمام ( إمام عبد الفتاح ) : مدخل إلى الفلسفة ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

مستحكمة ومن الغرائز تكون العقل . وما صور الفكر الفطرية كقانون العلية وصيغ الزمان والمكان إلا طرائق غريزية للتفكير ، كسبها الجنس فأضبحت على كر الزمان راسخة فيه رسوخ الفطرة(١) .

ويلاحظ على نظرية « سبنسر » أنها في حقيقتها عبارة عن وصف جميل لبعض الواقع المشاهد من صور الوجود أكثر مما هي تعليل لنشأة هذا الواقع الموجود . فقد قال « برجسون » عن فلسفة « سبنسر » التطورية إنها تنحصر في إعادة تركيب التطور بأجزاء من الأشياء المتطورة . بل إنه يشبهه بالطفل الذي يعيد تركيب ما قطعه من ورق مقوى بحيث يعيد تكوين الصورة في إحدى لعب التسلية(٢) .

### ٢ ــ نظريات التطور العضوي :

سأتناول هنا باختصار وتبسيط أهم النظريات التي تشرح العوامل التي أدت إلى حدوث التطور . وأجدر هذه النظريات بالذكر نظرية «لامارك» عن توارث الصفات المكتسبة Lamarcks Theory of the Inheritance Acquired Charactristics ونظرية « دارون » عن الانتخاب الطبيعي Darwin's Theory of Natural Selection والنظرية التركيبية الحديثة Modern Synthetic Theory وأي نظرية شاملة للتطور يجب أن تأخذ في الاعتبار العوامل الداخلية Internal Factors العوامل الخارجية External Factors وتشمل العوامل الداخلية التوارث والاختلاف والتكاثر والتكوين ، أما العوامل الخارجية فهي جميع الظروف البيئية التي تؤثر في الأفراد والجماعات .

---

(١) الجسر ( الشيخ نديم) : قصة الإيمان ص ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٢) برجسون ( هنري ) : التطور الخالق . ترجمة د. محمود قاسم دار الفكر العربي سنة ١٩٦٠ ص ٤١١ ــ ٤١٢ .

### أ ـــ نظرية لامارك عن توارث الصفات المكتسبة :

وضع لامارك ( ١٧٤٤ ـــ ١٨٢٩ ) أول نظرية عامة عن التطور ، ولقد كان لامارك عالما فرنسيا في البيولوجيا بدأ حياته كباحث في علم النبات ثم أصبح باحثا في علم الحيوان ، وخصوصا في علم التشريح وعلم التقسيم . وفي عام ١٨٠١ وضع فكرة عامة لنظريته ثم وضعها بالتفصيل عام ١٨٠٩ في كتابه « فلسفة علم الحيوان » ودافع لامارك عن نظريته بقوة حتى مماته ، وبسببها قاسي الكثير ونبذ من المجتمع ، ولم يستطع أن يقنع العلماء المعاصرين له ، ليس فقط لأن الشعور العام في عصره كان ضد التطور وإنما أيضا بسبب عدم قابلية بعض أفكاره للتصديق . ولقد تأثر لامارك ببعض اراء العالم الفرنسي بيفون Buffon وأهم من هاجم نظرية لامارك هو العالم الفرنسي كوفييه Cuvier ( ١٧٦٩ ـــ ١٨٣٢ ) أبرز علماء الحيوان في ذلك العصر ، وكان يعارض بشدة فكرة التطور .

ويمكن تلخيص نظرية لامارك فيما يأتي : البيئة تؤثر في شكل الحيوانات وتركيب أعضائها ، والاستعمال المتكرر أو المستمر لأي عضو يزيد في حجمه ، بينما يؤدي عدم الاستعمال الدائم له إلى ضعفه وصغر حجمه حتى يختفي ، وجميع الصفات المكتسبة التي تتكون بتأثير البيئة ، أي بوساطة الاستعمال أو عدم الاستعمال تبقى بوساطة عملية التكاثر ، وبمعنى اخر جميع التحورات Modifications التي تحدث خلال حياة الحيوان ستتوارث بوساطة ذريته ، ويحدث تجمع هذه التحورات البسيطة بمرور الزمن نوعا آخر من الحيوانات . ولقد كان لامارك يعتقد أن الكائنات الحية وأجزاءها المختلفة تميل باستمرار للزيادة في الحجم كما كان يؤمن بأن الحيوانات بطريقة ما تحدد وجهة سير تطورها .

وخلاصة القول : تعتمد نظرية لامارك ـــ أساسا ـــ على الافتراض بأن الصفات المكتسبة تتوارث بوساطة الذرية وبذلك تكون تغيرات تطورية .

ولقد صادفت نظرية لامارك نقدا مرا ، لأن الصفات المكتسبة لا تتوارث ، ومن هنا كان لب النظرية مخطئا تماما . ولا تجد هذه النظرية رواجا إلا في الاتحاد السوفيتي ، ويبدو أن سبب ذلك عقائدي Ideological أكثر من أن يكون علميا[١] .

---

( ١ ) عبد العليم ( د. أنور ) : قصة التطور ص ٤٠ ـــ ٤٨ ، ود. علم الدين كمال : تطور الكائنات الحية - مجلة عالم الفكر ص ٩٧٩ - ٩٨٠ ، ود. محمد سعيد رمضان البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

### ب ـــ نظرية دارون عن الانتخاب الطبيعي :

كان تشارلز دارون ( ١٨٠٩ ـــ ١٨٨٢ ) عالما إنجليزيا في البيولوجيا ، وتنسب إليه نظرية التطور العضوي ، على الرغم من أن له شريكا في هذه النظرية هو « ألفرد رسل والاس » الذي بعث إلى « دارون » رسالة في يونيو سنة ١٨٥٨ فيها تلخيص لأصل الأنواع . وأهم الكتب التي تناول فيها « دارون » نظرية التطور : كتاب « أصل الأنواع » الذي نشره سنة ١٨٥٩ ، وكتاب « تحدّر الإنسان » الذي نشره عام ١٨٧١ .

ونظرية دارون تنبني على ثلاثة مباديء يمكن ملاحظتها في الطبيعة واستنتاجين استنبطهما من هذه المباديء . المبدأ الأول هو ميل Tendency جميع الكائنات الحية للازدياد في العدد بنسبة هائلة للغاية ( وقد تأثر في هذا المبدأ برسالة « مالتوس » حول السكان ) ويرجع ميل الكائنات إلى الزيادة لحقيقة أن الأطوار المبكرة من الذرية تكون دائما أكثر بكثير من آبائها ، سواء أكان التكاثر جنسيا Sexual أم غير جنسي Esexual . والمبدأ الثاني الذي لاحظه دارون في الطبيعة هو أنه بالرغم من هذا الميل للزيادة المتدرجة فإن عدد كل نوع من الحيوانات يظل في الحقيقة ثابتا تقريبا ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن عددا كبيرا من الأفراد يهلك بوساطة الأعداء أو الأمراض أو التنافس أو المناخ ... إلخ .

ومن هذين المبدأين استنتج دارون استنتاجه الأول : « التنازع على البقاء Struggle for Existence » فلما كان عدد الصغار التي تتكون أكثر بكثير من التي تستطيع أن تظل على قيد الحياة فيجب أن تكون هناك منافسة في سبيل البقاء ، ولقد اعتقد «دارون » بأن التنازع في سبيل البقاء يكون على أشده بين أفراد النوع الواحد ، لأنها تتنافس على نفس احتياجات الحياة ، ولا يعني هذا التنازع عند « دارون » قتالا حقيقيا بين الأفراد .

أما المبدأ الثالث الذي لاحظه دارون فهو الاختلاف Veriation ؛ فأفراد كل نوع من الحيوانات والنباتات تختلف عن بعضها البعض اختلافا يمكن إدراكه ، ولقد اعتبر هذا الاختلاف بأنه صفة متأصلة للبروتوبلازم ( المادة الحية ) لأنه وجده في جميع مجموعات الكائنات الحية ، ففي الحيوانات التي تتكاثر جنسيا لا يوجد فردان من نوع ما متشابهين تماما باستثناء التوائم المتماثلة ، وأفراد كل نوع تختلف عن بعضها البعض في الحجم والتركيبات الخارجية والداخلية والفسيولوجيا والعادات . ولم تكن قوانين الوراثة معروفة في عصر دارون ، ولذلك لم يستطع أحيانا أن يفرق بين الاختلافات المتوارثة Heritable ( وهي المهمة في عملية التطور ) وغير المتوارثة ( وهذه تتكون نتيجة لاختلاف الطعام أو درجة الحرارة أو العوامل البيئية الأخرى ) ، ولقد لاحظ دارون أن الاختلاف يكون أوضح في الأنواع المستأنسة من نوع ما( التي أنتجها الإنسان ) انحدرت في الأغلب من نوع سلفي Ancestral واحد . وبعد أن وضح دارون التنوع الكبير بين السلالات المستأنسة التي أنتجها الإنسان بوساطة الانتقاء الصناعي للاختلافات الصغيرة افترض أن الاختلافات المتوارثة البسيطة في الأنواع البرية كانت مواد لعمليات التطور في الطبيعة .

ومن الاستنتاج الأول والمبدأ الثالث استنتج دارون استنتاجه الثاني والأخير وهو الانتخاب الطبيعي Natural Selection فحيث أنه يوجد تنازع على البقاء بين الأفراد ، ولما كانت هذه الأفراد غير متشابهة تماما فستكون بعض الاختلافات مفيدة في الصراع وبعضها غير ملائمة ، ونتيجة لهذا ستبقى على قيد الحياة نسبة أعلى من الأفراد التي بها اختلافات ملائمة ، بينما ستموت أو تفشل في التكاثر نسبة أعلى من الأفراد التي بها اختلافات غير ملائمة ولما كان أكثر الأفراد ملاءمة هي التي سوف تبقى على قيد الحياة استعمل دارون التعبير التالي : « البقاء للأصلح Survival of the fittest » وبذلك يكون للتنازع على

البقاء تأثير انتقائي في إزالة الأفراد غير اللائقين والاحتفاظ بالأفراد اللائقين ، ولما كانت الأفراد الأصلح فقط هي التي سوف تبقى فإنها سوف تخلد الصفات التي تجعلها أكثر ملاءمة ، وبذلك تمررها لذريتها . وبذلك يمكن القول بأن الانتخاب يعمل باستمرار على المحافظة على ضبط الكائنات الحية لبيئتها الخارجية وطريقة حياتها[1] .

## جـ ـــ الداروينية الجديـدة :

يؤيد معظم علماء البيولوجيا نظرية الانتخاب الطبيعي لدارون ويؤمنون بأنها أفضل تفسير عام للتطور . وبخاصة عندما تفسر في ضوء الاكتشافات الحديثة في الفروع المختلفة من البيولوجيا وبخاصة علم الخلية وعلم الوراثة . ولفترة من الزمن عرف هذا التفسير الحديث المبني على المعلومات الحديثة بالداروينية الجديدة New-Darwinism .

وتعتمد الدارونية الجديدة على مفاهيم الطفرة والاختلاف ومجموعة الأفراد Population والتوارث Inheritance والعزلة Isolation والنوع Species ولقد استبدل باسم الداروينية الجديدة في السنوات الأخيرة اسم النظرية التركيبية الحديثة .

والنظرية التركيبية الحديثة ليست من عمل عالم واحد كما أنها لم تنشأ في صورة كاملة وإنما تطورت ببطء خلال الخمسين عاما الأخيرة ومازالت حتى الآن في اطراد . ويمكن تلخيص هذه النظرية في النقاط التالية :

---

(١) دارون ( تشارلز ) : أصل الأنواع ، ترجمة إسماعيل مظهر ، بيروت . مواضع متفرقة ود. أنور عبد العليم : قصة التطور ٥٦ ـــ ٧١ والشيخ نديم الجسر : قصة الايمان ١٨٥ ـــ ١٨٧ . ود. البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٠ ـــ ٢١٢ وعبد اللطيف البري : التعارض بين الدين والعلم ص ٥٢ ، دار التراث ـــ بيروت وجراهام كانون : نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٥٠ ود. علم الدين كمال : تطور الكائنات الحية ـــ عالم الفكر ص ٩٨٢ ـــ ٩٨٣ وكاردينر وبريل : هؤلاء درسوا الإنسان ص ١٨ ـــ ٢٧ .

١ ــ النظرية في أبسط صورها ــ يمكن تعريفها بأنها تبديل Alteration تدريجي ومتضاعف في مجال التغيير Variation في التركيب Structure والوظيفة والعادات خلال الأجيال المتعاقبة للكائنات الحية .

٢ ــ ينتج التغيير من التغيرات في الجينات أو الكروموسومات أي من الطفرات ، وأي تغيير يرجع إلى التغيرات في البيئة أثناء حياة الفرد لا تأثير له على الجينات ولذلك لا يكون له أي أهمية في التطور إطلاقا . ولقد نشأت الأنواع من تراكم عدد كبير جدا من الطفرات الصغيرة لا من طفرة كبيرة واحدة أو أكثر ، وتبعا لذلك فإنه من المشكوك فيه أن يظهر نوع جديد في جيل واحد ولكن تحدث عدة طفرات بالغة الصغر ، ثم تتجمع بوساطة عملية الانتخاب الطبيعي حتى يظهر نوع جديد . ويمكن القول بأن الطفرات تكون الأساس الذي يعمل به الانتخاب الطبيعي ، أي أن كلا من الطفرات والانتخاب الطبيعي أساس لعملية التطور .

٣ ــ يعزز أو يشجع الانتخاب الطبيعي الصفات المفضلة ويطرد الصفات غير المرغوب فيها .

٤ ــ الانعزال الجغرافي Geographic Isolation هو انعزال قطاع صغير نسبيا من مجموعة أفراد مكونة جزيرة ــ عن بقية المجموعة وبالضرورة يحدث بين أفراد هذا القطاع تزاوج . أما الانعزال الوراثي Genetic Isolation فهو حينما لا يمكن حدوث تزاوج بين بعض مجموعات النوع الواحد لسبب أو لآخر . وهذان النوعان من الانعزال مهمان جدا لنشوء أصناف جديدة وفي آخر الأمر ظهور أنواع جديدة .

٥ ــ أحيانا يحدث نضوج جنسي Sexual Maturity في أثناء الطور اليرقي Lerval Stage أو حينما يكون الحيوان مازال صغيرا ، وتحدث هذه الظاهرة

الغريبة التي تسمى Neotong في بعض الحشرات وأنواع قليلة من السلمندر Salamander ( وهي برمائيات لها ذيول ) . ويعتقد بعض العلماء أن لهذه الظاهرة دورا مهما في التطور ، إذ يمكن تفسير الخطوات العظيمة فيه والتي تسمى الطفرات الكبيرة ، ولما كان الإنسان اليافع يشبه القرد الصغير السن أكثر من شبهه للقرد اليافع في نواح كثيرة ( المخ الكبير نسبيا وشكل الأسنان وتسطح Flatness الوجه وعدم وجود الشعر والزاوية بين الرأس والجذع وخطوط الاتصال بين عظام الجمجمة ) فلقد اعتقد بعض العلماء أن الإنسان قد يكون أحد الرئيسيات ( أرقى قسم في الثدييات ) حدثت له هذه الظاهرة .

٦ ــ لا يحدث التطور بنفس السرعة في الأنواع المختلفة من الكائنات الحية ، فمثلا ظلت السلاحف دون تغيير يذكر لمدة تقدر بحوالي ١٧٥ مليون سنة بينما نشأت ثم انقرضت عدة أنواع من الجنس البشري في أقل من نصف مليون سنة .

٧ ــ يحدث التطور في بعض الأزمنة بسرعة أكبر من حدوثه في أزمنة أخرى ، وفي وقتنا الحاضر يوصف التطور بأنه سريع .

٨ ــ عموما يكون التطور سريعا حينما يتكون نوع جديد ، ولكنه يبطيء حينما تتأسس المجموعة وتتكيف مع البيئة التي تعيش فيها .

٩ ــ لا تتطور الأنواع الجديدة من الأنواع الأكثر تقدما والمتخصصة وإنما تتطور من الأنواع البسيطة نسبيا وغير المتخصصة . فمثلا تطورت الثدييات من مجموعة من الزواحف الصغيرة الحجم نسبيا وغير المتخصصة ، ولم تنشأ من الزواحف الكبيرة الحجم والمتخصصة كالديناصورات Dinosaurs .

١٠ ــ لا يكون التطور دائما من كائنات أكثر تعقيدا ، إذ توجد بعض

الأمثلة لتطور ارتدادي Regressive[١] .

تلك هي النظريات التي حاولت شرح وتعليل وتفسير التطور في الكائنات الحية وجميعها لا تجيب على السؤالين الآتيين جوابا شافيا .

هل التطور موجه أم هو بالصدفة ؟ وهل القوى الدافعة على التطور هي قوى خارجية عن الكائن الحي ، أم هي داخلية بالنسبة إليه ، أم هي خارجية وداخلية معا ؟

## ٣ ــ التطور الاجتماعي للإنسان :

يؤدي البحث في التطور إلى الاعتقاد بوحدة الحياة على الأرض ، أي أن ثمة صلة مشتركة وثيقة بين الكائنات الحية جميعا ، فهي تحيا وتعيش وتتأثر بعوامل البيئة وتتوالد وتموت ، وتخضع في كل ذلك لنواميس دقيقة معينة . والإنسان فرد من أفراد المملكة الحيوانية التي على هذا الكوكب ، بل إن تركيبه العضوي والوظيفي ليربطه بروابط قوية بأفراد هذه المملكة وإن كان إلى بعض الفصائل منها أقرب منه إلى الأخرى . ألا يعزى التقدم الكبير في علوم الطب والصحة ووظائف الأعضاء إلى هذه الصلة المشتركة التي تربط الإنسان بالحيوان ؟ ألا تجري العلميات الجراحية الجديدة على الحيوانات أولا ، ثم تطبق نتائجها على الإنسان ؟ وكذلك تختبر الأمصال الواقية من الأمراض والمضادات الحيوية أولا على الحيوانات قبل تطبيقها على الإنسان . والدافع لكل هذا وأمثاله هو تلك الصلة البيولوجية التي تربط بين الإنسان والحيوان .

فالإنسان ينتمي لقبيلة الفقاريات ، أي تلك الحيوانات التي لها عمود فقري وإلى مرتبة الثدييات بالذات من هذه القبيلة ، وإلى فصيلة الرئيسيات من هذه

---

(١) عبد العليم ( د. أنور ) . قصة التطور ص ١٠٣ وما بعدها ، ود. علم الدين كمال تطور الكائنات الحية ــ عالم الفكر ص ٩٨٥ ــ ٩٨٧ . ود. الوطي كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

المرتبة وهو إلى جانب ذلك أرقى الحيوانات على الإطلاق في سلم التطور .

غير أن الإنسان قد تميز فضلا على ذلك بصفات أخرى تجعل الفرق بينه وبين سائر الحيوانات المعروفة فرقا كبيرا ، وتجعل له مركزا فريدا على الأرض .

هذه الصفات هي : الذكاء والمرونة والشخصية والتعايش الاجتماعي، وما يترتب عليها من شعور بالقيم الروحية وضمير وإحساس بالمسئولية ، وتحكم في الغرائز ، وما إلى ذلك من قوانين أخلاقية واجتماعية .

وبهذه الصفات وحدها تفوق الإنسان على سائر الكائنات الحية ، وسبقها بمراحل عديدة . ولعله الوحيد بين الكائنات الحية الذي استطاع أن يتحكم في البيئة التي يعيش فيها ويخضعها لإرادته ، وذلك بدرجة كبيرة من الكفاية فقد زرع الأرض وعمرها ، واستخرج كنوزها ، وتحكم إلى حد كبير في الإمكانيات الطبيعية التي بين يديه ، فأصبح يقطع المسافات على الأرض بسرعة تفوق أسرع الحيوانات المعروفة ويسبح في الماء أفضل من الأسماك ، ويحلق في الفضاء أفضل من الطيور . ثم هو بعد ذلك يتحدى الظروف التي فرضتها عليه البيئة من حوله ، فأصبح لا ينتظر فصول السنة لتنضج محاصيله الزراعية ، بل استعان بالعلم ووسائله على اختصار تلك الدورة الزراعية ، ثم هو قد نقل الأصوات والصور عبر الفضاء ... الخ .

وهو لم يفعل كل هذا نتيجة لاكتساب خصائص بيولوجية جديدة مثل : رئة خاصة ، أو زعانف أو أجنحة ذات تصميم لم يعهد في الكائنات الأخرى من قبل ، وإنما كان ذلك نتيجة لنوع جديد من التطور لم يكن موجودا من قبل على الأرض ، وظهر بظهور الإنسان ، ذلك التطور الجديد اصطلح العلماء على تسميته بالتطور الاجتماعي .

وقد وضعوا له مناهج ونظما يمكن مقارنتها بالنظم المعروفة للتطور العضوي .

هذا التطور يعتبر في حد ذاته عملية جديدة نشأت نتيجة للتطور العضوي ، ولكنها مختلفة عنه في الكيف ، ثم سارت بعد ذلك معه جنبا إلى جنب ولكن بسرعة أكبر بكثير .

ويعقد هؤلاء العلماء مقارنات طريفة بين التطور العضوي والتطور الاجتماعي فمن ذلك أن التطور الاجتماعي يعمل في البنيات الاجتماعية للإنسان كما يعمل التطور العضوي في البنيات الوراثية للكائنات الحية . وكما يعتمد التطور العضوي أساسا على توارث الصفات الجسمية ، عن طريق التزاوج للجنس بين الأفراد ، وله دوافع وقوى محركة مثل الانتخاب الطبيعي ، فكذلك الحال في التطور الاجتماعي فإنه يعتمد على عمليات عقلية ، كالتعليم وتوارث المعرفة التي هي من صميم النظام الاجتماعي الذي نعيش فيه ، والتي تتأثر هي الأخرى بتزاوج الأفكار والثقافات المختلفة بين أبناء البشر الذين لم تعد تفرقهم مسافات طويلة أو تفصل بينهم حواجز جغرافية كما كان الحال من قبل .

وكما أن التطور العضوي عملية ديناميكية تتطلب الاندفاع والحركة فكذلك مجتمعنا الإنساني لابد أن يكون ديناميكيا متحركا هو الآخر . ويحصر العلماء ـــ أيضا ـــ تلك الدوافع أو القوى المحركة للتطور الاجتماعي في مسائل معينة : المعرفة والاختيار والغرض والغاية ، وجميعها تتطلب توفر قسط معلوم من المسئولية عند الإنسان . فالقدرة على المعرفة تتطلب مسئولية أخلاقية في اتباع ما هو حق وخير ، وتجنب ما هو شر وباطل . كما أن الإحساس بالقيم شأنه أن يهيىء القوة اللازمة لتوجيه الاختيار والقيم إلى وجهة الحق والخير . هذه الطاقات والمسئوليات ليست سجايا عامة تتصف بها جميع الكائنات المعروفة . ولكنها مقصورة على الإنسان ، ذلك الكائن العاقل المفكر المسئول .

وكما تلعب عملية « الانتخاب الطبيعي » دورامهمّاً في سير التطور العضوي

عن طريق إظهار وتوجيه الفروق والاختلافات الوراثية التي بين الأفراد على مدى الأجيال لتلائم البيئة ، فكذلك الحال في التطور الاجتماعي ، فثمة عملية انتخاب طبيعي — أيضا — بالنسبة للصفات الإنسانية التي بين الأفراد وعلى هذا الأساس يعلل « سمبسون » الفروق والاختلافات في القدرات والطاقات البشرية المذكورة آنفا بأنها في مصلحة الإنسان والمجتمع ، وهي ضرورية في عملية التطور الاجتماعي . فهو يرى أن التقدم رهن بالتغيير ، والتغيير مستحيل دون وجود فروق واختلافات ، وعلى ذلك فإن هذه الفروق والاختلافات ( العضوية والاجتماعية ) الموجودة بين أفراد البشر ضرورية لحدوث التطور العضوي والتطور الاجتماعي على السواء ، بل في مصلحة الجنس البشري نفسه .

بقيت مسألة في هذا الصدد تتعلق بمستقبل الإنسان نفسه . فقد تقدم القول بأن عملية التطور هي عملية ديناميكية بدأت بظهور الحياة على الأرض ، وسارت بخطى وئيدة جدا في أول الأمر ، ثم أسرعت بظهور أشكال جديدة لحركة المادة ، ثم استمرت لمئات الملايين من السنين من بعد ذلك . ثم ظهر الإنسان في المليون سنة الأخيرة فقط من عمر الأرض ، وبظهور الإنسان ظهر هذا النوع من التطور وهو التطور الاجتماعي . وهذا الأخير سار بخطوات سريعة جدا منذ مئات السنين الأخيرة فقط من عمر الانسان . والآن قد يتردد على الخاطر سؤال مهم : ما هو مستقبل الإنسان في ضوء التطور ؟

يعتقد البعض ، استنادا إلى الأدلة المستقاة من تاريخ الحياة في الماضي بأن عملية التطور لا تزال تعمل من حولنا ولا يستطيع أحد أن يتكهن بما سيئول إليه أمر الإنسان .

ويعتقد آخرون بأن التطور قد انتهى بالإنسان ، ذلك المخلوق الذي يمثل أعلى حد من التنظيم للمادة والطاقة معا ، وأنه كان الغاية المرجوة من التطور العضوي ، كما أن التطور المرتقب هو ذلك النوع الآخر الجديد أي التطور

الاجتماعي .

والمعتقد — أيضا — لدى أغلب العلماء أن هذا الإنسان لم يتطور كثيراً من الناحية البيولوجية خلال بضعة الآلاف الماضية من السنين — فإذا قدر له أن يوجد خلال الألف أو الألفين القادمين من السنين فسوف لا يختلف كثيراً في تركيبه التشريحي أو الوظيفي عن الإنسان الحاضر الذي اتفقت الآراء على أنه بلغ الغاية في الكمال من حيث التركيب(١) .

(١) Simpeson G. G: The meaning of Evolution, N.Y. 1955, and Dobzhansky & Montagu : Natural Selection and the mental capacities of Mankind : PP. 105, 587 Science, 1947.

# الباب الخامس

## مقارنة وتقييم ونقد

الفصل الأول : مقارنة

الفصل الثاني : تقييم

الفصل الثالث : نقد

# « الفصل الأول »

## مقارنـة

### أ ـــ مقدمـة :

علينا عندما نريد أن نعقد مقارنة بين النظرية التطورية عند مفكري الإسلام ونظرية التطور عند مفكري الغرب أن نضع في الاعتبار تلك المسافة الزمانية والمكانية بين أصحاب هاتين النظريتين من جهة ، كما نضع في اعتبارنا ـــ أيضا ـــ المسافة المذهبية إن صح هذا التعبير ـــ التي تفصل بينهما من جهة أخرى .

فالغربيون ينطلقون في بحوثهم من الحس والمحسوس مبعدين أنفسهم عن كل ما يتعلق بما وراء الطبيعة ، بينما مفكرو الإسلام ينطلقون في بحوثهم وأمامهم زاد كبير من الدين والوحي وكل ما يتعلق بما وراء الطبيعة ، فهم إلهيون يضعون نصب أعينهم نصوص الوحي ومعطيات الدين مع الاستعانة بالعقل والحس في فهم الكون والحياة .

أما المسافة الزمانية فهي أكثر من ألف عام سارت الإنسانية فيها أشواطا بعيدة في كل العلوم سواء كانت بيولوجية أو غير بيولوجية . وأما المسافة المكانية فهي آلاف الأميال ، مع اختلاف البيئات والأماكن .

ومع ذلك فهناك مواضع اتفاق ، وهناك مواضع اختلاف بين النظريتين ثم بينهما وبين الإسلام نفسه كما يتمثل في الكتاب الكريم والسنة المطهرة . وحتى تكون المقارنة صحيحة فلابد أن تكون المسائل موضع المقارنة واحدة ، وهذا ما اتبعناه في طول الرسالة ، حيث كنا نبدأ بقضية العالم وتطوره ، ثم نثني بأصل

الحياة ثم نثلث بالكائنات الحية ، بما تشتمل عليه من نبات وحيوان وإنسان ، وتطورها ، مهتمين بصفة خاصة بمسألة أصل الإنسان ، ثم ننتهي بتفسير التطور .

وهناك مسألة يجب الإشارة إليها باديء ذي بدء ، وهي أن القرآن الكريم ليس كتاب علم بالمعنى الضيق للعلم .

## ب ـــ العالم وتطوره :

يتفق مفكرو الإسلام ومفكرو الغرب مع الإسلام في أن العالم متطور ، فالتطور هو قانون الكون الشامل ، وقد قال مفكرو الإسلام إن السموات والأرضين خلقت بالتدريج ، وقال مفكرو الغرب إن الأرض ليست إلا فردا من الأسرة الشمسية ، والأسرة الشمسية فرد من المجموعة المجرية ، والمجموعة المجرية فرد من المدن النجومية . والقرآن الكريم يقرر أن هناك سبع سموات وسبع أرضين خلقت بالتدريج . ويتفق رأي الغربيين مع القرآن الكريم فيما يتعلق بأصل العالم ، حيث قرر القرآن دخانية السماء في البدء ، وقرر الغربيون أن غاز الأيدروجين هو أصل العالم غير أن القرآن يقول إن أصل العالم كان شيئا واحدا ، أما الغربيون فإن بداية الكون عندهم غير معلومة .

أما الأجسام التي يتكون منها العالم فهي عند مفكري الإسلام إما أن تكون قد تكونت من المادة والصورة ، أو من الذرات المادية ، أو الذرات الروحية . أما عند مفكري الغرب فهي أنها تتكون من الذرات المادية وهذا هو الرأي الأغلب ، أو تتكون من الذرات الروحية .

ويقر القرآن الكريم بوجود ست مراحل للخلق عموما ، وأن مراحل خلق السموات تتداخل مع مراحل خلق الأرض ، وأن هناك خلقا وسيطا بين

السموات والأرض .

كما يقرر مفكرو الإسلام أن هناك مراحل للخلق أيضا ، أما مفكرو الغرب فقد قالوا بالأزمنة الجيولوجية ، وهذا خاص بالأرض ، كما قرروا أيضا — أن هناك مراحل لتطور العالم .

## جـ — أصـــل الحيـــاة :

يذكر القرآن الكريم أن أصل الحياة هو الماء ، بينما نجد مفكري الإسلام يقولون إن أصل الحياة هو « المزاج » أو « التولد الذاتي » أو « الكمون » . بينما يذكر مفكرو الغرب أن أصل الحياة هو الماء وبعض العناصر . وكثير من علماء الغرب ومفكريه يعترف بجهله فيما يتعلق بأصل الحياة ، كما أن بعضهم لا يفرق بين الحياة والمادة ويقول بأن الحياة ما هي إلا حركة للمادة .

## د — الحياة والكائنات الحية :

يذكر القرآن الكريم ما يشير إلى أن هناك حياة خارج هذه الأرض ، ولا يستبعد مفكرو الإسلام ومفكرو الغرب أن تكون هناك حياة على بعض الكواكب الأخرى .

ويقرر مفكرو الإسلام أن الكائنات الحية قد خلقت متطورة بالتدريج بحيث وجدت النباتات ثم الحيوان ثم الإنسان ، ولكنه تطور قائم على الترتيب والأفضلية والوصول إلى الكمال ، وليس على التحول ؛ بينما يقرر مفكرو الغرب أن الكائنات الحية قد نشأت من أصل واحد ثم أخذت تتطور بحيث اشتق بعضها من بعض ، أما القرآن والسنة فإنهما يقرران أن هناك تطورا في خلق الكائنات الحية ، بمعنى أن هناك تدرجا في هذا الخلق ، غير أن القرآن لم

يتحدث عن أصل النبات أو الحيوان بينما أفاض في الحديث عن أصل الإنسان .

ولكن يلاحظ أن مفكري الإسلام لم يقولوا بتحول الكائنات أو انقلاب الأجناس ، حيث أنكروا انقلاب الشيء شيئا آخر أو الجنس إلى جنس آخر لأن هذا محال .

كما أن التطور ينتهي عند مفكري الغرب بوجود الإنسان ، أما عند مفكري الإسلام فإن الموت يعتبر مرحلة من مراحل التطور ، كما أن الغاية من خلق الإنسان في القرآن الكريم هي عبادة الله عز وجل .

وفيما يتعلق بأصل الإنسان ، فالقرآن الكريم يؤكد أن أصل الإنسان هو التراب ، وأن آدم هو أبو البشر خلقه الله بيديه ، والتطور إنما يحدث في ذريته ، فهناك تطور في داخل النوع فقط .

وعند مفكري الإسلام ، أنّ الإنسان يأتي في الترتيب بعد مرتبة القردة ، ولكنهم لم يقولوا بأنه مرتق عن القرد ، ولم يتحدثوا عن الإنسان القرد أو القرد الإنسان . كما أن الانسان متميز تميزا تاما من الحيوان ، وهو روح وجسد وهو أشرف مخلوق .

أما مفكرو الغرب فإنهم يرون أن الإنسان مرتق عن الحيوان ، فهو من أرقى الثدييات ، ومرتق عن أصل مشترك بينه وبين القرد ، كما تحدثوا عن الإنسان القرد أو القرد الإنسان الذي يجمع بين القرد والإنسان . وقد حاول مفكرو الغرب تقديم أدلة كثيرة على حدوث التطور ، كما أنهم قدموا تفسيرات مختلفة ونظريات متعددة في محاولتهم تعليل التطوّر وتفسيره .

ويبدو أن هناك تناقضا أساسيا بين القرآن ونظرية التطور عند مفكري

الغرب وبخاصة فيما يتعلق بأصل الإنسان[1] . أما فيما يتعلق بأصل الأنواع الأخرى فقد سكت القرآن الكريم عن هذا وبالتالي يصبح محلا للنظر والنقاش .

## هـ ــ تفسير التطور :

فيما يتعلق بتفسير التطور ، فإن القرآن الكريم يقرر أن مسألة الخلق مسألة إلهية لا يدرك حقيقتها إلا الخالق نفسه ، سبحانه وتعالى فهو الفاعل في الخلق والتطور ، إما مباشرة وإما بوساطة الملائكة الذين ينفذون أمره . كما يقرر القرآن أن الله ــ سبحانه ــ قد خلق الخلق متنوعا متعددا ، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه وهداه إلى طبيعة عمله ، وخلقه على أحسن وجه وأتمه ، كما يقرر القرآن أن الله ــ عز وجل ــ قد خلق المخلوقات متشابهة وغير متشابهة ، وأنه يخلق ما يشاء ، ويختار من خلقه للبقاء في الكون ما يشاء ، وأن الإنسان هو أفضل المخلوقات وأكملها وأنه قد خلق ــ ابتداء ــ في أحسن تقويم .

أما مفكرو الإسلام فقد رتبوا وصنفوا الكائنات على أساس أفضليتها وشرفها وكمالها لا على أساس اشتقاقها من بعض . نعم ، عقدوا مشابهات بين الإنسان والحيوان ، وبين الإنسان والطير ، ولكنها مشابهات استدلوا بها على وحدة الخلق ، كما أنهم نفوا اتخاذ المشابهة دليلا على أصل الحيوان أو الطير . ويقر مفكرو الإسلام بأن الفاعل في التطور هو الله سبحانه ، كما يقرون بأن الله قد أعطى الكائنات ما تدافع به عن نفسها ، لأنه ــ سبحانه ــ قد ركب فيها غريزة « حب البقاء » وكراهية الفناء ، كما أنهم يقرون بالحكمة الإلهية بدلا من

---

(1) صبري ( مصطفى ) : موقف البشر تحت سلطان القدر . المطبعة السلفية ــ القاهرة سنة ١٣٥٢هـ ص ٨ ــ ١٠ . وأبو الأعلى المودودي : الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ١٨ . وعلي أحمد الشحات : نظرية التطور بين العلم والدين ص ودكتور محمد سعيد رمضان البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨ .

الانتخاب الطبيعي ، ويعترفون بآثار البيئة على الكائنات الحية ، وكذلك الوراثة والتهجين ، والإنسان عندهم روح وجسد وهو أفضل الكائنات على الإطلاق .

أما مفكرو الغرب فإنهم قد رأوا اشتقاق الكائنات بعضها من بعض . وحاولوا أن يقدموا الأدلة على ذلك ، وعللوا التطور أحيانا بتوارث الصفات المكتسبة ، وأحيانا بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح الناشيء عن التنازع على البقاء مع الإيمان بالطفرة وتخليد الصفات المتوارثة التي أثبتت صلاحية الكائن للبقاء . والإنسان عندهم حيوان فقاري من قبيلة الرئيسيات وهو والقرد ينحدران من سلف مشترك ، وهو الغاية من التطور وهو نهاية التطور البيولوجي .

# « الفصل الثاني »

# تقييم

## أ ـ مقدمة :

هناك حقيقة يجب الاعتراف بها عند تقييمنا لنظريات التطور . هذه الحقيقة هي أن العلم معرفة مختبرة ـ كما يقول مريت « ستانلي كونجدون » ولكنه لا يزال عرضه للأهواء والتخيلات والأخطاء البشرية ... وهو يبدأ وينتهي بالاحتمال لا باليقين .. ولا نهاية للاستنتاجات العلمية[١] .

كما أن القانون أو النظرية العلمية إنما تصف لنا فقط نوعا من النظام الموجود في الطبيعة ولكنه لا يصل إلى الحقيقة أو إلى جوهر ما يحدث . فالحقائق ليست هي الظواهر ، ومهمة العلم تقف عند حدود الظواهر والكشف عن النظم والقواعد والقوانين ، أما الحقيقة والغاية فإن العلم أبعد ما يكون عنهما[٢] . وصدق الله العظيم « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »[٣] .

إذا تقرر هذا علمنا أنه ينبغي لكل باحث أن يتوقف عند مناقشة أي قضية علمية تتصل بمسائل الدين والعقيدة ، فلا يسارع بالقبول مجاراة للعلم والعصرية والتقدم ولا يسارع بالرفض مجاراة للتعصب غير المستبصر . إذ النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل ، وعلينا أن نفهم كلا جانبي أي قضية ، ونناقشهما مناقشة العالم البصير ، فلا نقنع ببعض القشور من هنا أو

---

(١) هل الكتاب المقدس حقا كلمة الله ؟ ص ٢٠ .

(٢) الفندي ( د. محمد جمال ) : رسالة العلم والإيمان ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) سورة الروم ٧ .

هناك ، ثم نقيم عليها أحكاما ونبني أسسا ونخضع عقائد لهذا المبدأ أو ذاك ، فهذا خارج عن حد العلم والعقل النزية ويأباه منطق الدين نفسه الذي علمنا أن نعمل عقولنا ، وأن نفكر وأن نتدبر وأن ننظر .

**ب ــ مواقف متباينة :**

ومع أن نظرية التطور مازالت عرضة للتغير والتبديل والنقد في الغرب والشرق على السواء ، فإننا نجد من الباحثين من يقبلها قبولا تاما ويؤمن بها إيمانا جازما حتى أصبحت تدرس في جميع مدارسنا وجامعاتنا في الشرق الإسلامي ، والذي يهمنا هنا هو تقبل بعض المسلمين لها تقبلا تاما ، ومحاولة هذا البعض تطويع النصوص الدينية تطويعا كاملا وتأويلها بحيث تتمشى مع نظريات التطور العضوي . كما نجد من الباحثين من يرفضها رفضا تاما ، محاولا ــ أيضا ــ تطويع النصوص الدينية وتأويلها لتتمشى مع هذا الرفض . كما نجد موقفا ثالثا محايدا يقول إنه إذا صحت النظرية فهي ليست ضد الدين ولا تتنافى مع الإيمان ، وإن قالت إن الإنسان حيوان ثديي من قبيلة الرئيسيات وأنه يشترك مع القرد في مرتبة واحدة .

ومن الذين أيدوا نظرية التطور العضوي في الشرق بعض المسيحيين وبعض المسلمين ، منهم « الدكتور / شبلي شميل » في كتابه « شرح بخنر على دارون » « والدكتور بشارة زلزل » في كتابه «تنوير الأذهان في علم حياة الحيوان » والأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه « التفسير القرآني للقرآن » والشيخ طنطاوي جوهري في كتابه « الجواهر في تفسير القرآن » .

ومن الذين رفضوا نظرية التطور الشيخ جمال الدين الأفغاني في كتابه « الرد على الدهريين » وإبراهيم الحوراني في كتابه : « مناهج الحكماء في نفي

النشوء والارتقاء » و « الحق اليقين في الرد على بطل دارون » وأبو الأعلى المودودي والشيخ مصطفى صبري .

وكان ينبغي على هؤلاء وأولئك قبل أن يرفضوا أو يؤيدوا أو يحايدوا أن يناقشوا هذه النظريات على المستوى العلمي وأن يتفهموا نقد مفكري الغرب لها حتى تكون أحكامهم صحيحة . .

## جـ ـــ هل الداروينية حقيقة علمية ؟

كان ينبغي إثارة مثل هذا السؤال : هل التطور الدارويني حقيقة علمية ، أو هو نظرية علمية ؟ وإذا كان نظرية علمية ولم يصل إلى مرتبة الحقيقة العلمية فلماذا اعترف به الباحثون والعلماء ، ولماذا ذاع خبره وعم أثره ؟ وما الفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية ؟

وللإجابة على هذا يمكن القول بأنه يمكن للإنسان المسلم أن يجيب بسرعة بالحقيقة القرآنية » : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » فهذه الآية الكريمة تخبرنا بأن مسألة الخلق الأول لا يستطيع البشر أن يفصلوا فيها ، لأنها من الأشياء التي يستأثر الله ـــ وحده ـــ بعلمها ، فهو المصدر الوحيد لمعرفة كيف تم الخلق .

لكن مع ذلك ، وجريا مع البحث الموضوعي نتناول الإجابة على السؤال الذي طرحناه بشكل آخر ، فنقول إنه يجب التنبيه على أن هناك فرقا جوهريا بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية ... فالحقيقة العلمية هي التي ثبتت نصوصها وموادها بما لا يدع مجالا للشك فيها ، كما أنها غير قابلة للتغيير أو التبديل أو التعديل ، وهي في الوقت نفسه لا تغير من تفسير الحقائق التي ثبتت صحتها ، وكذلك تعني مطابقة الفكر للواقع ، أو كما يقول المتكلمون

مطابقة ما بالأذهان للأعيان(١) .

أما النظرية العلمية فهي التي لم يقم على صحتها دليل يجعلها غير قابلة للتعديل أو التغيير أو التطور ، كما أن لديها القابلية لأن يضاف إليها غيرها من عناصر كانت تنقصها ، وهي تعطينا التفسير العلمي لظواهر جديدة ، ويمكنها التنبؤ بظواهر وعلاقات جديدة(٢) . فالنظرية عبارة عن فرض علمي يربط بين عدة قوانين بعضها ببعض ، ويردها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه أحكاما وقواعد .

والثابت ــ حتى الآن ــ أن نظرية دارون التطورية ليست إلا نظرية ( Theory ) مجردة ، ولم تصبح حتى الآن حقيقة ( Fact ) ثابتة(٣) . فنشأة الأنواع وتطورها كما تذكر عند دارون وغيره ، بقيت حتى الآن لغزا ، كما كانت ، ولم تصبح قانونا علميا كما ادعت الماركسية وأسست عليها تفكيرها(٤) . كما أن الأصل الميكانيكي الذاتي الذي يؤكد أن الحياة كلها ، من عقلية ونفسية وسلوكية صادرة عن « مادة عضوية » في الإنسان ... هذا الأصل لا يعتبر من الحقائق العلمية في نظر كثير من الباحثين .

لقد ذهب بعض الباحثين إلى ما هو أبعد من هذا حين اعتبر « التطور » مجرد فرضية . حيث يرى أن فكرة التطور وما يتبعها من انتخاب الأصلح ونحوه ، لم تتجاوز ــ بعد ــ مرحلة الفرضية التي تتجاذبها الشواهد والاستدلالات المتناقضة . وكل هذا ، وكل ما قيل أو كتب فيها لا يعدو أن يكون محاولات مبتورة وبحوثا مجزأة تثير مزيدا من مشكلاتها أكثر مما تحل شيئا من

---

( ١ ) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي ص ٧٤ .

( ٢ ) النحات ( علي أحمد ) : نظرية التطور بين العلم والدين ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .

( ٣ ) المودودي ( أبو الأعلى ) : الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة تعريب خليل الحامدي ، دار القلم ، الكويت سنة ١٩٧٤ ص ٢٧٦ .

( ٤ ) البهي (د. محمد) : العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق - مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٧٦ ص ٩

معضلاتها .

يرى هذا البعض أن طبيعة النزاع في مسألة التطور هي طبيعة حيرة واضطراب في موضوع معلق ، وليست طبيعة سير منهجي لفهم أمر معلوم الحقيقة محدود النطاق والحجم . وبناء على ذلك فإنه لا يجوز إقامة أي حكم علمي على شيء من هذه البحوث والآراء . ولا يجوز أن نعتبرها في حد ذاتها حقيقة علمية تجاوزها العقل بالقناعة والقبول وإن في سلسلة النقض والنقد واستمرارها أبلغ شاهد على ذلك[1] .

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن هناك فرقا بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية ، وأن التطور ليس حقيقة علمية ، وإنما هو مجرد فرض . لذا فأنه إذا وجد اختلاف بين نظرية علمية وبين الدين فإنه يجب علينا أن نتريث قليلا حتى يمكننا التأكد من صحة مواد تلك النظرية بما لا يدع مجالا للشك فيها ... أي حتى تتحول تلك النظرية إلى حقيقة علمية مقطوع بها .

لكن إذا كانت الداروينية ليست حقيقة علمية فلماذا آمن بها العلماء ؟ وإن شئنا الدقة : لماذا قبل غالبية العلماء هذه النظرية ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول إن النشوئيين يتبنون موقفا غير علمي عندما يؤمنون بنظرية لا تستند إلى حقائق ، ومن هنا فإن مهاجمة هذه النظرية ليست مهاجمة للعلم . فنظرية التطور الداروينية تستند إلى السذاجة إلى حد كبير . وقد آمن غالبية العلماء بها لأنها — ببساطة — تشكل معتقدهم ، يقول « أرثر كيث Arther Keith » إن نظرية النشوء مازالت حتى الآن دون براهين ، وستظل كذلك ، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر ، وهذا أمر غير وارد على الإطلاق » ويدلي « واطسون Watson » الأستاذ بجامعة لندن بدلوه في هذا الموضوع فيقول إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء ، لا كنتيجة للملاحظة أو الاختبار أو

(١) البوطي ( د. محمد سعيد رمضان ) : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٧ .

الاستدلال المنطقي ، ولكن لأن فكرة الخلق المباشر فكرة بعيدة عن التصور ويضيف عالم الجيولوجيا « داوسون Dawson » إلى هذا أن « هذا الاعتقاد هو نوع من الإيمان الأعمى الممتزج بالخرافة(١) » .

ومن هنا فإنه يصبح واضحا أن مذهب التطور الداروينى مدين بوجوده فقط لذلك الرفض العنيد للإيمان بوجود الخالق . ومن جهة أخرى فإن هؤلاء العلماء والباحثين الذين قبلوا النظرية الداروينية لم يضعوا في بداية بحثهم جميع الاحتمالات الموضوعية المتعلقة بهذه القضية تحت مجهر واحد من النظر والفحص ، فقد نبذوا من احتمالات الأمر مالا رغبة لهم فيه ، ولم يقفوا عنده بأي نظر أو تأمل ، حيث نبذوا احتمال أن تكون الحقيقة كما فسرها الخالق — سبحانه — في كتابه المنزل على محمد ﷺ . ثم حصروا أنفسهم في الحلقة التي انطبقت عليهم ، أو في نهاية الطريق الذي سدّوه على أنفسهم . وفي داخل هذا النطاق المحصور ذهبوا يبحثون ويتساءلون عن النشأة الأولى ، وأصل الخلق ، وأصل الحياة ، وأصل الإنسان ، وعلاقة الإنسان بالحيوانات الأخرى .

ومن هنا كان عليهم — وقد ارتضوا لأنفسهم هذا السجن الفكري — أن يتخيروا أقرب الحلول والأجوبة التي يجدونها أمامهم وفي متناولهم ، فإذا لم يجدوا الأقرب كان عليهم — على كل حال — أن لا يرجعوا من بحوثهم بأفكار فارغة ، إذ أن الرجوع بافتراض ما — مهما كان محاطا بالريب والشكوك — أليق بطموح الفكر والعقل من الرجوع بموقف سلبي حائر لا غناء فيه(٢) .

يضاف إلى ما سبق أن نظرية دارون قد صادفت هوى وقبولا لدى كثير من الناس لما تنطوي عليه من إيحاءات قوية بحيوانية الإنسان ، يقول « جوليان هكسلي » وهو من علماء الداروينية الجديدة ، في كتابه « الإنسان والعالم

(١) الغاياتي (منيرة) : مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين - مكتبة وهبة ، القاهرة سنة ١٩٧٦ ص ٦ - ٧ .
(٢) البوطي (د. محمد) : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٧ — ٢١٨ .

الحديث Man and Modern Wold » : وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا »[1] ومن جهة أخرى فإن هناك أصابع خفية تتحرك من وراء ستار لتغذي كل نشاط هدام يهدف إلى تدمير الأخلاق ونشر الإفساد في كل مكان حتى تستطيع هي أن تسيطر على زمام الأمور . وكان لهذه الأصابع دور بارز في إذاعة أمر النشوء والارتقاء وإشاعته في كل الأوساط حتى يصبح رأيا عاما ويطبق في كل مجالات الحياة ، فما هي هذه الأصابع وما هي حقيقة دورها ؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول إنه قد تضافرت النظريات الغربية وتعاونت تعاونا تاما على تثبيت فكرة حيوانية الإنسانية ، وأوقعت في خلد المخلوق الغربي أن غاية الحرية الإنسانية هي أن يحقق ذاته على طريقة الفصائل الأخرى من إخوته في الحيوانية !

ولقد أخذت هذه النظريات جميعا طريقها إلى بلاد الشرق بقوة خارقة . وقد بدأت هذه النظريات بالنظرية الداروينية التي تنتهي إلى القول بأن الإنسان والقرد من أصل مشترك . وكان الشاعر العراقي الزهاوي من أول الناعقين بهذا الكلام ، إذ راح يلوكه في كثير من قصائده ، واشتهر عنه قوله في تحقير الإنسان :

هو القرد وابن القرد والقرد جده ... فلا خير في قرد تناسل من قرد[2]

كما يمكن القول بأن نظرية داروين قد أعطت إيحاءين متصاحبين هما : الإيحاء بالتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات ، والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته ، بإرجاعه إلى الأصل الحيواني من ناحية ، وحصر القوى التي تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة في « البيئة » أو على الأكثر في

---

(١) قطب ( محمد ) : التطور والثبات في حياة البشر ص ٣٨ .

(٢) المجذوب ( الشيخ محمد ) : كيف نربي وكيف نعلم — مقال بمجلة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٣٨٥ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

« الطبيعة » وإغفال الجانب الروحي إغفالا تاما ، وإغفال كل تدخل لله في عملية الخلق أو عملية التطور . يقول داروين : إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت[١] .

ومن هذين الإيحاءين أخذ العلماء اليهود الثلاثة ماركس ، وفرويد ، ودوركايم نظرياتهم التي قلبت العالم رأسا على عقب .

وهنا نأتي إلى لب المشكلة ، فاليهود هم الذين عبأوا الرأي العام لصالح نظرية دارون . وهم الذين يجيدون — كما يقول المرحوم الدكتور / عبد الحليم محمود — صناعة الرأي العام في قوة ، بالنسبة لأغراضهم ، وهم يقولون مثلا — في تكييفهم الرأي العام ، بالنسبة لشخصيات معينة أنهم هم الذين رتبوا نجاح « كارل ماركس » ، ونجاح « دارون » ونجاح « نيتشه » صاحب نظرية ألا أخلاق . فلماذا رتبوا نجاح هؤلاء وأمثالهم ؟ لقد رتبوه لأنه هدم لكل الأفكار الروحية والأخلاقية وهم لا يريدون أن تسود الأفكار الروحية والأخلاقية في الإنسان[٢] .

والحق أنني أتفق تماما — مع ما ذهب إليه الدكتور / عبد الحليم محمود — رحمه الله — ، وفي الوقت نفسه أخالف الأستاذ محمد قطب الذي ذهب إلى القول بأن « اليهود ليسوا هم الذين أنشأوا الفرقة بين أوربا والمسيحية ، فقد قامت الفرقة بالفعل منذ قيام النهضة دون تدخل من اليهود ( وإن كان ذلك قد جاء على هواهم بلا شك ) وقام الخصام والصراع على يدي دارون دون تدخل منهم كذلك ( وان كانوا قد فرحوا لذلك فرحا شديدا كما تقول بروتوكولات حكماء صهيون[٣] » .

---

(١) قطب ( محمد ) : التطور والثبات في حياة البشر ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) محمود ( د. عبد الحليم ) : القطب الشهيد سيدي عبد السلام بن بشيش دار الشعب سنة ١٩٧٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) قطب ( محمد ) : التطور والثبات في حياة البشر ص ٣٥ .

أقول إني أخالف الأستاذ محمد قطب — في رأيه ، لأن اليهود هم الذين رتبوا — فعلا نجاح دارون ، وأذاعوا نظريته وأشاعوها ، وعبأوا الرأي العام لها . ولا أقول هذا الكلام جزافا أو دعوى بلا دليل وإنما أسوقه مستدلا بأقوال حكماء صهيون على هذا الرأي ، فقد جاء في البروتوكول الثاني « من بروتوكولاتهم ما نصه : « لا تتصوروا أن تصريحاتنا جوفاء ، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون Darwin وماركس Marx ونيتشه Nietsche قد رتبناه من قبل . والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ( غير اليهودي ) سيكون واضحا لنا على التأكيد »[1] .

فمن هذا النص يتضح أن اليهود هم الأصابع الخفية وراء كل مذهب وفلسفة ونظرية وكل نشاط إنساني هدام . فهم قد روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات بالغة ، واستخدموه في القضاء على الأديان والقوميات والقوانين ، مظهرين أن كل شيء بدأ ناقصا شائها يثير السخرية والاحتقار ، ثم تطور بعد ذلك . فلا قداسة إذن لدين ولا وطنية ولا قانون ولا لمقدس من المقدسات التي تعتز بها الأمم .

---

(١) حكماء صهيون : بروتوكولات ، ترجمة محمد خليفة التونسي ، تقديم عباس محمود العقاد ، دار التراث ، القاهرة سنة ١٩٧٧ ص ١٦١ — ١٦٢ .

# « الفصـل الثالـث »

## نقـد

### أ ـــ مقدمـة :

نستطيع القول بأنه لم يحدث خلاف أو اختلاف في العصر الحديث مثل الذي حصل بالنسبة لنظرية التطور العضوي ، فهذه النظرية لاقت من الانتقادات الكثير في الغرب والشرق على السواء . حيث نقدها كثير من المتدينين والفلاسفة والعلماء ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وسواء أكانوا مؤمنين أم غير مؤمنين .

وهذا ـــ في الواقع ـــ أمر يدعو إلى التفكير والتأمل ، فمادامت المسألة وهي في أصلها علمية ، لم يتفق عليها حتى الآن ، فكيف ـــ إذن يسارع البعض بالقبول لها ، بل ويحاول تأييدها بنصوص دينية قد لا تقبل مثل هذا التأويل ؟

على أية حال سوف نعرض لبعض هذه الانتقادات الموجهة إلى نظرية التطور العضوي من الغربيين والشرقيين سواء بسواء .

### ب ـــ انتقادات عامـة :

إن أول نقد يوجه إلى النظرية الداروينية هو أنها ليست حقيقة علمية ، بل مجرد فرض وتخمين ، إذ إنها ليست مذهبا علميا مبنيا على التجربة الحسية ، وإنما هي مبنية على الفرض والتخمين لأن تولد الأنواع بعضها من بعض لا يكون في متناول الحس والمعاينة ، وليست معاينة الحفريات المستخرجة من تحت

الأرض ، المتوسطة بين نوعين موجودين من الحيوان معاينة التوالد ، ولا معاينة كونها واسطة في التوالد ، لاحتمال كون كل من الواسطة وطرفيها نوعا مستقلا مخلوقا برأسه ، وليس من حق المجرب أن ينتقل من التشابه المحسوس إلى التوالد غير المحسوس مهما وجدت الوسائط المقربة بين المتشابهين ، فإن انتقل كان خارجا عن حدود التجربة التي يدعى الوقوف عندها .[1] .

كما وصفت نظرية التطور بأنها لا تقل عن أي قصة خرافية حافلة بأغرب المخلوقات كالغيلان والقنتورات ( كائنات خرافية نصفها رجل ونصفها فرس ) والسيرانات[2] ( كائنات خرافية لها رءوس نسوة وأجساد طيور ) . بل يبدو أن النشوئي هاو للقصص الخرافية التي تغلب عليها صفة التحولات الفورية التي تحدثها عصا الساحر في القصص الخرافية ، فإن التحولات هنا تسير بسرعة القواقع . فالتغيرات الإعجازية التي نفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية أمور عادية جدا في نظرية التطور[3] وأحيانا توصف هذه النظرية بأنها إيمان أعمى ممتزج بالسذاجة والخرافة .

ويقول الدكتور جوستاف جوليه « إن مذهب لامارك » ومذهب « دارون » يستويان في القصور ، فإنهما لا يفسران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية ، فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التي ليست له ، ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور ، وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة ، وكيف تصل الدودة شيئا فشيئا إلى إيجاد أجنحة

---

( ١ ) صبري ( مصطفى ) : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مطبعة الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٥٠ جـ ٢ ص ٢٨٣ .

( ٢ ) Wilson (Mc N air) : Oxford Medical Publiactions .

( ٣ ) Beebe (J.W.) : The Bird, London, P. 97.

لجسمها تصلح له حياة هوائية ؟

ثم يقول : يكفي لإبطال النظريات الداروينية أن يتأمل الإنسان حشرة الشرنقة ، فإنها ظهرت في أقدم عصور الحياة الأرضية وثبتت أنواعها في جميع الأحوال ، فهي تناقض ما ذهبوا إليه من التحولات المستمرة البطيئة ، وتناقض التطور بفعل العوامل الخارجية ، فإنها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية إلى حشرة طائرة ولا تأثير عليها من الخارج ، كما أن الهوة عميقة بين الحال الأولى وهي الدودية ، والحال الثانية وهي حال الحشرة[1] .

ولقد وصف مذهب التحول بأنه يؤدي إلى انحطاط وانقراض الحياة من على ظهر الأرض ، الأمر الذي يجعل نظرية التطور عاجزة عن التدليل على حدوث أي ارتقاء تقدمي .

ومن الانتقادات التي وجهت إلى نظرية التطور بصفة عامة أن هناك ثغرات في السلسلة النظرية المزعومة ، ولاسيما بين الإنسان والحيوان من جهة ، وبين المركبات الكيميائية والكائنات العضوية من جهة أخرى . كذلك فإن الأدلة المباشرة ، أي الأمثلة التي يمكن أن نلاحظها لحدوث تعديل فعلي ، قليلة جدا . ومن هنا فإن النظرية تبقى بأسرها بلا إثبات . وأيضا فإنه لا يستطيع من يدافع عن نظرية التطور أن يقدم تفسيرا لأصل الحياة ليس عليه اعتراض . كما أن القائلين بنظرية التطور يقومون بتبسيط مسرف لوقائع هي في ذاتها شديدة التعقيد ، فكلمة التطور تستخدم للدلالة على عوامل كثيرة بحيث لا تكون في النهاية سوى قناع يخفي جهلنا بهذا النمو المتدرج[2] .

وأخيرا توصف نظريات التطور بأنها عقائد لا قيمة لها سوى سمعة الأساتذة

---

(١) هيكل ( إرنست ) : فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء، ص ٤٥ .

(٢) إمام (د. إمام عبد الفتاح) : مدخل إلى الفلسفة ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

الذين أفادوها في شكل الدساتير ، كما يقول جوستاف لوبون[١] .

ويقول المعترضون على نظرية التطور أن الكون قائم على التناسق والتوازن ، فالله ــ سبحانه ــ أراد في تنظيم أجزاء العالم الفردة أن يراعي كل واحد منها عند تنظيم غيره ، وأن يراعي غيره في تنظيمه فيتوازن الجميع ، ففي كل جزء من أجزاء العالم الفردة تاريخ العالم بتمامه ، كما يرى « ليبنتز »[٢] .

## جـ ــ نقد أدلة التطور :

لقد وجه إلى أدلة التطور كثير من الانتقادات ، فمن هذه الانتقادات التي وجهت إلى أدلة التشريح المقارن أن علماء التطور يستنتجون من مقارنة الهياكل العظمية والعضلات والأعصاب في كل الأنواع أنها تنتمي جميعا إلى أصل واحد ، هو الحيوان الوحيد الخلية ، ومن ثم فإن هذه الخلية الواحدة ما هي إلا صورة مصغرة لأي هيكل عظمي أو عضلة أو عصب ، ومن ثم أيضا تلفيقهم لعملية الارتقاء الطويلة من الخلية الواحدة إلى الإنسان . إننا لا نستطيع أن ننفي التشابه بين بعض الأشكال والتكوينات ، ولكن هذا التشابه فرضه الخالق سبحانه وتعالي بما أراده لبعض مخلوقاته من تشابه في طريق المعيشة والغذاء . بل إن هناك آيات في القرآن الكريم تؤكد التماثل والتشابه بين الإنسان والحيوان من حيث التركيب فعبر عن هذا بقوله : « أمم أمثالكم » ونص على التشابه بين الكائنات بقوله « متشابها وغير متشابه » .

ولكننا إذا قبلنا بنظرية التطور القائلة بانحدار الإنسان من أصل مشترك بينه وبين القرد ، فإننا نستطيع أن نضيف أن العصفور قد انحدر من النسر ، لأن كليهما مكسو بالريش ، وأن الكلب قد انحدر من الحمار لأن

(١) صبر ( مصطفى ) : موقف العقل والعلم والعالم . جـ ٢ ص ٢٨٦ .
(٢) المرجع السابق ــ جـ ٢ ص ٢٨٥ .

لكل منهما أربعة أرجل ، وأن البرغوث قد انحدر من الضفدعة والضفدعة من القنغر لأن كلا منها يستطيع القفز .

لقد تمادي بعض التطوريين في الدفاع عن نظريتهم إلى درجة اللجوء إلى الغش . فقد استخدم « إرنست هيكل Ernist Haeckel » رسوما للتدليل على التماثل بين الجنين البشري والحيوان ، ولكنه اعترف فيما بعد بأن عددا من رسومه كان تزويرا محضا ، كما اعترف بأن مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا هذه الخطيئة .

ويعلن بعض العلماء أنه لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره . إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة . لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن . ويعترف « الكونت دي نوي » بأن كل مجموعة وكل فصيلة تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة ، لأننا لم نعثر على أي شكل انتقالي ، ومن المستحيل أن تنسب أي مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم[1] .

أما فيما يتعلق بنقد دليل علم الأجنة ، فإن أكثر التطوريين جرأة يتصور أن الجنين البشري يمر بكل مراحل التطور الحيواني ، أي من الخلية الواحدة إلى الإنسان . وهم يفترضون أن الشهور القلائل التي تنقضي بين الحمل والولادة تغطي ملايين الأعوام من الوجود والتطور : من بويضة إلى سمكة إلى زاحفة ، إلى ثديية ، إلى قرد ، ثم إلى طفل .. وطبيعي أن أول سؤال يقفز إلى الذهن هنا هو : إذا كان من الممكن أن يحدث هذا في خلال تسعة أشهر ، فلماذا استغرق حدوثه ملايين السنين من قبل ؟ إن هذه النظرية العربية التي قدمها

(١) الغاياتي ( السيدة منيرة علي ) : مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين ص ١٢ — ١٤

« إرنست هيكل » تقول إن تاريخ الجنين هو إعادة لتاريخ الأنواع . ومعظم التطوريين لا يؤمنون بها . إنهم يحذفون المراحل العديدة ويحتفظون بثلاث فقط هي : السمكة والذيل والشعر .

إنهم قد لاحظوا شقوقا شعيبية في الجنين . ولكن الحقيقة هي أن هذه الثنايا تتكون مع نمو الجنين ، فهناك التجاويف السمعية والجزء الأسفل من الفك وجزء من الرقبة . أما ما يسمونه ذيلا فإنه في الواقع العمود الفقري جنبا إلى جنب مع الأمعاء التي تنتهي بالفتحة الشرجية . فهل هناك حيوان يفرز فضلاته من طرف ذيله ؟ أما ما يدعونه شعرا ، فإن ذلك الزغب المتناهي الدقة والنعومة الذي يكسو الجنين ويسقط عند الولادة لا يمكن مقارنته بتلك الفروة الغليظة الخشنة التي تغطي أجساد الحيوانات . لقد اعترف « أرثر كيث » بأننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميزة لأسلافه ، من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين في كل مراحل تكوينه خابت آمالنا . فالجنين لم يكن قردا في أي من مراحله[١] .

ولقد اعترف « هيكل » رسميا بتزوير بعض الصور التي تصور المراحل المختلفة للجنين ، وذلك في مقالة كتبها في ديسمبر سنة ١٩٠٨ تحت عنوان « تزوير صور الأجنة » ، واعترفُ أيضا بأن مئات العلماء شاركوه في هذه الجريمة ، فإن كثيرا من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريخ وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة والمعول عليها مزور مثل تزويره تماما لا يختلف عنه في شيء[٢] .

ومن الانتقادات التي وجهت إلى دليل الأعضاء الأثرية الذي يقول بأن بعض أعضاء الإنسان تمثل بقايا أعضاء كانت ضرورية لأسلافه ولكنها أصبحت

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ — ١١ .

(٢) الجوهري ( الشيخ طنطاوي ) : الجواهر في تفسير القرآن جـ ٢ ص ٤٩ .

مع الزمن عديمة الضرورة بالنسبة له ، فإن بعض التطوريين يعترفون بأن كل ما كانوا يسمونه بقايا أعضاء ليس من بينها عضو واحد بلا فائدة أو غرض . ويقول « البروفيسور جود ريتش » من « جامعة أكسفورد » إنه من الحماقة القول بأن أي جزء من جسم الإنسان لا فائدة له . ولو كانت هناك ثمة بقايا أعضاء فإنها حينئذ تكون شاهدا على التدهور الذي هو عكس الارتقاء . إن على التطوري إذا أراد أن يعزز نظريته أن يثبت ظهور أعضاء جديدة وليس اختفاء أعضاء كانت موجودة[1] .

أما فيما يتعلق بنقد دليل الحفريات الجيولوجية ، فإن الاعتراض الرئيسي الذي يوجه إليها هو أن الجيولوجيا لا ترينا دليلا على عملية التدرج ، وهذا باعتراف التطوريين أنفسهم . إن الطبقات الأولى من البقايا وهي ما يسمى بالطبقات الكمبرية ترينا أول ظهور مفاجيء للحياة تحت أشكالها المختلفة ، وليس في هذه الطبقات ما يشير إلى الارتقاء من مادة حية عديمة الشكل . أما طبقات الصخور الأقدم والتي تسمى « ما قبل الكمبرية Precamberian » فخالية تماما من أي بقايا . وبينما طبقات البقايا الأولى تخص أنواعا مازالت موجودة حتى يومنا هذا ، لم يعثر على أي بقايا تمثل حلقات انتقالية لتثبيت صحة نظرية التطور العضوي فيما يتصل بتغير الأشكال . إن الحياة طبقا لما تقول به هذه النظرية نشأت منذ مليار ونصف مليار سنة تقريبا ، ولكن البقايا المكتشفة لا تغطي أكثر من نصف مليار سنة ، أي أن التطوري يغمض عينيه عن مليار سنة ثم يسمي نفسه عالما !! ، والجيولوجيا أيضا تؤكد أن أشكال الحياة لا تتخطى الحدود بين الأنواع ، الأمر الذي يؤكد أن كل نوع نشأ مستقلا[2] .

---

(١) الغاياتي ( منيرة ) : مذهب النشوء والارتقاء . ص ١١ — ١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ .

فالحفائر لا تدل دلالة قطعية على الانتقال من نوع إلى نوع آخر ، ويقول كثير من العلماء إن الأشكال المرئية في بعض الحفريات تدل على وجود أصناف وأجناس وأنواع في الماضي بين الأصناف والأجناس والأنواع الموجودة في الحاضر ، ولا حفرية تثبت الانتقال من نوع إلى نوع . فاكتشاف حفرية بين نوعين موجودين يدل على وجود نوع بينهما ولا يدل على الانتقال من نوع إلى نوع[1] . وحتى لو اكتشفت الحلقة المفقودة فإنها لا تثبت التطور ، لأن النفس الناطقة أمر معنوي لا مكان له في الآلات والأعضاء المحسوسة[2] .

أما فيما يتصل بأصل الإنسان ، فقد نقده كثير من العلماء ، فهذا ألفريد رسل والاس وهو شريك داروين في نظريته ، يقرر أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ، ولابد من القول بخلقه رأسا . وهذا « شابمان بنشر » وهو من علماء التشريح ، يقول إنه لا احتمال لتسلسل الإنسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منه تركيب الإنسان، وقال « هكسلي » إنه لا ريب في أن الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات ( مثل التولد الذاتي والانتخاب الطبيعي ) لم يسلم بها[3] .

وينتقد العلماء الحفريات الخاصة بالإنسان وما يتصل بالحلقة المفقودة ويقول « أنتوني ستاندن Antony Standen » في كتابه « العلم بقرة مقدسة Science is a Sacred Cow » إنه لأقرب إلى الحقيقة أن جزءا كبيرا من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة ، بل إننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها . إننا في حاجة إلى ملايين الحلقات لنربط بين الإنسان وبين أي نوع من القرود . ومما يبعث على

---

(١) صبري ( مصطفى ) : موقف العقل والعلم والعالم .. جـ ٢ ص ٢٧٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .
(٢) صبري ( مصطفى ) : موقف البشر تحت سلطان القدر ص ١١.
(٣) العقاد ( عباس محمود ) : الإنسان في القرآن ص ٢٢٤ ، ٩٣ ، ١٢٤ .

الحيرة أكثر أن نقطة البداية ( بداية الحياة ) في هذه السلسلة مفقودة . وعندما عجز التطوريون عن إثبات انحدار الإنسان من القرد الحقيقي فكروا في نسبته إلى نوع أو آخر من القرد ـــ الإنسان أو « الإنسان القرد » موحين بوجود صلة عائلية بينهما . وعندما تمعن في البحث في هذه النظرية فإنك لن تكتشف فقط افتقارها إلى الأدلة ، بل الأدهى من ذلك أنك ستكتشف ميلا أكيدا إلى اختلاق الحقائق اختلاقا . إن إنسان جاوة Java Man الذي اكتشفه « دوبوا Dubois » سنة ١٨٩١ ليس سوى قطعة من جمجمة بها بضعة أسنان ، ثم قطعة من عظمة فخذ وجدت على بعد خمسة عشر مترا منها . وفي المؤتمر الدولي الثالث الذي عقد في « ليد » أثبت فيرشو Virchow أن عظمة الجمجمة قطعة من جمجمة شمبانزي ، وأن عظمة الفخذ هي لرجل ، وأن ظروف اكتشاف هذا الإنسان نفسها غير مقنعة ، أما « إنسان بيلتدو Pildoa » فقد بني من شظايا جمجمة وعظمة فك وسنّ واحدة ويؤكد التقرير الذي وضعه « هيرديليكا Hardiaka » عن هذه الأحجية العظيمة أن الشظايا الجمجمية هي لإنسان ، أمّا عظمة الفك فإنها من بقايا شمبانزي . أما « أرثر كيث » فقد أكد أن ضم هذه الشظايا يفترض أنها لمخلوق يستحيل وجوده ، مخلوق لا يستطيع أن يتنفس أو يأكل . أما فك « إنسان هيدلبرج Heidelberge Man » الكبير فإنه مماثل لفك الإسيكمو المعاصرين ، ونفس الشيء ينطبق على « إنسان بكين » الذي تحمل عظام فكه نفس ملامح مثيلتها في أفراد قبائل الفيدا Veddas » الذين يعيشون اليوم في جزيرة سيلان .

إن معظم هذه الاكتشافات هي من الناحية الأنثروبولوجية تعتبر أحدث من أن تمثل أصل الجنس البشري ، فاكتشاف عظام جمجمة مماثلة لعظام جمجمة الإنسان المعاصر يرجع عمرها إلى أبعد من الزمن الذي قدره علماء التطور أنفسهم للحلقة المفقودة المزعومة حقيقة تسبب لهم حيرة أكبر ، يقول « أرثر

كيث » إننا لا نستطيع أن ننسب الإنسان إلى أي من هذه الأنواع، ويقول « برانكو Branco » إن علم الجيولوجيا لا يعرف للإنسان أسلافا . كما يذكر « إيريك واسمان Wasman » أن البقايا المكتشفة في الحفريات لا تؤيد من وجهة نظر علم الوراثة أي نظرية عن أصل الإنسان . ويؤكد « فيرشو » أن فكرة القرد الإنسان هي محض خرافة(١) .

ومن وجهة أخرى ، فإن تاريخ البشرية يثبت أن الإنسان خلق كاملا ثم بدأ ينحدر ، حيث تقول مجلة العلوم المصورة Science Illustrated الإنجليزية إن العلم يؤيد قصة آدم وحواء إلى حد ما . إننا نعترف بحقيقة فكرة الأسرة البشرية ذات الأصل الواحد ، فعندما تكاثر بنو البشر واختلطت الجماعات المنعزلة وتزاوجت أنتجت خصائص عنصرية مختلفة ، وبدلا من الارتقاء إلى أعلى ، تؤكد الحقائق أن الإنسان يتدهور . وفي هذا المعنى ذكرت « المجلة الطبية البريطانية British Medical Jurnal — عدد مارس ١٩٤٦ » أن الأثريين قد عثروا على بقايا بشرية تعود إلى زمن ما قبل الطوفان . وتدل هذه البقايا على طول أعمار غير عادية لأصحابها . وكان من أكثر ما لفت الأنظار هو أسنانها التي بريت حتى وصلت إلى اللثة من طول استعمالها وثمة دلائل قديمة وفيرة تؤكد أنه قد عاش على ظهر الأرض جنس من نوع أروع في كماله الجسدي وجمال عضلاته وأكبر في حجم جمجمته من الإنسان المعاصر ، وأطول منه عمرا إلى حد كبير(٢) .

هذا ولم تقدم نظرية التطور دليلا واحدا على أن اللغة قد تطورت عن الخوار والزئير ، في الوقت الذي يثبت فيه العلماء أن أقدم أشكال اللغات الموجودة حاليا كانت أكثر تعقيدا من صيغتها المعاصرة . فمن الواضح أن الإنسان لم

---

(١) الغاياتي ( منيرة ) : مذهب النشوء والارتقاء .. ص ١٤ — ١٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ .

يبدأ بأسلوب اتصال بسيط ولكنه امتلك من قديم الأزل لسانا ناطقا ذرباً ، أخذ يتجه تدريجيا إلى ما هو عليه حاليا من بساطة .

وهناك فارق كبير بين الإنسان والقرد ، هو الفارق الروحي ، وهو يعد من أهم الحلقات المفقودة وأكبر فجوة من الفجوات التي لم تستطع الآثار الحديثة أن تكملها أو تملأها ، ولم يستطع علماء الحيوان أن يؤكدوا وجود أصل حيواني لروح الإنسان . ثم إن « دارون » نفسه قد اعترف بوجود ثغرات واسعة في نظريته تنتظر من يسد خلتها[١] . كما اعترف بأنه يتكلم عن الأطوار التي تؤثر في جسد الإنسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التي يقررها الدين[٢] .

والملكات الروحية أو النفسية في الإنسان كما يقررها علماء النفس والتربية هي : الإدراك ، والتذكر ، والخيال والشعور واللاشعور ، والتوقع والإحساس الخلقي والأدبي[٣] .

إذن فالفرق بين الإنسان والقرد أو الحيوان ليس بفرق ناشيء عن الاختلاف في الدرجة ، بل هو فرق ناشيء عن الاختلاف في الماهية والطبيعة ولهذا لا يجوز الحكم بمجرد التشابه بأن الإنسان والقرد منحدران من سلف مشترك[٤] .

ويثبت آخر عالم بريطاني في علم الأنثروبولوجيا ، وهو « ويدنريش » في أحدث كتاب له في نقد نظرية « دارون » التطورية ، أن أصل الإنسان إنسان حيث يحكم « ويدنريش » على نظرية دارون بالإعدام ، ويسقط حيثياتها من خلال الدراسات ذات الصبغة العلمية البحتة . كما يؤكد أن أصل

---

(١) ولز (هـ. ج) : معالم تاريخ الإنسانية — لجنة التأليف سنة ١٩٦٧ جـ ١ ص ٣٣ . ٦٤
(٢) العقاد ( عباس ) : الإنسان في القرآن ص ٨٩ .
(٣) فينكس ( فيليب هـ . ) : فلسفة التربية . ترجمة د. محمد لبيب النجيحي ص ٧١٢
(٤) صبري ( مصطفى ) : موقف العقل والعلم والعالم . جـ ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

الإنسان عملاق ، وليس قردا أو « غوريلا » كما حاول أن يؤكد دارون[١] .

كما أن هناك اكتشافا جديدا لو صح لانقلبت نظرية التطور ، فقد أعلن الدكتور / « رتشارد ليكي » مدير المتحف الوطني في كينيا ، في نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، أمام الجمعية الجغرافية الوطنية في واشنطن عن اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون سنة مضت ، وهذه الجمجمة ترجع بذلك إلى مليون ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى ذلك الحين ، كما أنه تم اكتشاف عظام ساق ترجع إلى تلك الحقبة ذاتها من التاريخ في جبل حجري بإحدى الصحراوات شرقي بحيرة « رودلف » في كينيا . ويبدو أن هذا الاكتشاف سوف يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان من أسلافه المبكرين من عصور ما قبل التاريخ . فنظريات التطور وعلى رأسها نظرية دارون ، تذهب إلى أن الإنسان تطور من مخلوق بدائي كانت له سمات فيزيقية أقرب إلى سمات القردة العليا على ما سبق أن ذكرنا ، وإن أقدم أثر للإنسان ككائن منتصب القامة يرجع إلى نحو مليون سنة فقط في حين أن الاكتشافات الجديدة تدل على أن الكائن البشري المنتصب القامة الذي يسير على ساقين اثنتين لم يتطور عن كائن أكثر بدائية أو أنه انحدر من سلالة أحد تلك الآدميات الشبيهة بالقردة ، وإنما عاصرها منذ حوالي مليونين ونصف مليون سنة . وليس من شك في أنه لو صحت هذه النظرية لهدمت نظرية التطور الدارويني من أساسها ، ولدعمت نظرية الخلق المستقل أو المباشر ، ولأمكن بذلك التقريب بين النظريات العلمية والدين ، بل وسد الثغرة التي تبدو قائمة في الوقت الحالي بينهما[٢] .

---

(١) عبد الغني ( مصطفى ) : مقال بجريدة الأهرام في ١٩٨١/٥/٨ بعنوان « متى نعيد النظر في الفكر الغربي » .

(٢) مجلة عالم الفكر ص ٩٤٩ ، مقال رئيس التحرير .

### د ـ نقـد نظريـة لامارك :

إن أهم نقد يمكن أن يوجه إلى نظرية لامارك التي تقول بتوارث الصفات المكتسبة هو أن الصفات المكتسبة لا تورث ، طبقا لما أقره علم الأجنة . وقد رفض دارون نفسه هذه النظرية ، واتجه إلى فرضية الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح .

هذا بالإضافة إلى أن التحليل الذي تذهب إليه هذه النظرية بالنسبة لظاهرة الأشكال والأعضاء الجزئية التي تتأثر مع الزمن بحال البيئة والظروف والأجواء لا تغطي إلا جزءا يسيرا جدا من موضوع التطور الذي لا يزال يتطلب تحليلا وشرحا يجيبان على أسئلة كثيرة تفرض نفسها في هذا المجال[١] .

### هـ ـ نقد نظرية دارون :

لقد وجدت نظرية دارون عن الانتخاب الطبيعي كثيرا من الانتقادات وأول ما توصف به هذه النظرية أنها فرض محض ، فهذا « لويس ماسينيون » يقول : « إن مذهب دارون فرض محض ولو تمسك به بعض العلماء »[٢] . ويقول غيره إن قانون الانتخاب الطبيعي يبقى فرضيا ما لم ير مثال صحيح للانتقال من نوع إلى نوع[٣] . ويقول البروفيسور « لوك Look » من جامعة كمبردج Cambridge في هذا الخصوص إن الانتخاب الطبيعي أو الصناعي لا يمكن أن يخلق شيئا جديدا . ويقول « هوجو ديفريز Hugo de Vries » إن الانتخاب الطبيعي يمكن أن يفسر بقاء الأقوى ، ولكنه لا يستطيع تفسير

---

(١) البوطي (د. محمد سعيد رمضان) : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٢) ماسينيون ( لويس ) : تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية ، المحاضرة الخامسة عشرة ، كتاب مخطوط في المعهد الفرنسي بالقاهرة تحت رقم ٢٢٩٦ .

(٣) صبرى ( مصطفى ) : موقف العقل والعلم والعالم ... جـ ٢ ص ٣٠٠ .

وجوده أصلا . وأكثر من هذا فإن الانتخاب الطبيعي حرى بنبذ أي تعديلات عديمة الفائدة إذا ما أخذنا بمقولة دارون من أن كل التغيرات العديمة الفائدة يقضي عليها بلا هوادة وفي وقتنا الحاضر فإن كثيرا من التطوريين ينبذون نظرية دارون ويأخذون بدلا منها بنظرية التحولات(١) .

وأكثر الانتقادات شهرة يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

١ ــ إن الواقع المشاهد يتنافي مع الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح فإن الكون لا يزال يعج بالأصلح والصالح وغير الصالح من شتى أصناف الحيوانات بدءا بالهلاميات إلى القردة فالإنسان . فالضعيفما يزال يعيش بجانب القوى .

٢ ــ لا خلاف في أن كل نوع من الحيوانات تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن بسبب عوامل طبيعية مختلفة تتغلب عليها . هذه حقيقة مشاهدة لا تنكر ، أما أن تكون الكارثة نتيجة تسابق وتنافس ينتهيان بانتخاب الأنسب والأقدر فهذه مسألة أخرى . إن كلا من الموت والنجاة كثيرا ما يكون عائدا إلى المصادفة المجردة ، لا إلى صفات خاصة في الفرد ، فالمستنقع العظيم الذي يجف ، والموجة الهائلة التي تتدفق على الرمل يتركان بعدهما ألوفا من الجثث ، وتنجو من الكارثة طائفة أخرى ، ولكن لا الموت اصطفى لنفسه الضعفاء ، ولا النجاة اختارت لنفسها الأقوياء ، بل الأمر كله جاء على المصادفة .

٣ ــ إن الموت يتناقض هو الآخر مع ما يراه « دارون » فأي بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربص به ؟

٤ ــ إن عملية الانتخاب ليست حركة آلية ، سواء أكانت طبيعية أم صناعية بل هي وسيلة تستهدف غاية ، والسعي نحو غاية ما ، يعتبر أعقد عمليات الفهم والإدراك ، فكيف يمكن إسناد ذلك إلى « الطبيعة » التي لا

---

(١) الغاياتي ( منيرة ) : مذهب النشوء والارتقاء ... ص ١٩ .

مناص من تفسير عملها وآثارها ( مهما تنوعت التعابير عنها ) بالآلية والعشوائية المجردة ؟ .

وانتخاب الأصلح لابد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح ممن دونه ويعلل ذلك ويوجهه ، فعلى أي قانون تستند الطبيعة في انتخابها وما هو التعليل الذي هضمته الطبيعة لذلك ثم انطلقت متأثرة به ؟

٥ ــ إن وقاية الحياة من أن يتسلل إليها ضعيف لا تتوفر فيه مجموعة الصفات الصالحة أيسر على الطبيعة ــ لو كان الأمر بيدها ــ من أن تذهل عنه ، حتى إذا تسلل إلى الحياة وأخذ قسطه منها وراح يشارك أمثاله في القيام بكافة الوظائف الحياتية انتبهت إليه فجأة ، ثم راحت تلتقطه وأمثاله من بين سائر الحيوانات لتقضي عليه وتصحح في محوه خطيئتها التي ما كان لها أن ترتكبها .

إن كان هذا الضعيف محكوما عليه بالتخلف ، فالزوال ، لأنه ليس من صنف الصالح أو الأصلح ، فلماذا أوجدت الطبيعة هذا الذي تريد أن تقضي عليه أو تؤخره عن الركب ؟ أما إذا قلنا إن أمر إيجاده لم يكن إليها ، فأحرى أن لا يكون إليها ــ أيضا ــ أمر تهذيب الكون بإعدامه والقضاء على خطيئة وجوده .

٦ ــ إن كل ما اعتمده « دارون » لا يعدو أن يكون من نوع المشاهدات الوصفية الثابتة ، أي أنه لاحظ ظاهرة التشابه التصاعدي في الكائنات الحية بدءا من الخلية الأولى ، إلى أرقى أنواعها وهو الإنسان ، فقال إنها جميعا منحدرة من أصل واحد . ولكن ما المانع من أن يكون الاختلاف بين الإنسان وغيره اختلافا في الماهية وإن تراءى بينهما بعض الشبه ؟ أي لماذا لا تكون هذه السلسلة المتدرجة في التشابه من الكائنات الحية قائمة على هذا التدرج والتشابه نفسه منذ أن خلقها الله عز وجل ؟

لو كان ثمة ميزان من دليل التجربة والملاحظة لكان في ميسوره أن يقضي على هذا التساؤل من أساسه ، وأن يحمل إلينا القول الفصل في المسألة[١] .

### و ــ نقد الداروينية الجديدة :

لقد استهدفت « النسخة المصححة » لنظرية دارون ، والمعروفة بالنظرية التركيبية الحديثة ، هي الأخرى لانتقادات كثيرة . حيث وصفت بأنها ليست تامة وليست نظرية علمية دقيقة ، يقول « جون كيمني » : « إن الصعوبة الكبيرة في تقييم هذه النظرية تكمن في أنها ليست تامة ، فهي وصف كيفي أكثر منها نظرية علمية دقيقة ، ويدعى القائلون بالداروينية الجديدة أنه ليس ثمة حالة معروفة من حالات النشوء والارتقاء إلا ويمكن لهم تفسيرها . هذا في الواقع غير صحيح ، فالحقيقة هي أنه ليس ثمة حالة تناقض نظريتهم بجلاء ، إلا أن هذا لا يدعو للعجب عندما تدرك أن النظرية لا تقول الشيء الكثير في الواقع ، لأنها لا تتكهن بالمستقبل ، والتعليل المناسب هو الذي يمكننا من التكهن بالنتائج قبل حصولها »[٢] .

ومن أهم الانتقادات التي وجهت إلى هذه النظرية :

١ ــ إن التطور المفروض الذي هو أصل البحث تطور تقدمي ولا ريب إذ هو التفسير المقترح لتدرج أصناف الحيوانات على ضوئه ، فهل من شأن الطفرة أن تنطوي على هذا التطور التقدمي ؟

---

(١) المودودي ( أبو الأعلى ) : الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ٢٥ ، والشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان . ص ١٨٧ ، د. محمد سعيد رمضان البوطي : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٢ ــ ٢١٥ ، والشيخ مصطفى صبري : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين جـ ٢ ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ .

(٢) كيمني ( جون ) : الفيلسوف والعلم ص ٢٨٧ .

المعروف أن الطفرة إنما تنطوي دائما على صفات الانتقاص والاضطراب ، وهل الموت وما يكون بين يديه من أسباب ومقدمات إلا من أبرز مظاهر الطفرة ؟ فكيف يفسر التطور التصاعدي المطرد على أساس من هذا العامل الانتقاصي المضطرب ؟

وبتعبير آخر ، لماذا لا تتجه الطفرة يوما في سيرها بالركب الحيواني نحو الانتكاس إلى الخلف بدلا من الصعود الشاق الدائب إلى الأمام ؟

٢ ـــ إذا كانت الطفرة هي التي تتحكم فيما يطرأ على الكائن الحي من تغير وتطور ، فأي موجب يبقى لافتراض نشأة الكائنات من أصل واحد ؟ إذ من المعلوم أن هذا الافتراض إنما لاقى القبول عند أصحابه بناء على ما لاحظوه من الشبه التصاعدي بين هذه الكائنات ، وهي الملاحظة التي جعلتهم يقولون بمبدأ الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح .

فإذا نسف هذا المبدأ بافتراض الطفرة ، فلابد من تجاهل ظاهرة التشابه التصاعدي الملموس بين أصناف الأحياء . وعندئذ لا يبقى لافتراض وحدة الأصل الحيواني أي وجه مقبول .

وهكذا فإن القول بالطفرة يحمل في طواياه عوامل التدمير لفكرة التطور من أساسها .

٣ ـــ إن القول باحتضان قانون الوراثة للدفع الطفري الذي يفترض أنه ساق الحيوان في وقت ما من عمره النوعي أو « السلالي » إلى قفزة تطورية ، دون الإشارة إلى أن ما قد يعتبر شبه دليل على هذه القفزة ليس أكثر من ستر لضعف هذا الرأي وراء نظام الوراثة .

إذ من الطبيعي أن يتساءل الباحث عن أي معلمة من المعالم التي بإمكانها

أن تشير لنا ، ولو عن بعد ، إلى أي حقيقة تاريخية ظهرت فيها طفرة ما لحيوان ما ، أي قبل أن تختفي في مكنون الغيب الوراثي[1]

---

(1) البوطي ( د. محمد سعيد رمضان ) : كبرى اليقينيات الكونية ص ٢١٦ ــ ٢٢٧ .

# خاتمة

تتنوع نتائج هذا البحث بحسب ما عرض له من قضايا ومناقشات ولا أود في هذه الخاتمة أن أعيد ما سبق عرضه ، ولكن أحب أن أسجل هنا أهم النتائج التي يمكن استنتاجها من مثل هذا البحث .

**أولا** : إن موضوع الخلق ، وما يتصل به من البحث في نشأة الكون بصفة عامة ، ونشأة الحياة والكائنات الحية بصفة خاصة ، والبحث عن أصل الأنواع وأصل الإنسان ، إنما هو مسألة إلهية غيبية ، فلا يستطيع بشر مهما أوتي من علم أن يفصل فيها بعقله ورأيه ، مهما ادعى المعرفة والتجريب . ولعلم الله ــ سبحانه ــ بأنه سوف يأتي نفر من بني آدم يحاول تخريج القضية عن حدها الصحيح لاويا عنق الحقيقة بعقله ، فإنه سبحانه قد سجل في محكم كتابه أن هذه مسألة لم يشهدها مخلوق حتى يستطيع أي مخلوق أن يجزم فيها برأي ، حيث يقول سبحانه : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » .

**ثانيا** : إنه لا يفهم من أقوال مفكري الإسلام أنهم قالوا بالتطور العضوي الدارويني ، بمعنى أن الكائنات قد نشأت من أصل واحد ثم أخذت تترق نتيجة لتأثير البيئة والانتخاب الطبيعي والتنازع في سبيل البقاء وبقاء الأصلح والوراثة والطفرة ، وإنما الذي يفهم من آرائهم أن هناك تدرجا في خلق الكائنات بحيث وجدت المعادن ، ثم وجد النبات ، ثم وجد الحيوان ، ثم وجد الإنسان . وفي داخل كل مرتبة من هذه المراتب درجات متعددة . وهذا التطور قائم على مبدأ الأفضلية والشرف . وحتى لو أنطقنا مفكري الإسلام بنظرية داروين فسيكون هناك خلاف بين نظريتهم ونظرية دارون ، حيث أنه في

في نظرية دارون ينتهي التطور بوجود الإنسان فقط ، فهو الغاية من التطور ، أما مفكرو الإسلام فإنهم يعتبرون الموت مرحلة من مراحل التطور ، كما أنه ليست الغاية للكائنات الحية هي المحافظة على الحياة ، فهناك أمور جمالية في الكائنات ليست لازمة للمحافظة على الحياة .

**ثالثا** : إن القرآن الكريم لم يتحدث عن أصل النبات أو الحيوان ، ولهذا يجوز للعقل الإنساني أن يجد في البحث عن هذا الأصل دون أن يلوي عنق الحقائق أو يزيف فيها . أما فيما يتعلق بأصل الإنسان فإن القرآن الكريم والسنة المطهرة قد أفاضا في الحديث عنه، ولهذا لابد من الأخذ بإخبارهما عن هذا الأصل دون مناقشة أو جدل ، ولاسيما أن كثيرا من العلماء لا يسلم بالأصل الحيواني للإنسان .

**رابعاً** : إنه لا ينبغي الإسراع بالرفض أو القبول لأي نظرية علمية مهما كان مصدرها ، بحيث لا يكون القبول أو الرفض إلا بعد دراسة فاحصة متأنية ، حتى لا يقع الإنسان في تناقض ، فيوفق بين نظريتين متعارضتين إحداهما روحية والأخرى مادية ، أو يؤيد نظرية هي محل انتقاد حتى من الذين أسسوها وحاولوا تبريرها .

**خامسا** : إنه لابد من الأخذ بالمفهوم الإسلامي للإنسان بدلا من الأخذ بالمفهوم الغربي الذي يؤكد أنه « حيوان » فالإنسان في الإسلام هو المخلوق الذي كرمه الله « ولقد كرمنا بني آدم ... وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، وجعله في أحسن صورة وقيمة « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » والتقويم ذو علاقة وثيقة بالقيمة المعنوية ، وقد حظى الإنسان بالنفخة القدسية من روح الله « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » فاستحق بذلك تكريم ملائكة الله في الملأ الأعلى ، حتى حسده إبليس ، وهو محفوف دائما وأبدا بحفظ الله ورعايته « له معقبات من بين يديه

ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » .

فالقول بحيوانيته بعد كل ذلك التمييز والتكريم والتفضيل يجب أن يقتصر على جانب واحد هو المشاركة في التركيب العضوي واشتقاقه مع الكائنات جميعا من مصدر واحد هو الأرض ... كما يشترك الماس والذهب الأصفر في كونهما جميعا من هذه الأرض ولكنها مع ذلك تتفاوت قيمة وأثرا وخواص .. حتى في النوع والنوع . وما ألطف قول المتنبي لسيف الدولة :

فإن تفق الأنام وأنت منهم     فإن المسك بعض دم الغزال

# أولا : المصادر والمراجع العربية


**١ ــ الآمدي ( سيف الدين )** : غاية المرام في علم الكلام ، تحقيق د/ حسن محمود عبد اللطيف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٧١ .

**٢ ــ إخوان الصفـا** : رسائل ، طبعة بمباي سنة ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ هـ أربعة ملجدات وطبعة دار صادر ، بيروت سنة ١٩٥٧ .

**٣ ــ الأشعري ( أبو الحسن )** : مقالات الإسلاميين ، إستانبول سنة ١٩٣٠ .

**٤ ــ ابن أبي أصيبعة** : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق القاهرة — كونكسبرج سنة ١٨٨٢ ــ ١٨٨٤ .

**٥ ــ إقبال ( محـمـد )** : تجديد التفكير الديني في الإسلام ، ترجمة عباس محمود مراجعة وتقديم المرحوم عبد العزيز المراغي ، والدكتور / مهدي علام ، الطبعة الثانية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٨ .

**٦ ــ إمام (د. إمام عبد الفتاح)** : مدخل إلى الفلسفة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢ .

**٧ ــ الأنصاري ( ابن هشام )** : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة .

**٨ ــ برجسون ( هنــري )** : التطور الخالق ، ترجمة المرحوم الدكتور محمود قاسم ، دار الفكر العربي سنة ١٩٦٠ .

**٩ ــ برونوفسكي ( ج )** : ارتقاء الإنسان ، ترجمة د. موفق شخاشيرو ، الكويت سنة ١٩٨١ .

**١٠ ــ البري ( عبد اللطيف )** : التعارض بين الدين والعلم ، دار التراث ، بيروت .

**١١ ــ البغدادي ( عبد القاهر )** : الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة صبيح ، القاهرة .

١٢ ـــ البهي ( د. محمد ) : العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة سنة ١٩٧٦ .

١٣ ـــ البوطي ( د. محمد سعيد رمضان ) : كبرى اليقينيات الكونية ، دار الفكر الطبعة السادسة سنة ١٣٩٩ هـ .

١٤ ـــ بوكاي ( موريس ) : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٩ .

١٥ ـــ البيضاوي ( أبو سعيد ) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ( جزآن ) ، مكتبة المشهد الحسيني ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

١٦ ـــ بينيس ( دكتور / س ) : مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود ، ترجمة دكتور / محمد عبد الهادي أبو ريدة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

١٧ ـــ التستري ( سهل بن عبد الله ) : رسالة الحروف ، تحقيق الأستاذ الدكتور / محمد كمال جعفر ، ضمن كتاب من التراث الصوفي سهل بن عبد الله الجزء الأول .

١٨ ـــ التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكتا سنة ١٨٦٣ .

١٩ ـــ التوحيدي ( أبو حيان ) : المقابسات ، تحقيق حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

٢٠ ـــ ابن تيمية : نقض المنطق ، القاهرة .

٢١ ـــ جابر بن حيان : رسائل ، نشرة بول كراوس ، القاهرة سنة ١٣٥٤ .

٢٢ ـــ الجاحظ : كتاب الحيوان ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ـــ القاهرة سنة ١٣٥٧ هـ .

٢٣ ـــ الجاحظ : رسائل ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مكتبة الخانجي ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٢٤ ـــ الجامعة الأمريكية : المعجم العلمي المصور ، القاهرة .

٢٥ ـــ الجرجاني : التعريفات قسطنطينية سنة ١٢٧٥ هـ .

٢٦ ــ الجسر ( الشيخ نديم ) : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن الطبعة الثالثة ، دار العربية ، بيروت سنة ١٩٦٩ .

٢٧ ــ جعفر ( الأستاذ/د. محمد كمال ) : التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ، دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠ .

٢٨ ــ جعفر (أ. س. محمد كمال) : دراسات فلسفية وأخلاقية ، القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٢٩ ــ جعفر ( أ. د. محمد كمال ) : في الدين المقارن ، الطبعة الأولى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٣٠ ــ جعفر ( أ. د. محمد كمال ) : من التراث الصوفي : سهل بن عبد الله التستري ، دراسة وتحقيق ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٤ .

٣١ ــ جعفر ( أ. د. محمد كمال ) : من قضايا الفكر الإسلامي ، الطبعة الأولى ــ مكتبة دار العلوم ــ القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٣٢ ــ جينــز ( سير جيمس ) : النجوم في مسالكها ، ترجمة الدكتور / أحمد عبد السلام الكرداني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

٣٣ ــ جوهري ( الشيخ طنطاوي ) : الجواهر في تفسير القرآن ، الطبعة الثانية مكتبة الحلبي سنة ١٣٥٠هـ .

٣٤ ــ الجويني ( عبد الملك ) : لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ، تحقيق د. فوقية حسين ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٣٥ ــ ابــن حــزم : الفصل في الملل والنحل ، مكتبة صبيح القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٣٦ ــ حســن ( عبـاس ) : اللغة والنحو بين القديم والحديث ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

٣٧ ــ حسين ( حسن ) : مقدمة ترجمة كتاب فصل المقال في فلسفة النشوء

والارتقاء لإرنست هيكل، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٢٤ .

٣٨ ـ حسين ( الشيخ محمد خضر ) : دراسات في العربية وتاريخها ، الطبعة الثانية ، دمشق سنة ١٩٦٠ .

٣٩ ـ الحصري ( ساطع ) : آراء ابن سيناء في الجيولوجيا ، مقال ضمن الكتاب التذكاري للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا ، القاهرة سنة ١٩٥٢ .

٤٠ ـ حكماء صهيون : بروتوكولات ، ترجمة محمد خليفة التونسي تقديم عباس محمود العقاد ، دار التراث القاهرة سنة ١٩٧٧ .

٤١ ـ حلمي ( د. مصطفى محمد ) : المخاطر التي تواجه الشباب المسلم وكيف نتوقاها ، دار الأنصار ، القاهرة .

٤٢ ـ ابن حمدون : كتاب التذكرة ، القاهرة سنة ١٣٤٥ هـ .

٤٣ ـ الخطيب ( أ. عبد الكريم ) : التفسير القرآني للقرآن ( ستة مجلدات ) الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي القاهرة .

٤٤ ـ ابن خلدون : مقدمة ، طبعة دار الشعب ، القاهرة وطبعة الدكتور / علي عبد الواحد وافي لجنة البيان العربي ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٤٥ ـ الخياط ( أبو الحسن ) : كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، تحقيق وتقديم الدكتور / نيبرج ، القاهرة سنة ١٩٢٥ .

٤٦ ـ دي بور ( ت. ج ) : مقال عن الخلق ، دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية .

٤٧ ـ دارون ( تشارلز ) : أصل الأنواع ، ترجمة إسماعيل مظهر ، بيروت .

٤٨ ـ الدميري ( كمال الدين ) : حياة الحيوان الكبرى ، مكتبة الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٤٩ ـ الراغب الأصفهاني : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، المطبعة الحميدية المصرية ، القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

٥٠ ـ الـــرازي : رسائل فلسفية ، جمعها وصححها بول كراوس ، جامعة فؤاد الأول ـ كلية الآداب ـ القاهرة سنة ١٩٣٩ .

٥١ ـ ابن رشد ( أبو الوليد ) : تهافت التهافت ( قسمان ) تحقيق دكتور سليمان دنيا ، الطبعة الثانية دار المعارف ـ القاهرة ، القسم الأول سنة ١٩٦٩ ، والقسم الثاني سنة ١٩٧١ .

٥٢ ـ ابن رشد ( أبو الوليد ) : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، دراسة وتحقيق محمد عمارة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٥٣ ـ ابن رشد ( أبو الوليد ) : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة تحقيق دكتور محمود قاسم ، الطبعة الثانية ـ الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٥٤ ـ ابـن رشيــق : كتاب العمدة ، القاهرة سنة ١٣٢٥هـ .

٥٥ ـ أبو ريدة ( د. محمد عبد الهادي ) : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

٥٦ ـ أبو زيـد ( د. أحمـد ) : مقال عن التطور الاجتماعي بمجلة عالم الفكر سنة ١٩٧٣ .

٥٧ ـ زينـو ( د. حسـن ) : التطور والإنسان ، دار الدعوة ، الطبعة الأولى ، بيروت سنة ١٩٧١ .

٥٨ ـ السخـاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، دمشق سنة ١٣٤٩هـ .

٥٩ ـ سماحة ( عبد الحميد ) : في أعماق الفضاء ، القاهرة سنة ١٩٢٥ .

٦٠ ـ ابن سينـا : الاشارات والتنبيهات ( ثلاثة مجلدات ) صححه وعلق عليه وقدم له دكتور / سليمان دنيا ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٤٨ .

٦١ ـ ابن سينا : رسالة الحدود ، ضمن تسع رسائل ، قسطنطينية ، سنة ١٢٩٨هـ .

٦٢ ـ ابن سينا : كتاب الهداية ، تحقيق وتقديم وتعليق المرحوم الدكتور / محمد اسماعيل عبده ، الطبعة الثانية مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٧٤ .

٦٣ ـ ابن سينا : كتاب النجاة ، القاهرة ، سنة ١٣٣١هـ .

٦٤ ـ السيوطي ( جلال الدين ) : الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، الطبعة الأولى ، القاهرة .

٦٥ ـ الشحات ( علي أحمد ) : أبو الريحان البيروني حياته ، مؤلفاته أبحاثه العلمية ، القاهرة سنة ١٩٦٨ .

٦٦ ـ الشحات ( علي أحمد ) : نظرية التطور بين العلم والدين ، مكتبة الخانجي القاهرة .

٦٧ ـ شرف ( دكتور محمد جلال ) : المذهب الإشراقي بين الفلسفة والدين الطبعة الأولى دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٦٨ ـ الشهرستاني : الملل والنحل ( خمسة أجزاء في مجلدين ) مكتبة صبيح ، القاهرة ، سنة ١٩٦٤ .

٦٩ ـ صبرى ( الشيخ مصطفى ) : موقف البشر تحت سلطان القدر ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، سنة ١٣٥٢هـ .

٧٠ ـ صبري ( الشيخ مصطفى ) : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مطبعة الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٥٠ .

٧١ ـ صحيح البخاري : دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

٧٢ ـ صليبا ( د. جميل ) : المعجم الفلسفي ( جزءان ) الطبعة الأولى ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت سنة ١٩٧١ .

٧٣ ـ ابن طفيل : حي بن يقظان ، قدم له وحققه فاروق سعد الطبعة الأولى ، دار الآفاق الجديدة بيروت سنة ١٩٧٤ .

٧٤ ـ عاشور (د. محمد عبد القادر) وآخر: محاضرات في علم النبات ، جامعة القاهرة .

٧٥ ـ العامري ( أبو الحسن ) : الإعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق ودراسة دكتور أحمد عبد الحميد غراب ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ .

٧٦ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة سنة ١٣١٦هـ .

٧٧ ـ عبد العليم ( د . أنور ) : قصة التطور ، دار القلم ، القاهرة .

٧٨ ـ عبد الغني ( مصطفى ) : متى نعيد النظر في الفكر الغربي ، مقال بجريدة الأهرام في ٨/٥/١٩٨١ .

٧٩ ـ ابن عربي ( محي الدين ) : الفتوحات المكية . تحقيق دكتور/عثمان يحيى ، تصدير ومراجعة الدكتور / ابراهيم مدكور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٩٧٤ . وطبعة سنة ١٣٢٩هـ .

٨٠ ـ عزام ( دكتور عبد الوهاب ) : التصوف وفريد الدين العطار ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥ .

٨١ ـ العسقلاني ( ابن حجر ) : فتح الباري بشرح البخاري ( ١٦ جزءا ) مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٥٩ .

٨٢ ـ العقاد ( عباس محمود ) : الإنسان في القرآن الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت سنة ١٩٦٩ .

٨٣ ـ الغاياتي ( السيدة منيرة ) : مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين ، مكتبة وهبة ، القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٨٤ ـ الغزالي ( أبو حامد ) : منطق تهافت الفلاسفة المسمى معيار العلم ، تحقيق دكتور سليمان دنيا ، الطبعة الثانية دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٦٩ .

٨٥ ـ الغمراوي ( د . محمد أحمد ) : الإسلام في عصر العلم ، دار الإنسان القاهرة .

٨٦ـــ الفارابي ( أبو نصر ) : آراء أهل المدينة الفاضلة ، الطبعة الثانية ، مكتبة الحسين التجارية القاهرة سنة ١٩٤٨ .

٨٧ـــ الفارابي ( أبو نصر ) : الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية نشرة ديتريصي .

٨٨ـــ الفارابي ( أبو نصر ) : عيون المسائل ، مكتبة صبيح ، القاهرة .

٨٩ـــ فرجارا ( وليـــم ) : كنوز العلم ـــ أسئلة وأجوبة ، الترجمة العربية الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٩٠ـــ فروخ ( د. عمر ) : تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ .

٩١ـــ الفندي ( د . محمد جمال ) : رسالة العلم والإيمان ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .

٩٢ـــ الفيـروز أبـادي : القـامـوس المحيـط .

٩٣ـــ فينكس ( فيليب هـ . ) : فلسفة التربية ترجمة دكتور محمد لبيب النجيحي ، دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٩٤ـــ قاسم ( د . محمود ) : دراسات في الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٩٥ـــ قاسم ( د . محمود ) : محيي الدين بن عربي وليبنتز ، الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٩٦ـــ قاسم ( د . محمود ) : مقدمة تحقيق كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد ، الطبعة الثانية الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٤ .

٩٧ـــ قاسم ( د . محـمـود ) : نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني ، الأنجلو المصرية القاهرة .

٩٨ـــ ابن قتيبة ( أبو محمد ) : عيون الأخبار ( أربعة أجزاء ) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٣ .

٩٩ ـــ القرطبي ( أبو عبد الله محمد ) : الجامع لأحكام القرآن ، دار الكاتب العربي ، الطبعة الثالثة القاهرة سنة [illegible] .

٢٠٠ ـــ القزويني ( زكريا بن محمد ) : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، الطبعة الرابعة ، مصطفى البابي الحلبي القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٢٠١ ـــ قسم النبات الزراعي بكلية الزراعة جامعة القاهرة ـــ محاضرات في النبات العام ، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٢ .

٢٠٢ ـــ قطب ( محمد ) : التطور والثبات في حياة البشر ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، سنة ١٩٧٤ .

١٠٣ ـــ ابن القيم : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، تحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة عاطف ، القاهرة .

١٠٤ ـــ كانون ( د . جراهام ) : نظرات في تطور الكائنات الحية ، ترجمة الدكتور / عبد الحافظ حلمي محمد ، مراجعة الدكتور / كامل منصور ، الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩ .

١٠٥ ـــ كاردينر وبرايسل : هؤلاء درسوا الإنسان ، ترجمة دكتور / أمين الشريف ، دار اليقظة العربية ، بيروت سنة ١٩٦٤ .

١٠٦ ـــ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، مكتبة التراث الإسلامي حلب سنة ١٤٠٠ هـ .

١٠٧ ـــ ابن كثير : البداية والنهاية ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

١٠٨ ـــ كرم ( يوسف ) : الطبيعة وما وبعد الطبيعة ، الطبعة الثالثة دار المعارف ، القاهرة .

٢٠٩ ـــ كرم ( يوسف ) وآخرون : المعجم الفلسفي ، الطبعة الأولى ، مطبعة كوستا توماس ، القاهرة سنة ١٩٦٦ .

١١٠ ـــ كمال ( دكتور علم الدين ) تطور الكائنات الحية ، مقال بمجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الرابع سنة ١٩٧٣ .

١١١ ـــ الكندي : رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الدكتور محمد

عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة سنة ١٩٥٣

**١١٢ ــ كيمني ( جون )** : الفيلسوف والعلم ، ترجمة دكتور / أمين الشريف ، بيروت سنة ١٩٦٥ .

**١١٣ ــ الماتريدي ( أبو منصور )** : كتاب التوحيد ، تحقيق دكتور / فتح الله خليف ، دار الشروق ، بيروت سنة ١٩٧٠ .

**١١٤ ــ ماسينيون ( لويس )** : تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية كتاب مخطوط في المعهد الفرنسي بالقاهرة تحت رقم ٢٢٩٦ .

**١١٥ ــ المجذوب ( الشيخ محمد )** : كيف نربي وكيف نعلم ؟ مقال بمجلة رابطة العالم الإسلامي ، سنة ١٣٨٥ هـ .

**١١٦ ــ مجمع اللغة العربية** : المعجم الوسيط ، القاهرة .

**١١٧ ــ مجلة تراث الإنسانية** : المجلد التاسع ، العدد الأول سنة ١٩٧١ .

**١١٨ ــ محجوب ( فاطمة )** : دائرة معارف الشباب ، الطبعة الأولى دار النهضة العربية ، القاهرة .

**١١٩ ــ محمود ( د. زكي نجيب ) وآخرون** مسائل فلسفية ، القاهرة سنة ١٩٨١ .

**١٢٠ ــ محمود ( د. عبد الحليم )** : القطب الشهيد سيدي عبد السلام بن بشيش ، دار الشعب ، القاهرة سنة ١٩٧٦ .

**١٢١ ــ ابن مسرة** : رسالة الاعتبار ، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ، ضمن كتاب في الفلسفة والأخلاق ، دار الكتب الجامعية القاهرة سنة ١٩٦٨ .

**١٢٢ ــ ابن مسكويه ( أبو علي أحمد )** : تهذيب الأخلاق ، دار مكتبة الحياة ، بيروت سنة ١٩٦١ .

**١٢٣ ــ ابن مسكويه ( أبو علي أحمد )** : الفوز الأصغر ، بيروت سنة ١٣١٩ هـ .

**١٢٤ ــ مظهر ( إسماعيل )** : مقدمة ترجمة كتاب أصل الأنواع لدارون ، مكتبة النهضة ، بيروت ، بغداد سنة ١٩٧٣ .

١٢٥ ـــ ابن منظور : لسان العرب ، القاهرة .

١٢٦ ـــ المودودي ( أبو الأعلى ) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة تعريب خليل الحامدي ، دار القلم الكويت سنة ١٩٧٤ .

١٢٧ ـــ الموسوعة العربية الميسرة : بإشراف محمد شفيق غربال ، دار القلم ، القاهرة .

١٢٨ ـــ ميلي ( ألدو ) : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور / محمد يوسف موسى ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .

١٢٩ ـــ نعيم ( د. محمد السيد ) و حجازي ( د عوض الله ) : في الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية ، الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٥٩

١٣٠ ـــ هدارة ( دكتور سيد رمضان ) : الكون ذرة وحركة ، دار القلم القاهرة سنة ١٩٦٤ .

١٣١ ـــ هويدي ( د . يحيى ) : محاضرات في الفلسفة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٦

١٣٢ ـــ هيكل ( إرنست ) : فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقاء الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٢٤ .

١٣٣ ـــ وجدي ( محمد فريد ) : الإسلام دين علم خالد ، الطبعة الثانية ، القاهرة .

١٣٤ ـــ ابن الوردي ( سراج الدين أبو حفص عمر ) : فريدة العجائب وفريدة الرغائب مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٣٩ .

١٣٥ ـــ ولز ( هـ . ج ) : معالم تاريخ الإنسانية ، الترجمة العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٧٦ .

١٣٦ ـــ يالجن ( دكتور مقداد ) : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٧٣ .

# ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية


1- Afifi (Dr. Abolela) : The Mystical Philosophy of Ibn Arabi.

2- Beebe (J. W.) : The Bird, London.

3- Bergh (Van Den) : The Notes of the English Translation of Tahofut Altahfut, London, 1954.

4- Dobzhonsky and Montagu : Natural selection and the mental capasities of mankind, Science, 1947.

5- Engels (F) : Dialectics of Nature, Progress Publeshers, Moscow, 1966.

6- Encyclopedia Britannica Vol. 11, London, 1958.

7- Guthrie (W.K.C.) : The Greek Philosophers from Thales to Aristotle, Great Britain, 1976.

8- Macdonald, Continuos Recreation and Atomic Time in Muslim Scholostic Theology, Isis, 1926.

9- Oxford Medical Publications.

10- Sarton (G) : Introduction to the History of Science 1. 168, Baltimore, 1927 and 2.62. Baltimore, Washingtion, 1931.

11- Simpeson (G.G.) : The meaning fo Evolution N.Y. 1955.

# فهرست الموضوعات

| الموضوع | | رقم |
|---|---|---|
| | ١ ــ النبات | ٦٩ |
| | ٢ ــ الحيوان | ٧٠ |
| | ٣ ــ الإنسان | ٧٢ |
| **الفصل الثالث** | : تفسير الخلق والتطور | ٨٩ |
| | أ ــ تمهيد | ٨٩ |
| | ب ــ الفاعل في الخلق والتطور | ٩٠ |
| | جـ ــ الأنواع وتعددها | ٩٣ |
| | د ــ الإنسان أفضل المخلوقات | ٩٨ |
| | هـ ــ خلق الإنسان | ١٠٠ |
| **الباب الثالث** | : **نظرية التطور عند مفكري الإسلام** | ١٠٥ |
| **الفصل الأول** | : العالم | ١٠٧ |
| | أ ــ ما المقصود بالعالم | ١٠٧ |
| | ب ــ الاجسام وتكونها | ١٠٩ |
| | جـ ــ تطور خلق العالم | ١١٧ |
| **الفصل الثاني** | : الحياة والكائنات الحية | ١٢٧ |
| | أ ــ الأجسام وأقسامها | ١٢٧ |
| | ب ــ أصل الحياة | ١٢٨ |
| | جـ ــ تطور الكائنات الحية | ١٣٢ |
| | ١ ــ النبات | ١٣٢ |
| | ٢ ــ الحيوان | ١٤١ |
| | ٣ ــ الإنسان | ١٤٤ |
| **الفصل الثالث** | : تفسير التطور | ١٤٩ |
| | أ ــ فلسفة التقسيم | ١٤٩ |
| | ب ــ الفاعل في التطور | ١٥١ |
| | جـ ــ التهجين | ١٥٨ |

| الموضوع | رقم |
| --- | --- |

| الموضوع | رقم |
|---|---|

# «استدراك»

| الصفحة | رقم السطر | الخطأ | الصواب |
| --- | --- | --- | --- |
| ٥٢ | هـ ٤ | سورة القمر ٥٠ | سورة القمر ٤٩ ، ٥٠ |
| ٦٩ | ١٢ | لآيات | لآية |
| ٧٠ | ٣ | وأنزلنا | وأنزل |
| ٨١ | ١٧ | فخلقنا العلقة مضغة فكسونا العظام لحماً | فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً |
| ٨٥ | هـ ١ | سورة الواقعة ٦١ | سورة الواقعة ٦٠ ، ٦١ |
| ٨٧ | ٦ | أن الذي خلقهم | أن الله الذي خلقهم |

## A SUMMARY OF THE THESIS

### « The Theory of Evolution in the View of Islamic Thinkers : A Comparative Study »


This thesis is an attempt to research an important philosophical problem : the creation of the World and living beings, including Man. It is a study of the philosophy of the universe.

In this study I have attempted to broach a subject useful to our Islamic thought, that would turn the attention of scholars to the fields of investigation within it that ar suitable for the modern age, and at the same time, keep us in touch with reality.

I have further attempted to eliminate the confusion in Islamic thought, that many scholars believed the Islamic thinkers to have supported Darwin's theory of evolution, despite the fact that what these thinkers actually said is radically different from what Darwin said. This was done by comparing Islamic thought and Muslim thinkers with Darwin's theory and its followers.

This study is composed of five sections, in addition to the Introduction and conclusion.

The first section defines the scientific and philosphical terms connected with the theory of evolution, in two chapters. The first chapter examines the term « evolution » within the language and heritage of philosophy and science both ancient and modern. The second chapter demonstrates the true meaning of the term « creation ».

The second section assumes treatment of the question of creation and evolution in the Holy Quran and the Sunna, in three chapters. The first of these treats the question of the creation and origin of the Earth, the second examines the true origin of the life, creation and evolution of living beings, while the third chapter offers an explanation of creation and evolution.

The third part of the thesis treats the theory of evolution in the view of the Islamic thinkers, in three chapters. The first chapter deals with

the origin of the world and examines some of the mistakes of these thinkers, as when they believed the other planets to be the heavens referred to in the Quran An Objective Study of the Quranic texts reveals that these planets are not the seven heavens. In the second chapter

I discuss the origin and creation of life and living beings, then examine the true nature of evolution in the view of the Islamic thinkers, and finally I prove that their ideas differ from Darwin's theory. The third chapter explains the Islamic thinkers theory of evolution, shows that their theory is in fact a sort of classification of living beings, not the derivation or transformation of one species to another, and finally shows that the position of the Islamic thinkers regarding Man is in total agreement with the Quran.

In the fourth section I deal with the theory of evolution of the Modern Western Thinkers, in three chapters. The first chapter discusses the World and its origin as found in authentic sources, and here I confirm the basic rule that searching for the origins of phenomena is not the function of science, but rather its function is to examine the relationships between phenomena and their applications, the second chapter discusses the guestion of the origin of life, the evolution. In the third chapter I treat the Western explanation of evolution, and show that the theory is in fact quite old. I also introduce various theories of evolution in their two types : general universal evolution, and organic evolution.

The fifth section is a comparison of the two views, and an evaluation and criticism in the light of the Holy Quran and Prophetic Tradition. I have attempted to be objective, impartial and unemotional, retaining at all times a scientific neutrality.

The conclusion covers the most distinctive and important scientific results that were reached through the study.

First : The subject of creation and the study of the origins of the universe and living beings including the origin species and Mankind, is a theological and Metaphysical matter about which no human may render judgement with his intellect, no matter what knowledge and experiment claim.

Second : There is no doubt that the world has been created gradually.

Third : It may not be concluded that the Islamic thinkers supported Darwin's organic evolution, but we may conclude from their writings that there is a gradation in the creation of living beings such that minerals preceded, then plants appeared, then animals, then Man. This evolution is based on the principle of natural selection. Even if we supposed that the Islamic thinkers supported Darwin's theory, there would be a difference between the two.

Fourth : the Holy Quran did not expound upon the origin of plant or animal life, and so the human intellect may research this origin without falsifying the truth. As for the origin of man, the Quran and Sunna speak in great length and detail about it, and so they alone possess the true judgement about this origin.

Fifth : One should not hasten to refuse or accept any specific scientific theory, no matter what its source, for judgement should not be passed until after extensive, deliberate, and scrutinizing study, so that we do not reconcile two apposing theories, one spiritual and one material, or support a theory that may be an object of criticism even from those who founded and tried to prove it.

Sixth : If the theory of evolution is ever proven to be correct, that would not ential disbelieving in God : for evolution itself is an event, which must originally have a Prime Mover.

Seventh : We must embrace the Islamic concept of Man rather than the Western concept which mainly declares him to be an animal, for man is the creature which God blessed, in the best form with the most value, and put His spirit within him. Man therefore deserves the respect of God's angels and the envy of Iblis, and is ever protected and cared for by God.

Maintaining that man is a animal, them, with all that distinction, honour, and preference, must be limited to the organic structure that Man Shares with animals, and his derivation along with other beings, from a single source : the Earth.